
AMERICAN UNIV IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00977 1258

ID 99-B 4364 put
20/9

Husayn, Muhammad Kamil,
Sirat al-mu'ayyad fi al-Din Da'i al-Du'ah.
BP
195
I82
S5x
1949

سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة

ترجمة حياته بقلمه

المؤيد في الدين داعي الدعاة
هبة الله بن موسى بن داود
الشيرازي ... - ٤٧٠ هـ

تقديم وتحقيق

محمد كامل حسين

بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول



القاهرة

دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

١٩٤٩

الطبعة الأولى ... أكتوبر ١٩٤٩

٩٢٢
م٢.س

42020

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصرى ١٩٤٩

اهـــداء

إلى أستاذى الأجل حضرة صاحب العزة

الدكتور طه حسين بك

لقد جليتم حقيقة أبى العلاء فكانت كتابتكم خير ما أخرج للناس عنه، فهل تأذن لتلميذك أن يرفع إليك سيرة المؤيد داعى الدعاة مناظر أبى العلاء، إجلالا لشخصك واعترافاً بفضلك.

محمد كامل حسين

فهرس

صفحة

صفحة

تقـــدمة

هذا كتاب آخر نضيفه إلى سلسلة مخطوطات الفاطميين التى نعمل على نشرها ، بعد أن ظلت عدة قرون فى طى الخفاء لحرص الاسماعيلية على ستر علومهم وعقائدهم عن الناس ، فان الستر عقيدة من عقائدهم الدينية ، وقد يكون هذا الكتاب من أشد الكتب ستراً عند طائفة البهرة الذين يزعمون وراثة مذهب الفاطميين ، ويدينون بطاعة إمام مستور من نسل الطيب بن الآمر بأحكام الله الفاطمى ، فقد بلغ حرص القائمين على دعوة البهرة أنهم لا يسمحون لأبناء طائفتهم أن يتصلوا بهذا الكتاب عن قرب أو عن بعد ، بالرغم من أن هذا الكتاب فى تاريخ حياة داعية من دعاة الفاطميين ، وبقلم الداعى نفسه ، وأن هذا الكتاب لا يلم بعقائد الفاطميين إلا إلماما يسيرا هينا لا خطر من إذاعتها بين الناس وخاصة بين أبناء طائفتهم ، ولكن الخطر فيما وعاه هذا الكتاب من أسرار عن إمام فاطمى هو المستنصر بالله (٤٢٧ — ٤٨٧ ﻫ) ، (١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) وعن تلاعب الوزراء به وبالبلاد ، فهى أسرار تسىء إلى عقيدة من أهم عقائدهم وهى الامامة التى هى قوام عقيدة الفاطميين ، كما تسىء إلى الأئمة المعصومين بزعمهم ، ومن هنا كان حرص القائمين على دعوة البهرة على إخفاء الكتاب عن أتباعهم حتى لا يتطرق الشك فى الامامة والأئمة ، ولا سيما أن مؤلف هذا الكتاب داعية من أكبر دعاة مذهب الاسماعيلية منذ نشأ المذهب إلى الآن .

مؤلف الكتاب

يعرف هذا الكتاب بين الاسماعيلية «بالسيرة المؤيدية» تارة و «بسيرة سيدنا المؤيد فى الدين» تارة أخرى ، كتبه عن نفسه داعى الدعاة المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى ابن داود الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٠ ﻫ[1] ، الذى عرف فى تاريخ الأدب العربى برسائله

---

(١) راجع مقدمة كتاب «ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة» من مطبوعات دار الكاتب المصرى .

التى ناظر بها أبا العلاء المعرى فى موضوع أكل اللحم ، تلك الرسائل التى نشرها الأستاذ المرحوم مارجوليوث المستشرق الانجليزى لأول مرة سنة ١٩٠٢ فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عن نسخة خطية عثر عليها بمكتبة أكسفورد ، وحاول الأستاذ مرجوليوث أن يعرف شيئا عن حياة المؤيد داعى الدعاة فخانه التوفيق ، لأن المؤرخين وأصحاب كتب التراجم أغفلوا الحديث عن هذا الداعية الخطير مع أنهم ترجموا لمن هو أقل من المؤيد شأنا سواء فى الأدب أم فى تاريخ الفكر الاسلامى أم فى تاريخ الاسلام السياسى ، وحسبك أن تدرك خطر هذا الداعى أنه استطاع أن يدخل ملكا من الملوك البويهيين فى دعوته ، وأنه حاول القضاء على الدولة العباسية بتأليب أمراء العراق والشام على القائم بأمر الله العباسى ، ونجحت مساعيه فى إقامة الدعوة لامامه المستنصر الفاطمى على منابر بغداد سنة ٤٥٠ ه ، ولولا أمور لا طاقة له بدفعها لقضى على الخلافة العباسية قضاء تاما ، ولغير وجه التاريخ الاسلامى ، كما أنه استطاع أن يعيد مدينة حلب إلى أملاك الفاطميين بعد أن أعيت جيوشهم ، هذا بعض نشاط المؤيد فى الدين داعى الدعاة السياسى الذى أهمل المؤرخون وأصحاب التراجم التحدث عنه فى كتبهم ، فللأستاذ سرجوليوث العذر فى أنه لم يوفق لمعرفة حياة هذا الداعية.

وظلت حياة المؤيد فى الدين مجهولة حتى نشر الأستاذ الدكتور حسين همدانى سنة ١٩٣٢ بحثه عن «تاريخ وأدب الدعوة الاسماعيلية فى أواخر عصر الفاطميين (١)» ، وتحدث فى هذا البحث عن المؤيد فى الدين حديثا طويلا وذكر أنه اعتمد فى كتابة هذا البحث على كتاب «السيرة المؤيدية» . ثم نشر الأستاذ الكبير و. ايفانوف المستشرق الروسى كتابه «المرشد إلى أدب الاسماعيلية» (٢) وذكر فيه أن كتاب السيرة المؤيدية لا يزال موجوداً فى خزائن الدعوة بالهند ، فسعينا جهدنا للحصول على هذا الكتاب فكان من حسن طالعنا أننا وفقنا إلى الحصول على نسختين خطيتين من «السيرة المؤيدية» وعلى أربع نسخ خطية من ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة ، وعلى نسختين خطيتين من «كتاب المجالس المؤيدية» وهى مجالس التأويل التى كان يلقيها على جمهور المستجيبين وهى ثمانمائة مجلس ، فكانت هذه الكتب وغيرها من كتب الدعوة التى حصلنا عليها أصدق عون لنا فى التعريف بالمؤيد فى الدين ثم بالعقائد التى كان يدعو لها ، أهلتنا لأن ننشر ديوان المؤيد وسيرة المؤيد وغيرهما من كتب الفاطميين .

---

(١) *The History of the Isma'ili Da'wat and its Literature during the last Phase of the Fatimid Empire, J.R.A.S.*, Part I, 1932.

(٢) *A Guide to Ismaili Literatnre*


سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة
ترجمة حياته بقلمه

لم يحدثنا المؤيد فى سيرته عن حياته بأكملها ، ولم يذكر لنا شيئاً عن أسرته ولا عن أساتذته ، فقد كان رجلا يدين بالستر فلم يشأ أن يزيح الستر عن شيوخه الذين أخذ عنهم ، ولا عن الدعاة الذين اتصلوا به وأخذوا عنه ، واكتفى بأن جعل آخر رمضان سنة ٤٢٩ ﻫ بدء سيرته ، ويخيل إلى أن المؤيد عند ما بدأ بكتابة سيرته لم يشأ أن يكتب ترجمة حياته ، إنما أراد أن يؤرخ ما حدث بينه وبين الملك أبى كاليجار البويهى فى شيراز ، ثم توسع المؤيد فى سرد الحوادث وتفصيلها واستطرد فى ذكر بعض الحوادث التى أسهم فيها ، فكان نتيجة ذلك أنه كتب جزءاً هاماً من تاريخ حياته ، ولا ندرى ما الذى دفع المؤيد إلى الاقتصار على هذا الجزء من تاريخ حياته مع أنه عاش نحواً من عشرين عاماً بعد تلك الحوادث التى ختم بها سيرته ، معنى هذا كله أن المؤيد لم يترجم لنفسه إلا لجزء يسير من حياته وهو الجزء الذى يقع بين سنة ٤٢٩ ﻫ وبين سنة ٤٥٠ ﻫ ، أما قبل سنة ٤٢٩ ﻫ ، فليس بين أيدينا مصادر تحدثنا عنه ولا عن أسرته ، ولعل الاشارة الوحيدة التى وردت فى السيرة عن والده هى قول المؤيد لوزير الملك أبى كاليجار «إن والدى كان فى هذا البلد متسما بهذا الاسم ، مرتسما بهذا الرسم ، وكان له من المكنة واليد والقدرة ما كان يغنيه أن يطأ عتبة باب ، أو يقاسى ذل حجاب ، وكان الوزير أبو غالب الواسطى — الملقب بفخر الملك — وزير الوزراء الذى كان ما كان باتساع مكنته وانبساط يده ، نازلا هذه الدار التى تنزلها ، فلم يعهد والدى قط داخلا إليه ولا مسلماً عليه ، ووجد ذلك غير دفعة يزوره ليلا فى بيته ويغشاه فى منزله»[1] فهذا النص هو الوحيد فى السيرة الذى ورد فيه ذكر أبيه ، ومنه نعرف أن والده كان داعى دعاة المذهب الفاطمى فى إقليم فارس ، وأنه كان على جانب من عزة النفس والمكانة بين مواطنيه حتى أن الوزير الواسطى كان يزوره فى منزله دون أن يزور هو الوزير فى منزله أو فى دار وزارته . ويخيل إلى أن المؤيد أخذ عن والده موسى بن داود علوم الدعوة ، فقد كان والده يهيئ ولديه لهذا المنصب من بعده ، فقد ورد فى رسالة مباسم البشارة بالامام الحاكم لأحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى المتوفى سنة ٤١٢ ﻫ ، أن الامام الحاكم بأمر الله قال فى آخر سجل ورد نواحى فارس على موسى بن داود جواباً عما كان اختاره من إقامة ولديه مكانه توبيخاً له وإنكاراً لقوله «وأما فتياك وما ذكرت أنك تورثه لها ، فذلك على ما يراه الامام فى وقته وحينه ، الأيام تعد ياموسى ، والأنفاس تحصى ، والرد إلى الله تعالى وإلى وليه أحق وأحرى ، ولا تقولن لشئ إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا»[2] ، ومن يدرى

(١) راجع صفحة ١٥ . — (٢) مجموعة رسائل الكرمانى (نسخة خطية بمكتبتى) .

لعل المؤيد اتصل ببعض كبار رجال الدعوة فى عصره وأخذ عنهم ، وربما اتصل بأحمد حميد الدين الكرمانى الذى لقب بحجة العراقين ، والذى يعد من أكبر فلاسفة المذهب وعلمائه ، فقد شاهد المؤيد فى صباه السنوات الأخيرة من حياة الكرمانى ، فربما اتصل به ، وأخذ عنه شيئاً من العلوم التى أهلته لأن يبلغ ما بلغه من علوم الدعوة حتى وصف نفسه بقوله لامامه المستنصر بالله « وأنا شيخ هذه الدعوة ويدها ولسانها ومن لا يماثلنى أحد فيها (١) » .

ومهما يكن من شئ فانا نستطيع أن نستخلص من كتبه التى بين أيدينا أنه ولد فى شيراز حوالى سنة ٣٩٠ هـ (٢) ، وأنه تدرج فى مراتب الدعوة حتى صار حجة جزيرة فارس ، وعرف بنشاطه فى الدعوة لمذهبه حتى أوغر صدور جمهور أهل السنة ، وصدر الملك أبى كاليجار البويهى ، حتى إذا كان سنة ٤٢٩ هـ عزم الملك على نفى المؤيد من شيراز على نحو ما رواه المؤيد فى سيرته . ونترك المؤيد يروى حياته بعد ذلك ، وكيف استطاع أن يتقرب إلى أبى كاليجار ، بل كيف أقنع الملك إلى الاستجابة إلى دعوته ، وأن يتخذه المؤيد تلميذاً له فى أمور دينه ، ثم كيف ثار جمهور أهل السنة فى فارس واستعانوا بالخليفة العباسى فى بغداد الذى اضطر إلى أن يهدد أبا كاليجار بالاستغاثة بالسلجوقيين ، فاضطر أبو كاليجار إلى أن يبعد المؤيد عنه ، كما اضطر المؤيد إلى أن يهرب من فارس وأن يفر إلى مصر سنة ٤٣٨ هـ .

ثم يحدثنا المؤيد عن حياته فى مصر وعن علاقته ببعض الوزراء ورجال بلاط المستنصر بالله ، ويذكر المؤيد فى صراحة أن المستنصر بالله الامام الفاطمى كان ألعوبة فى أيدى رجال دولته ، وأنه كان محجوراً عليه ، وأن أم الامام ووكلاءها كانوا هم المتصرفون فى أمر البلاد ، ففى حديث المؤيد إلى أبى سعد التسترى «أيها الشيخ : اعلم أنه ما مجتنى ديارى من فمها إلا تكشفاً بخدمة هذه الدولة العلوية ، وتخوفاً من الجهة العباسية ، وتسللا من فتنة كاد شرها يهلكنى وغرقها يدركنى ، لا أننى لسعت بحمم الاملاق فأويت إلى درياق الانتفاع والارتفاق ، فما الداعى إلى قصدى هذا غير داعى الايمان ، وما المقصود إلا صاحب القصر الذى هو إمام الزمان دون الوزراء والوسائط والأعوان ، فان كان هذا المقصود يعلم أننى أنا الرجل الذى فيه أخرجنا من ديارنا وأبنائنا — كما قال الله تعالى — وهو يأنف علىّ من لقائه بلحظة ، ومن خطابه فيما يشرح الصدر بلفظة ، فبختنصر أولى بأن يقام فى خدمته على ساق ، وأوقع سنه من مواقع استحقاق ، وإن كان لوجهه إلىّ التفاتة غير أن عنده وجهاً عنى يلفته ، وللسانه معى مخاطبة سوى أن له مسكتاً عن خطابى يسكته ، فلا خير

(١) راجع ص ٩٩ . — (٢) ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ٢١ وما بعدها .

فى المقام على باب من يكون محجوراً عليه ، ويكون مقاليد أموره بيدى غيره لا بيديه»[1].

ونحن نعجب أن يصدر مثل هذا الكلام عن شيخ من شيوخ الدعوة فى حق إمام عصره الذى يدعو له ويدين بامامته وطاعته بل وعصمته ، وكان من حق المؤيد وهو من شيوخ الدعوة أن يشيد بالامام المعصوم ويتجنب التعريض له من قريب أو من بعيد ، وأن يجعل هذا الامام فوق هامات البشر — كما فعل المؤيد فى ديوانه — ولكن المؤيد فى سيرته هذه يعطينا صورة دقيقة صادقة لما كانت عليه مصر فى النصف الأول من القرن الخامس للهجرة ، بعد أن خلع عن نفسه صفته المذهبية ، وطرح عن نفسه عقيدته الدينية فى الامامة ، ولبس مسوح المؤرخ العالم الذى يكتب ليرضى نفسه قبل أن يرضى السلطان أو الوزير ، ويصف ماشاهده من وقائع وأحوال دون أن يتأثر بمؤثرات الدين ، أو يتطلع إلى رياسة ، وإذا كان المؤيد لم يأبه بامامه المعصوم على هذا النحو ، وتحدث عنه هذا الحديث الذى يجعل من إمامه المعصوم ألعوبة فى أيدى غيره ، فكذلك تحدث عن الوزراء ورجال الدولة الذين استغلوا ضعف الامام فتلاعبوا به ، وبالبلاد لمصلحتهم الشخصية ، حتى اضطربت أمور مصر وأدى الأمر إلى المحنة التى عرفت فى التاريخ بالشدة العظمى المستنصرية . حقيقة لم يأت المؤيد فى هذا الحديث بشىء جديد على المؤرخين ، فان ذلك كله مسطر فى كتب التاريخ ، ولكن الجديد الذى لا أكاد أجد له مثيلا فى كتب التاريخ الاسلامى ، أن المؤرخ تحدث عن ذلك كله صراحة فى حياة الامام وعلى مسمع من وزرائه بينما لم يعودنا المؤرخون أن يوجهوا انتقاداً أو لوماً إلى الملوك والأمراء فى حياة الملوك والأمراء . بل كان من المؤرخين من اضطر إلى تغيير بعض الحقائق التاريخية لجلب منفعة لنفسه أو دفع مضرة ، وقد تحدث ابن خلدون فى مقدمته حديثاً طويلا عن هؤلاء المؤرخين وضرب أمثلة عديدة لأقوال بعضهم وناقشها مناقشة دقيقة واضطر إلى دفعها أخيراً ، أما المؤيد فى الدين فقد كتب ما كتبه فى سيرته ، وتحدث عن الامام والوزراء بما تحدث به دون أن يتطلع إلى منفعة يبتغيها أو يخشى أذى يلحق به ، فكانت كتابته على هذا النحو جديدة على التاريخ الاسلامى ، ويكفى أن تقرأ قول المؤيد عن حالته النفسية قبل أن يدخل مصر وبعد أن استقر بها لتدرك أن المؤيد كان صادق اللهجة فى حديثه ، دقيقاً فى تعبيره عن شعوره وإحساسه . قال المؤيد : ولما حصلت بالحضرة الشريفة على النصبة المقدم ذكرها ، كنت استصحبت إليها من البضاعة ما كانت تحدثنى نفسى أنه به أفلح ، وبه يكون توجهى تقدمى ، ومنه أطأ فوق النجوم بقدمى لكون متجرى فيها ربيحاً وسعيى نجيحاً ،

(١) صفحة ٨٣ وما بعدها .

وكونى بالفضل معها مبرزاً وعن كل قرن متميزاً ، فكشف لى الزمان عن كون البضاعة التى كان رجائى فيها هذا الرجاء بائرة كاسدة مسترذلة مستذلة ، فسقط فى يدى وعمى علىّ طريق رشدى ، وقلت الآن ضل السعى وخاب الأمل ، وبطل المعتمد عليه والمتكل ، وألجأتنى الضرورة إلى غيرها من بضاعة مزجاة ما كنت اعتدتها طول دهرى ، إذ كان حظى منها كحظ غيرى ، فلولا أنها تقوم بى وتريش قليلا سهمى لما قامت لى راية فى مجامع الناس ، ولتلاعبت بى أيدى الأوضاع منهم والخساس (١) ويزداد إعجابنا بصراحة هذا المؤرخ الفذ إذا علمنا أن البضاعة التى كان أعدها لرفع شأنه هى علوم الدعوة التأويلية ، مما يدلنا على أن الدعوة قد بدأت تضعف فى مصر ، وأن القائمين عليها لم يأبهوا بها ، فاضطر المؤيد أخيراً إلى أن يجاريهم فى هذا المضمار .

ثم يترك المؤيد مصر فى أمر خطير نيط به القيام عليه ، وكان المؤيد أول من فكر فيه ومهد له مع وزراء مصر ، فعهد إليه المصريون أن يتمم ما بدأه ويتكفل بتنفيذ ما شرع فيه ، ذلك الأمر أن يكون على رأس مدد الأموال والخلع التى أرسلها المصريون إلى البساسيرى ليتقوى بها فى حركته ضد العباسيين والسلجوقيين ، فيحدثنا عن هذه النصبة التى وليها وجهوده فى تحقيقها ، وكيف جذب إليه قلوب الأمراء العديدين الذين استقلوا بإماراتهم فى العراق وشمال الشام ، ولم يتركوا للخليفة العباسى سوى الخطبة على المنابر ، وكانوا كثيراً مايترددون بين الدعوة للعباسيين والدعوة للفاطميين دون أن يكون لهم رادع من دين دانوا به أو عهد عاهدوا عليه ، بل كان النفاق ديدنهم ، والطمع فى أموال وخلع العباسيين والفاطميين رائدهم ، كما كانت الحروب بين هؤلاء الأمراء مستعرة دائما مما أضعف الدولة العباسية وأطمع فيها البويهيين ثم السلاجقة .

كان أكبر هذه الامارات أثراً فى القرن الخامس هى: بنو مزيد فى الحلة (٤٠٣–٥٤٥ﻫ)، وبنو مروان فى ديار بكر (٣٨٠ – ٤٨٩ﻫ) ؛ وبنو عقيل فى الموصل (٣٨٦–٤٨٩ﻫ)، وبنو مرداس فى حلب (٤١٤ – ٤٧٢ ﻫ) ، وسوى هذه الامارات كان بعض الأمراء يحتل بلداً ، ثم سرعان ماينتقل هذا البلد إلى يد أمير آخر بعد حروب ومحن ، وهكذا كان أمر البلاد فى اضطراب ليس بعده اضطراب ، والأمراء فى منازعاتهم ومشاحناتهم بعضهم مع بعض مما جعل موقف المؤيد دقيقاً حرجاً ، ووصف فى سيرته علاقته بهؤلاء الأمراء ، حتى استطاع أن يؤلف بينهم فهزموا السلجوقيين فى أول الأمر ، ولكنهم لم يلبثوا أن انفصم عرى شملهم فسهل على طغرلبك أن يوقع بهم ، وتتوالى الحوادث فيدخل البساسيرى بغداد سنة ٤٥٠ﻫ،

(١) صفحة ٧٩ .

ويدعو فيها للمستنصر الفاطمى صاحب مصر ، ولكن بعد عام واحد عاد طغرلبك، واستخلص بغداد من أيدى البساسيرى بفضل مساعدة الأمراء الذين كانوا يؤيدون البساسيرى من قبل ، ويعود القائم بأمر الله العباسى إلى مقره فى بغداد .

عاد المؤيد إلى مصر قبل أن يدخل البساسيرى بغداد بقليل ، بعد أن بذل هذه الجهود المضنية ، وعرض نفسه لأخطار جسيمة ، ووصف دخوله مصر بأنه «دخول المهزوم لا الهازم، والمكسور لا الكاسر، والمغلوب لا الغالب ، ولقيت ما كنت آمله من التقديم والاعلاء والرفع إلى مناط الجوزاء عكساً وضداً [1] » .

ثم لم يحدثنا المؤيد عن حياته بعد ذلك ، ولكننا نعلم من مصادر أخرى أن المؤيد أصبح داعى الدعاة سنة ٤٥٠ هـ ، وأن الوزير عبد الله بن يحيى بن المدبر فى إحدى نوبتيه للوزارة نفى المؤيد من مصر [2] ، فرحل إلى القدس ثم عاد إلى مصر مرة أخرى ، وينزل فى داره لمك بن مالك قاضى الصليحيين باليمن مدة خمس سنوات ، استوعب فيها لمك علوم الدعوة عن المؤيد ، فأصبح المؤيد بذلك أستاذ الدعوة فى اليمن ، وهى الدعوة التى عرفت بعد ذلك باسم الدعوة الطيبية وتعرف الآن بالبهرة . وتوفى المؤيد سنة ٤٧٠ هـ ، ودفن فى دار العلم بعد أن صلى عليه إمامه المستنصر بالله .

هذا ملخص حياة هذا الداعية ، الذى أهمل الكتاب والمؤرخون الحديث عنه ، فلا هم ذكروه مع العلماء مع أن مؤلفاته لا تزال تحتفظ بمنزلتها الرفيعة بين البهرة ، ولم يذكروه بين الشعراء ، مع أن البهرة لا يزالون يرددون بعض قصائده على نحو ما يقرأ الصوفية أورادهم ، ولم يذكروه بين رجال السياسة مع جهوده السياسية التى أشرت إليها من قبل ، وفصلها هو فى سيرته ، ونحن نعجب للمؤرخين وأصحاب كتب التراجم كيف أغفلوا الحديث عن المؤيد فى الدين ، فهل تعمدوا ذلك لأنه كان يدين بمذهب غير مذهب أهل السنة ؟ ولكنى أراهم قد ترجموا لكثير من رجال الشيعة ، ولبعض أصحاب المذاهب الالحادية ، فمذهب المؤيد لايمنع المؤرخين من الحديث عنه . وإذا قلنا إنهم أهملوا الحديث عنه لأنه أقل شأناً من أن يتناولوه بالحديث ، فنراهم قد ترجموا لمن هو أضعف شأناً وأثراً فى الحياة من المؤيد ، فلم يبق لتعليل إغفال المؤرخين أمر الحديث عنه سوى تدين الاسماعيلية بالستر ، فهم يسترون دعاتهم وكتبهم وعقائدهم حتى لايعرفها إلا من اعتنق مذهبهم ، ولهذا لا تجد ترجمة حياة علماء الدعوة فى المراجع التى بين أيدينا مع أن كتبهم وصلتنا ، فنحن لا نكاد نعرف شيئاً عن أبى حاتم الرازى، ولا عن أبى يعقوب السجستانى، ولا عن أحمد

---

(١) ص ١٧٧ . — (٢) ابن منجب ص ٤٨ .

حميد الدين الكرمانى ، وهم أكبر شيوخ الدعوة فى القرن الرابع والخامس للهجرة ، فلو لم يكتب المؤيد فى الدين شيئاً عن حياته فى السيرة المؤيدية ، ولو لم تصلنا هذه السيرة ما كنا نعلم شيئاً عنه .

قيمة الكتاب

فاذا تركنا الحديث عن قيمة الكتاب من ناحية أنه ترجمة ذاتية لأحد دعاة مذهب يدين بالستر ، فكشف هذا الكتاب ماحاولوا ستره من جهود هذا الداعية فى سبيل مذهبه ، وهى ناحية هامة كانت غامضة عند الباحثين ، فاننا نستطيع أن نلمس قيمة هذا الكتاب فى عدة نواح أخرى منها ما هو متصل بالعقائد ، ومنها ما هو متصل بالتاريخ ، ومنها ما هو متصل بالأدب .

أما من ناحية العقائد الفاطمية فاننا نرى الداعى يذكر فى سيرته :

١ — احتفاله بعيد الفطر سنة ٤٢٩ هـ ، قبل احتفال جمهور أهل السنة بيوم[1] ، وهذه ناحية هامة فى عقائد القوم تخالف ما عليه جمهرة المسلمين وهى سبب كتابة السيرة المؤيدية ، فان الفاطميين لم يتخذوا رؤية الهلال لمعرفة ابتداء شهر الصيام رؤية بصرية ، بل رؤية استبصار ، ولدعاتهم فى هذا الموضوع أحاديث كثيرة ، وكتب مؤلفة يحاولون فيها دحض أقوال جمهور أهل السنة ، وإثبات عقيدتهم هذه ، فمن ذلك ما قاله صاحبنا المؤيد فى الدين فى مجالسه .

زعم الزاعمون أن شهر رمضان يتم تارة وينقص أخرى ، وأن صيامه مبنى على رؤية الهلال ، واحتجوا بقول النبى صلى الله عليه وسلم «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غم عليكم فأكملوا ثلاثين » ؛ وهذا القول فاسد من عدة وجوه نحن نذكرها ونقيم الأدلة على كون شهر رمضان كاملا أبدا ، لا يعتريه النقص بحال من الأحوال ، ونبدأ بالرد على من يحتج بالخبر «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته» فنقول إنكم معترفون بكون مقتضى هذا الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد التوجه فى بعض الغزوات فى القرب من شهر رمضان ، فاجتمع إليه أصحابه فقالوا : يارسول الله ، كنا نصوم بصومك ونفطر بافطارك ، فكيف حالنا فى غيبتك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته » فقد دل حيز الخبر على وجوب الصوم بصوم الرسول ، إذا كان حاضراً أو من يقوم مقامه

(١) راجع ص ٥ وما بعدها ، وص ٥٩ وما بعدها .

إذا كان غائباً ، ووجوب الفطر بافطاره ، وإن الصوم على رؤية الهلال من قضايا الضرورة فى حين عدم الرسول والامام الذى يقوم مقامه ، فاذا كان الرسول حاضراً أو الامام حاضراً ، كان قانون الغرض أن يصام بصومه ويفطر بافطاره . كما قال القوم للنبى صلى الله عليه وسلم : « كنا نصوم بصومك ونفطر بافطارك » . وأما قول من قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصوم برؤية الهلال ، فهو فاسد من ثلاثة أوجه : وجهان منها شرعيان،ووجه عقلى ؛ فأما أحد الوجهين الشرعيين : فمعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول وهو صادق : إن الروح الأمين جبرائيل يغشاه بكرة وعشيا بالوحى والقرآن الكريم ، ومن كان جبرائيل يأتيه بكرة وعشيا بأخبار السماء ، فلا حاجة به إلى أن يقلب وجهه فى السماء بطلب الهلال ، وعنده من يأتيه بالخبر اليقين . والوجه الآخر : أنه مأثور عنه صلى الله عليه وسلم فى الأخبار أنه قال : «أنا بطرقات السماء أعرف منكم بطرقات الأرض» . فلو أنه بعد هذا القول شوهد يطلب الهلال لقيل له : فأين قولك بالأمس « إنك بطرقات السماء أعرف منا بطرقات الأرض » . أما الوجه العقلى : فمعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم منزه أن يخفى عليه من حال الاختلاف فى مطالع الأهلة ومرائيها مالا يكاد يخفى على منجم ، وإن أوضاع الأرض مختلفة ، فمنها مرتفع يقضى بأن تكون رؤية الهلال أسرع مثل رءوس الجبال وما يجرى مجراها، ومنها مستسفل يقضى بأن تكون الرؤية فيه أبطأ. وإذا كان معلوم من حاله أن ذلك مما لا يخفى عليه فكيف يوجب العقل مع معرفته باختلاف المرائى أنه يفرض فريضة الصوم المتعلقة بفريضة الحج على الناس كافة على بنية واحدة وهو يعلم أنها لا تصح ، لأن قوما يرون فى ليلة ما وقوما لايرون ، ثم لا يصح أن يوما واحداً يكون من شعبان حيث لايرى ، أو من رمضان حيث لا يرى ، ومن شوال حيث يرى ، هذا مما يشك فيه عاقل ، ولا يدفعه إلا جاهل. وسوى هذا ، فقد قال الله سبحانه فى محكم كتابه: «كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» ، والذين من قبلكم مشار به إلى النصارى ، وصيامهم غير متعلق بالرؤية بل بالحساب . ثم قال سبحانه تأكيداً «أياماً معدودات» ، والأيام المعدودات هى التى لاتزال معدودة، ولا يحتاج فيها إلى رؤية الهلال ولا نظره، فلو كان يحتمل أن يكون شهر رمضان تارة ثلاثين ، وتارة تسعة وعشرين لما قال أياماً معدودات قطعاً .

وقول آخر : لما كان موضوع السنة أن يكون ستة أشهر كاملة وستة أشهر ناقصة ، وجب أن يكون أصلها وبناؤها موضوعاً على الكمال دون النقصان ، فالشهر الأول الذى هو المحرم كامل وصفر ناقص ، وربيع الأول كامل وربيع الآخر ناقص، وجمادى الأولى كامل وجمادى الآخرة ناقص ورجب كامل وشعبان ناقص، وشهر رمضان كامل . قال النبى صلى الله

عليه وسلم (ما تم شعبان ولا نقص رمضان) بدليل على نقص شعبان ليلة النصف منه ، ولا نصف لرجب ولا لشهر رمضان ، وذلك أن ليلة النصف من شعبان ليلة الخامس عشر منه ، وهذه الليلة ليلة النصف بالحقيقة لكون أربعة عشر قدامها وأربعة عشر خلفها ، وهى فى النصف ولا يكاد يصح ذلك فى شهر رمضان ، ومما يدل على كمال شهر رمضان أيضاً موضوع أمر الكفارات من أفطر فيه يوماً متعمداً ، وهو أن يصوم شهرين متتابعين توبة إلى الله ، وهو مثلا شهر رمضان ستون يوماً ، فان لم يستطع فاطعام ستين مسكيناً ولو كان يحتمل أن يكون شهر رمضان تسعة وعشرين يوماً لاحتمل أن تكون الكفارة إطعام ستين مسكيناً أو ثمانية وخمسين مسكيناً [1] » .

وتحدث أحمد حميد الدين الكرمانى عن هذا الموضوع فى رسالته الموسومة «بالرسالة اللازمة فى صوم شهر رمضان وحينه [2] » وذكر فى مقدمتها أنه كتبها لأن المسلمين «قد كثرت أقاويلهم طعنا منهم على الجماعة ، وتعييراً لهم فى دخولهم الصوم قبل العامة ، وسألت أن أشرح لك أمر الصوم فى دخول جماعة شيعة أمير المؤمنين قبل أولئك وخصوصاً سنة أربعمائة التى أوجبت الأوامر الواردة من الحضرة الطاهرة الدخول فيه بيومين قبل رؤية الهلال عياناً» ، وحديث الكرمانى ينصب كله فى إثبات أن الرؤية يجب أن تكون رؤية علمية ، وكذلك فعل صاحب كتاب عيون المعارف [3] . فموضوع بدء شهر الصوم ، وهو الموضوع الذى بسببه كتب المؤيد سيرته ، من أهم موضوعات الخلاف بين عقائد الفاطميين وجمهور أهل السنة ، كما كان من أقوى الأسباب إلى نهضة علمية فى مصر الفاطمية ولا سيما فى الرياضيات والفلك ، والذى بسببه عرف الفاطميون بالشغف بدراسة النجوم وحركاتها ، وإقامة المراصد ، وعمل الزيجات .

٢ — وجوب طاعة الله والرسول والأئمة من نسله [4] حتى قال المؤيد فى رده على ابن المسلمة «وليس اعتقادى فى هذا الانسان الذى هو بمصر وقلت إنه لا ينفعنى ولا يضرنى كاعتقادك فى مرسلك» [5]، وأن الأئمة هم الذابون عن الدين ، المدافعون عن المسلمين .

٣ — عقيدة أخرى من عقائد الفاطمية تحدث عنها المؤيد فى هذا الكتاب، وهى عقيدة وجوب تأويل القرآن الكريم تأويلا باطنياً [6] ،وكانت هذه العقيدة من موضوعات المناظرات التى جرت بين المؤيد وبعض العلماء فى حضرة الملك أبى كاليجار البويهى .

---

(١) من المجلس الثانى والأربعين من المائة الأولى من المجالس المؤيدية (نسخة خطية بمكتبتى) .
(٢) مجموعة رسائل الكرمانى . نسخة خطية بمكتبتى .
(٣) راجع أيضاً كتاب المجالس المستنصرية ص ١٢٧ وما بعدها .
(٤) ص ٢٦ . — (٥) ص ٦٦ . — (٦) راجع ص ١٦ وما بعدها .

٤ – وكذلك تحدث عن وجوب أخذ العلم عن الأئمة المنصوص عليهم من أهل البيت دون العمل بالرأى أو بالقياس[١] .

٥ – أخذ العهد والميثاق على كل من دخل فى الدعوة[٢].

٦ – أشار المؤيد إلى مكانة الداعى فى نفوس المستجيبين ، فالداعى هو أحد الحدود الجسمانية ومعرفته وطاعته من معرفة إمام الزمان وطاعته ، ولذلك قال المؤيد عن أتباعه : معلوم ما بينى وبين الديلم من الأحوال الممهدة والأسباب المؤكدة وأن أحدهم إذا اختصم مع أهله ليلا فانه يباكرنى شاكياً إلىّ وموردا جملة أهله وتفصيله علىّ[٣] ، ويقول أتباعه عنه «أنهم قوم يعتقدون اعتقاداً تقرر فى نفوسهم حقه ، وتأكد عليهم بعهود ومواثيق أخذوها فرضه ، وأنهم يتخذون هذا الرجل القيم به أباً لهم وأخاً وصاحباً ومحلا لكل سر ومفزعاً فى كل خير وشر»[٤] .

وهكذا نستطيع أن نتخذ من كتاب السيرة المؤيدية مصدراً من المصادر التى منها نعرف شيئاً عن عقائد الفاطميين بعد أن ظلت موضع حدس الكتاب والمؤرخين عدة قرون .

أما من الناحية التاريخية ، فالكتاب كله فى التاريخ ذلك أن المؤيد كما قلنا من قبل كان يسهم فى الأحداث الهامة التى كانت فى الربع الثانى من القرن الخامس للهجرة ، ونستطيع أن نقسم حياة المؤيد فى هذه السنوات إلى ثلاثة أدوار :

الدور الأول : إبان إقامته فى فارس قبل اتصاله بالملك أبى كاليجار وبعد هذا الاتصال ، فى هذا الدور يحدثنا المؤيد عن بعض نواحى الحياة فى فارس ، وعن لون من ألوان الحياة التى كان يحياها الملك ورجال حاشيته ، وعن انقسام أهل فارس إلى طائفتين متعاديتين متشاحنتين : طائفة أهل السنة وطائفة الشيعة ، وكيف كانت تكيد إحداهما للأخرى ، وكيف اعتنق الملك أبو كاليجار عقيدة الفاطميين على يد المؤيد ، ثم عاد إلى مصانعة العباسيين عند ما رأى الشعب دبت فيه روح الثورة ، ثم نقرأ رأى أبى كاليجار بعد ذلك فى خطابه إلى المؤيد ، فهذه كلها معلومات لم يتحدث عنها أحد من المؤرخين ، فكتاب السيرة له قيمة كبرى فى دراسة فترة من تاريخ فارس فى القرن الخامس للهجرة .

ناحية أخرى يظهرها لنا هذا الكتاب : تلك هى أن أهل السنة كانوا السواد الأعظم فى فارس فى هذا القرن ، وأن الشيعة كانوا مستضعفين ، فهل نستطيع إذن أن نجارى بعض المؤرخين والكتاب الذين ذهبوا إلى أن التشيع كان فارسى الأصل ، أو أن الفرس هم الذين احتضنوا هذه العقيدة منذ وجدت ؟ فاذا صح هذا القول منهم فكيف نوفق بين قولهم

(١) ص ٢٤ . – (٢) ص ١٢٢ . – (٣) ص ٩ . – (٤) ص ١٠ .

وبين حديث المؤيد أن مذهب السنة كان الغالب على سكان البلاد ؟ هذا موضوع سنتحدث عنه فى بحث خاص فى غير هذا الكتاب .

ومما نلاحظه على هذا القسم أن المؤيد كان إذا أراد أن يتحدث عن الشيعة فى فارس فكان يذكرهم بالديلم ، فالديلم فى هذا الكتاب ترادف الشيعة دائماً بصرف النظر إذا كان الشيعة من بلاد الديلم أم كانوا من غيرها ، أما فى الكتب التاريخية التى بين يدى فلا أكاد أجد الديلم ترادف الشيعة ، حقيقة أجد أن الديلم كانوا يدينون بالتشيع وأن أكثرهم كانوا على مذهب الزيدية وأقلهم على مذهب الاسماعيلية أو مذهب الاثنى عشرية أما إطلاق الديلم على الشيعة عامة فى فارس ، فهذا فى أغلب الظن جديد على المؤرخين الذين كتبوا بالعربية ، وإنى أترك تحقيق هذا الموضوع إلى زملائى المختصين بالدراسات الايرانية لمعرفة إلى أى حد كان مؤرخو الفرس يطلقون الديلم على الشيعة .

الدور الثانى : وهو حياة المؤيد فى مصر قبل ثورة البساسيرى وقد تحدثنا عن قيمة هذا الجزء من السيرة .

الدور الثالث : وهو الذى وصف فيه المؤيد دوره فى مؤامرة البساسيرى ، ولعل هذا الجز من الكتاب هو أقوم أجزائه ، فقد ذهب المؤرخون فى هذه الثورة مذاهب شتى ، وإذا تصفحنا كتب التاريخ فاننا لا نجد فيها ذكراً لجهود المؤيد فى الدين داعى الدعاة فى هذه الثورة اللهم إلا ما ذكره ابن ميسر فى قوله «وفى صفر سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ه جهز الوزير اليازورى خزائن الأموال على يد المؤيد فى الدين لأبى الحارث البساسيرى»(١) وقال ابن منجب الصيرفى «وكان طغرلبك قد وصل من خراسان إلى بغداد واتفق بعد وصوله إليها أن عاد معظم رجاله إلى خراسان وخفت عساكره فأقام اليازورى أبا الحارث البساسيرى مناصباً له ، وأمده بالمؤيد فى الدين أبى نصر هبة الله بن موسى وأصحبه الأموال»(٢) وفى كتاب مرآة الزمان «وكثرت الأراجيف بانضمام جماعة البساسيرى ووصول أبى نصر بن أبى عمران الداعية رسولا من مصر بمال كثير وخلع وألقاب وأنه أخذ البيعة عليه (أى على البساسيرى) وعلى من معه من الأتراك والأكراد والعرب وأنهم على عزم قصد بغداد»(٣) .

هؤلاء هم المؤرخون الذين ذكروا المؤيد فى الدين فى هذه الثورة الخطيرة التى كادت تودى بالخلافة العباسية وتغير وجه التاريخ الاسلامى ، ومع ذلك فان هؤلاء المؤرخين لم يتحدثوا إلينا عن الدور الذى قام به المؤيد فى هذه الحركة ، إذ يحدثنا المؤيد فى سيرته أنه كان

---

(١) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٨ . — (٢) الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٦٩ .

(٣) ج ١٢ حوادث سنة ٤١٨ نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٥٠٦ .

العقل المدبر واليد المحركة لهذه الثورة ، ويسرد تفاصيلها منذ بدأ يفكر فيها ، وهى تفصيلات أهمل المؤرخون ذكرها ولا نجدها فى غير «السيرة المؤيدية» من الكتب .

ومما زاد فى قيمة هذا القسم أن المؤيد أودع سيرته نصوص رسائله إلى أمراء العراق وأمراء الشام ووزراء مصر ، وبعض إجاباتهم على رسائله ، فكانت هذه الرسائل وثائق تاريخية لهذه الثورة وفيها نجد جهود المؤيد وما بذله من نشاط فى سبيل القضاء على العباسيين والسلجوقيين معاً .

وإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية ، وقارنا بين ما جاء بها عن السلجوقيين وثورة البساسيرى وما أثبته المؤيد فى سيرته نرى بعض اختلافات ، من ذلك أن ما ذكره أبو كاليجار فى خطابه إلى المؤيد أن السلجوقيين — وكانوا لا يزالون فى خراسان — يريدون قصد أملاك الفاطميين لولا وقوف الملك أبى كاليجار بجنوده حائلا بينهم وبين مقصدهم [1] فان مثل هذه الاشارة إلى عزم السلاجقة غزو بلاد الفاطميين لم يرد لها ذكر فى كتب التاريخ العامة أو كتب تاريخ السلاجقة ، ومن يدرى لعل خطاب الملك أبى كاليجار كان من أهم العوامل التى دفعت المؤيد إلى أن يسئ الظن بالسلاجقة ويتهم حركتهم إلى الرى سنة ٤٤٦ ﻫ بأنها بدء حركة المقصود بها غزو أملاك الفاطميين ، فبدأ من ناحيته يعمل لدفع هذا الضرر عن دولة أئمته .

كذلك حدثنا المؤيد أن طغرلبك حالف البيزنطيين لاقتسام أملاك الفاطميين [2] ولكن كتب التواريخ لم تذكر شيئا عن هذه المحالفة . وتذكر كتب التاريخ أن البساسيرى هو الذى بدأ بمكاتبة الفاطميين بطلب معونتهم ، وأن ابن المسلمة رئيس الرؤساء كان يطلق لسانه فى البساسيرى ونسبه إلى مكاتبة المستنصر بالله صاحب مصر ، وذلك قبل أن يطلب الخليفة العباسى من الملك الرحيم أن يبعد البساسيرى من واسط فى رمضان سنة سبع وأربعين وأربعمائة ﻫ [3] ولكن الذى فى السيرة المؤيدية أن المؤيد فى الدين هو الذى بدأ بمكاتبة البساسيرى عن صاحب مصر ، وأن كتب المؤيد لم تصل إلى البساسيرى إلا بعد أن دخل طغرلبك بغداد [4] .

وكذلك نقول عن عصيان ابراهيم ابن ينال ومفارقته الموصل نحو الجبل مفارقا طغرلبك ، فقد ذهب المؤرخون إلى أن المصريين هم الذين استمالوه وحببوا إليه عصيان طغرلبك بينما ذكر المؤيد أن ابراهيم هو الذى بدأ هذه الصلة ، بأن أرسل إليه رجلا صوفيا يطلب منه

---

(١) راجع ص ٧٧ . — (٢) ص ٩٥ . — (٣) ابن الأثير ص ٩ وص ٤١٧ .
(٤) راجع ص ٩٦ .

ألقاب الفاطميين وخلعهم وأن المؤيد أجابه إلى ما طلب . ولعل المؤيد فى هذا كله كان أصدق من المؤرخين لأنه كان يتحدث عن نفسه بينما روى المؤرخون عن غيرهم هذه الحوادث .

على أننا نأخذ على المؤيد فى الدين أنه أغفل الحديث عن أسباب غضب القائم بأمر الله العباسى على البساسيرى واستعانته بالسلجوقيين ، فربما كان أمر هذا الخلاف أخطر مما حدثنا به المؤرخون ، وإن كان المؤيد يرجع هذا الخلاف إلى عدوه ابن المسلمة رئيس الرؤساء . وناحية أخرى أهملها المؤيد إهمالا شديداً فهو لم يذكر تاريخ الحوادث بالسنين والشهور فقارئ السيرة المؤيدية إن لم يكن ملما بتاريخ القرن الخامس للهجرة فهو مضطر إلى الاستعانة بكتب التاريخ الأخرى حتى يستطيع أن يحدد زمن هذه الأحداث ، ولذلك اضطررنا إلى استدراك هذا النقص عند ذكر هذه الحوادث بتعليقات فى الهامش .

وهكذا نرى قيمة هذا الكتاب من الناحية التاريخية .

أما من الناحية الأدبية ، فكما أن كتاب السيرة المؤيدية قيم من ناحية دراسة عقائد الفاطميين ، وقيم من ناحية تاريخ القرن الخامس للهجرة ، فان قيمته الأدبية لاتقل خطراً عن قيمه الأخرى ذلك أن المؤيد فى الدين كان كاتباً قديراً يجيد صناعة الكتابة إجادة جعلته يقول للوزير اليازورى وقد جرى ذكر كتاب الانشاء بمصر : معلوم ما كان لمتولى هذا الديوان من الجاه الوسيع والرزق السنى الكثير ، ولئن كانت أشخاصهم مفقودة فان آثارهم فى صناعتهم حاضرة موجودة ، وأنت كاتب تفرق بين الجيد والردئ والضعيف فى الصناعة والقوى ، وأريد أن تعتبر من انتصب هذا المنصب من خمسين سنة إلى اليوم مقايسة إلىّ ، فان كنت ممن يجرى فى حلبتهم فرسه ، ويطول نحو أمرهم باعه فأنزلنى منزلتهم من الجاه والمال وإلا فقل لى ما أنت مثلهم ولا فى آفاقهم (1) . والمؤيد فى الدين هو الذى وصفه أبو العلاء المعرى بقوله : « ولو ناظر أرسطاليس لجاز أن يفحمه أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه » (2) ذلك أن المؤيد كان مثقفاً ثقافة واسعة فاستطاع أن يستغل هذه الثقافة فى مناظراته ومجالسه ورسائله ، كما استغلها فى هذا الكتاب التاريخى ، ولعل أظهر ما نراه من ثقافته فى هذا الكتاب هى ثقافته الأدبية واللغوية ، فقد أخذ صناعة الكتابة المسجوعة عن الذين سبقوه فأسرف فى استخدام السجع فى كتابته ، ولم يكن المؤيد بدعاً فى ذلك إنما كان السجع أسلوب عصره ، وعليه جرى كل الكتاب والأدباء ، فكتاب الرسائل والدواوين وكتاب المقامات والقصص كانوا يسرفون فى السجع ويتعمدونه ويتخذون كتاباتهم المسجوعة صناعة يتصنعونها وينفقون جهداً كبيراً فى الحرص عليها

(1) ص ٩٤ . — (2) معجم الأدباء ج ٣ ص ٢٠٢ (طبعة فريد رفاعى) .

والتزامها ، حتى أن أبا العلاء كان يلزم نفسه فى بعض نثره بما ألزم نفسه به فى لزومياته من اتخاذ السجع فى حرف وفى حرفين ، ولكن المؤرخين وأصحاب السير لم يلتزموا السجع فى كل كتاباتهم ، والمؤيد فى سيرته كان يسرف فى السجع أحياناً ، ويترك كتابته على سجيتها أحياناً أخرى ، ففى رسائله التى أودعها هذا الكتاب ، يكثر فى استخدام السجع والبديع ، أما إذا سرد الحوادث أو تحدث عن نفسه فقد تمر بفقرات لاتجد فيها جملة مسجوعة ، وهو عند ما كان يتعمد السجع والزينة البديعية ولا سيما الجناس ، نرى أسلوبه يلتوى ويتعقد بعض الشئ ، فهو يضطر أحياناً إلى أن يباعد بين أجزاء الجملة فيضطر القارئ إلى تأملها ليربط بين أجزائها . أما تضميناته لآى الذكر الحكيم وبعض أبيات الشعر ، فهذه أيضاً ليست جديدة فى الكتابة منذ القرن الثالث الهجرى ، ولكن المؤيد لمكانته فى الدعوة وتأثره الشديد بالقرآن الكريم كان يكثر من تضمين ألفاظ القرآن الكريم وآياته ، ومن الاقتباس منها ليحلى بها كتابته ، فاذا بأسلوب المؤيد فى هذا الكتاب أسلوب أدبى لم نكد نعرفه عند الكتاب المؤرخين .

وإذا تركنا أسلوب المؤيد نرى قيمة أخرى للكتاب . تلك أن المؤيد لم يكتب هذه السيرة إلا بعد أن وفد على مصر واستقر بها عدة سنوات ، فتأثر بفن السير الذى برع فيه المصريون وأكثروا من الكتابة فيه ، بل لا أغالى إذا قلت إن فن السير فى تاريخ أدبنا العربى هو فن متأثر بشغف المصريين بالسير منذ أقدم عصورها التاريخية ، فقدماء المصريين سجلوا سير ملوكهم وأبطالهم على جدران المعابد والمقابر وعلى أوراق البردى ، وفى مصر المسيحية جرى الآباء البطارقة على كتابة سير من سبقوهم من الآباء والقديسين ، وفى مصر الاسلامية أكثر الكتاب المصريون من الكتابة فى فن السير ، بل أرجح أن ابن اسحق صاحب السيرة النبوية وضعها فى مصر متأثراً بفن السير عند المصريين ، وجاء ابن هشام فروى أكثر السيرة عن علماء مصر ، وكتب عبد الله بن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز ، وصنف ابن الداية سيرة أحمد بن طولون ، وسيرة ابنه خمارويه ، وسيرة الأخشيد وابنه ، وجاء ابن زولاق المؤرخ المصرى فأكمل سيرة الأخشيد ، وسيرة ابنه ، وسيرة كافور ، وسيرة المعز لدين الله ، وسيرة العزيز ، وسيرة سيبويه المصرى ، وسيرة جوهر القائد ، وسيرة المدرائيين ، وكتب محمد بن محمد اليمانى سيرة جعفر الحاجب ، وكتب أبو على منصور الجوذرى العزيزى سيرة الأستاذ جوذر ، وهاهو المؤيد فى الدين يكتب السيرة المؤيدية متأثراً بمن سبقه من الكتاب المصريين . على أن أصحاب السير من المصريين الذين سبقوا المؤيد لم يترجموا لأنفسهم ، أما غير المصريين من الكتاب والعلماء فلم أجد

من كتب منهم ترجمة ذاتية لنفسه . حقيقة نجد بعض الكتاب يذكرون شيوخهم وأساتذتهم فى كتبهم ، ولكنى لا أكاد أجد من سبق المؤيد فى تخصيص كتاب بأكمله يترجم فيه المؤلف لنفسه ترجمة ذاتية ، فالمؤيد من أوائل رواد هذا الفن إن لم يكن هو أولهم وتبعه الكتاب بعد ذلك حتى بلغ هذا الفن ذروته فى كتب الرحالة المسلمين ثم فى كتاب التعريف لابن خلدون .

وهكذا تظهر قيم هذا الكتاب فى نواحيه المختلفة .

تاريخ تأليف الكتاب

قال الأستاذ ايفانوف فى حديثه عن سيرة المؤيد ما ترجمته «سيرة سيدنا المؤيد فى الدين — ترجمة حياته — كتبها لملك فارس عماد الدولة أبى كاليجار البويهى . (٤١٥ — ٤٤٠ ﻫ — ١٠٢٤—١٠٤٨م) يصف حياته واضطهاد الشيعة فى جنوب إيران» [1] أى أن ايفانوف ذهب إلى أن المؤيد كتب هذه السيرة قبل سنة ٤٤٠ﻫ ، وهى السنة التى توفى فيها أبو كاليجار ، وهذا رأى عجيب ، فان من يقرأ السيرة المؤيدية يرى لأول وهلة أن قول ايفانوف فى حاجة إلى تغيير كبير ، فان الكتاب ألف بعد هذه السنة التى توفى فيها أبو كاليجار ، ويكفى أن نقول لنؤيد ذلك أن المؤيد تحدث عن وفاة أبى كاليجار [2] ، فكيف يكتب السيرة إلى من توفى ؟

نستطيع أن نتبين بسهولة ويسر أن كتاب السيرة المؤيدية لم يكتب دفعة واحدة أو فى عام واحد ، بل كتب على فترات . ففى القسم الأول من الكتاب — وهو القسم الذى تحدث فيه عن حياته فى فارس حتى وفد على مصر — كتب بعد سنة ٤٤٣ وقبل سنة ٤٥٠ ﻫ . إذ يقول المؤيد عن وفود ابن المسلمة رسولا إلى أبى كاليجار « فما كان إلا قليل حتى سمعت بحصول ابن المسلمة بالبصرة رسولا للخليفة كان فى ذلك الوقت وهو وزيره فى هذا الوقت لما نجح سعيه باقتلاعى من تلك الديار وقصدى بالتشرد منها والانتشار والذى تصدى لمكاتبة الصنهاجى ومهاداته والتحريك من ساكنه والذى شرع شروعه فى نبش قبر موسى بن جعفر ومكابر قريش» [3] فمن هذا النص ندرك أن المؤيد كتبه فى وقت كان ابن المسلمة فيه وزيرا للعباسيين ، ونحن نعرف أن ابن المسلمة ظل فى الوزارة حتى قتل سنة ٤٥٠ ﻫ عقب دخول البساسيرى بغداد أى أن هذا النص كتب قبل مقتل ابن المسلمة

(١) *A Guide to Ismaili Literature*, p. 48 . — (٢) ص ٧٨ . — (٣) ص ٥٦ .

سنة ٤٥٠ ﻫ ثم حديث المؤيد عن مكاتبة ابن المسلمة المعز بن باديس الصنهاجي لخلع طاعة الفاطميين سنة ٤٤٠ ﻫ ، وعن نبش مقابر قريش وقبر موسى بن جعفر سنة ٤٤٣ ﻫ يدلنا على أن النص كتب بعد سنة ٤٤٣ ﻫ ، وإذن فهذا القسم الذى ورد فيه هذا النص كتب بين سنة ٤٤٣ ﻫ وسنة ٤٥٠ ﻫ .

أما القسم الثانى من هذه السيرة فهو هذا القسم الذى بدأه بوصف دخوله مصر والذى جعلنا له عنوان المؤيد فى مصر . فنرى المؤيد قد استهله بمخاطبة شخص لا نعرفه ، يخيل إلينا أنه أحد أصدقائه الأوفياء وأن هذا الشخص سأل المؤيد أن يصف له حوادثه مع أبى كاليجار ، فلما كتب المؤيد القسم الأول من السيرة وأرسله إليه ، كتب له هذا الشخص يظهر تألمه لما حل بالمؤيد ويرثى لحاله ويطلب إليه أن يصف له أموره فى مصر ، فكتب المؤيد هذا القسم الثانى الذى ينتهى بعودة المؤيد إلى مصر سنة ٤٥٠ ﻫ بعد مساهمته فى ثورة البساسيرى ، وإذن فقد كتب هذا القسم من الكتاب بعد سنة ٤٥٠ ﻫ وليس فى الكتاب نص يقرب إلينا معرفة السنة التى ألف فيها هذا القسم .

وينتهى الكتاب بالقسم الثالث الذى تحدث فيه عن دخول البساسيرى بغداد ثم قتل البساسيرى سنة ٤٥١ ، وهذا القسم كتب بعد سنة ٤٥٤ ﻫ ، ذلك أن المؤيد ذكر ثمال بن صالح وقريش بن بدران وأردف كل اسم بقوله «رحمه الله» ونحن نعلم أن ثمال بن صالح توفى سنة ٤٥٤ ﻫ وأن قريش بن بدران توفى سنة ٤٥٣ ﻫ ، ومعنى هذا أن هذا القسم كتب بعد وفاتهما أى أنه كتب بعد سنة ٤٥٤ ﻫ .

هذا ما نستطيع أن نستخلصه من كتاب «السيرة المؤيدية» عن تاريخ تأليفه وليس بين أيدينا من المصادر ما يفيدنا فى تحديد سنوات تأليفه تحديدا قاطعا .

نشر الكتاب

ذكرنا أننا استطعنا الحصول على نسختين خطيتين لهذا الكتاب ، وقد اعتمدنا عليهما فى نشره :

النسخة الأولى : وهى التى أشرت إليها بحرف د (أى الدكن) وهى نسخة كتبت بخط ردىء جداً يصعب قراءته وتقع فى نحو ١٢٩ صفحة من القطع الصغير وقد جاء فى آخر هذه النسخة :

«تم بعون الله وتوفيقه يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الثانى سنة ١٣٥٧ كتبت

فى بلد حيدر أباد دكن الهند ، وانتسخ من الكتاب المكتوب بيد غلام حسين بن الشيخ شاه ملك فى عصر سيدنا عبد على سيف الدين صاحب يوم الحادى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٢ هـ» .

النسخة الثانية : وهى التى أشرت إليها بحرف ك (أى كجرات) وهى مكتوبة بخط بين الفارسى والرقعة وأخطاؤها أقل من النسخة السابقة وتقع فى نحو ١١٩ صفحة من القطع المتوسط وجاء فى آخرها :

«تمت السيرة الميمونة المؤيدية على صاحبها أفضل السلام والتحية فى التاسع من شهر شوال من ١٣١٣ من هجرة النبى المكرم صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين بخط أحقر الحقير من عباد الله خان بهائى بن موسى جى فى مدرسة الرئيس المكرم آدم جى فير بهائى غفر الله له ولوالديه» .

ولم يذكر شئ فى أول النسختين سوى العنوان «سيرة سيدنا المؤيد فى الدين شيرازى صاحب (قس) » وقد اتفقت النسختان على عدم وجود عناوين لأجزاء الكتاب أو لموضوعاته ويخيل إلى أن المؤيد نفسه لم يضع عناوين تدل على فصول كتابه شأنه فى ذلك شأن غيره من كتاب السير من المصريين ، فقد صنفوا هذه السير دون مراعاة تقسيمها إلى أجزاء أو فصول ، وتعريف كل جزء أو فصل بعنوان يدل عليه ، فاضطررنا إلى أن نكمل هذا النقص ، وأن نضع عناوين من عندنا حتى تسهل قراءة الكتاب والبحث فيه ، فكل العناوين التى فى الكتاب ليست أصلية فيه بل هى من عملنا .

وقد ذكرنا من قبل أن المؤيد لم يذكر لنا السنوات التى جرت فيها حوادث السيرة فاضطررنا إلى أن نحقق ذلك بالرجوع إلى كتب التاريخ الأخرى ، وأن نجعل فى الهوامش نتائج تحقيقنا .

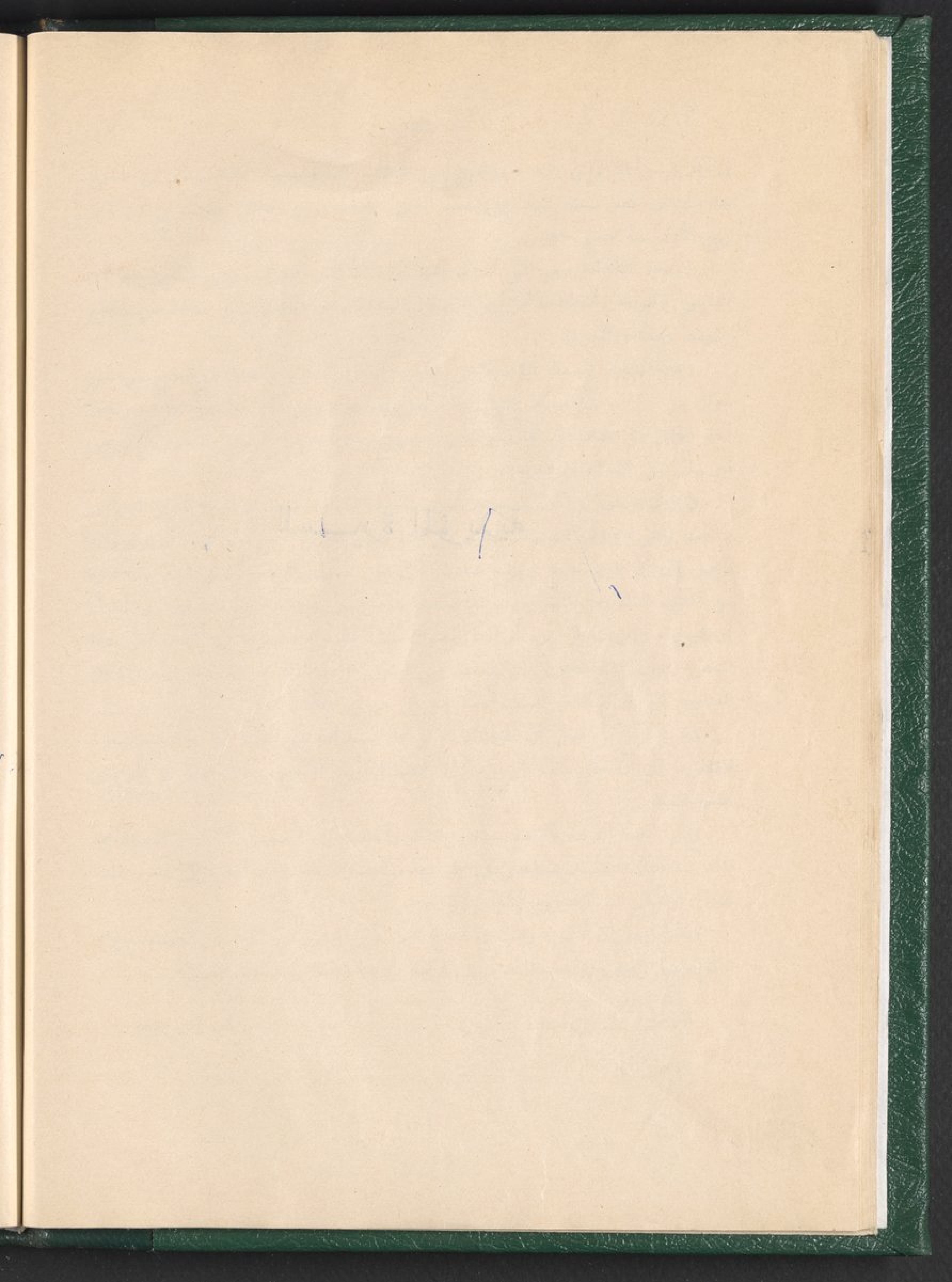
وانتهز هذه الفرصة وأتقدم بجزيل الشكر وأخلصه إلى الصديق الكريم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى لتفضله بمساعدتى فى عمل فهارس هذا الكتاب مما أضاف إلى نشره فائدة محققة ، ونسأل الله أن يجزيه عنا أحسن الجزاء .

وبعد فأرجو أن أكون وفقت فى إحياء هذا الأثر الجليل من آثار مصر الفاطمية ، وأن نكون بهذا العمل قد سددنا ثغرة من ثغرات تاريخنا الاسلامى وأدبنا العربى .

الروضة ، ١٠ مايو ١٩٤٩

محمد كامل حسين

السيرة المؤيدية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل موضوع المقدار على الجمع بين الصفو والاكدار ، واختلاف الليل والنهار ضمين الايسار والاعسار ، أحمده حمد الشاكرين لآلائه الذين (ا) هو لهم كفيل الجزاء بقوله تعالى «وسنجزى الشاكرين[1]» والصابرين على بلائه الأولى حباهم من حبه بأفضل الحباء فقال تعالى « والله يحب الصابرين[2]» وصلى الله على رسوله المصطفى المبعوث بأهدى السبل «محمد» المخصوص بأرضى الملل ، المأمور بقوله «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل[3]» ؛ وعلى وصيه على بن أبى طالب صفوة الماشين بعده على الغبراء ، وقدوة من عناهم قوله(ب) تعالى « والصابرين فى البأساء والضراء[4]» ، وعلى الأئمة من ذريتهما (ج) سادة الساجدين فى زمانهم والراكعين ، وقادة المخاطبين من ربهم بقوله (د) سبحانه «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين[5]».

(أما بعد) فان بعض الناس خاضوا فى حديث الفورة التى جرت بشيراز مما ألف بين عزيمة السلطان الذى كان بها المكنى «أبا كاليجار (هـ)»[6] وقصد العوام لدفع لدعوة العلوية وإذلال قدم متوليها ، وإثارة الفتن والاجتماع (و) على مد غواشيها ، مستعظمين لما جرى منها ، ومستهولين لخطبها ، ومتعجبين من ألطاف الله الخفية فى فتح أغلاقها ، وكشف أغساقها ، وإظهار العلم المعجز فيها قلباً للأعيان ، وكسراً لنواجز الشيطان ، قائلين

(ا) فى د : الذى — (ب) فى ك : «بقوله» . — (ج) فى ك : ذريته .
(د) سقطت فى د . — (هـ) فى د : أبا كالنجار . — (و) ك : الاجماع .

---

(١) سورة آل عمران ١٤٥/٣ . — (٢) سورة آل عمران ١٤٦/٣ .
(٣) سورة الأحقاف ٣٥/٤٦ . — (٤) سورة البقرة ١٧٧/٢ . — (٥) سورة البقرة ٤٥/٢ .
(٦) هو المرزبان ابن سلطان الدولة ابن بهاء الدولة أبو كاليجار ولد بالبصرة سنة ٣٩٩ فى شوال ولى إمارة فارس والأهواز مدة خمس وعشرين سنة وولى العراق أربع سنين وتوفى سنة ٤٤٠ هـ .
«أنظر مرآة الزمان ج ١٢ ص ٢ نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٥٠٦ ، والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٦ (طبعة دار الكتب المصرية) » .

إن دون ذلك — مما لم يهل وقوعه كهوله ، ولم يرع مسموعه كروعه — دوّن فى الكتب، وأودع بطون الصحف ، ليكون للمستبصر تبصرة ، وللمستذكر تذكرة ، فما يمنع أن يكون هذا الأمر الهائل مثبتاً كثبوت الغير ، ليكون فى الغابرين باقى الذكر ؛ فاستخرت الله تعالى فى اقتصاص ذلك وشرح ما تبعه مما غبر فى وجهه ، وأدى إلى أهوال فاقت ما تقدم ، وأدت إلى الجلاء عن الأهل والوطن ، على كون عبارة مثلى ممن طحنته أضراس المحنة، ورست به فى بحار الحيرة ضعيفة(ا) ، وأنوار فكره خامدة ، والله تعالى ولى إحسان المعونة والتوفيق لجميل العاقبة برحمته .

المؤيد وأبو كاليجار

[فأقول (ب)] كان هذا السلطان حدثا فى سنه و إن كان متيناً فى عقله ، وكان الأستاذ الذى أنشأه مغرقاً فى بغض أهل البيت صلوات الله عليهم ، متناهياً فى القصد لشيعتهم والمنتمين إلى جملتهم ، وكانت (ج) لى معه قصة مفردة ، لم أخل فيها من خشية القتل صباحاً ومساء ، وكنت ألقاه معها بصبر الرجال ، وثبات الجبال ، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر من مأمنه ، وأتاه سوء العذاب من (د) حيث لم يشعر به ، إلا أنه أورث السلطان بغض الشيعة وكرّجه فيه ، ورباه عليه ، وكان بحاشيته من الأستاذين والأتراك من لم يزل لذكرهم مقبحا ، وعليهم فى كل وقت محطباً (ه) ، زاعمين أنهم يشتمون الأصحاب ، ويلعنون الصلحاء ، ثم لا يصلون ولايصومون ، ويقولون بالتعطيل والكفر والزندقة ،[١] وأن لهم فوق هذا كله عيباً شاخصاً لكل ذى عين (و) لكونهم فى (ز) المملكة مفسدين ، و إلى صاحب مصر [٢] داعين ، وللناس عنه وباسمه مبايعين ، وأن التجافى عما هذه سبيله مما هو ثلم فى المملكة لايصلح للسلاطين . فلم تزل هذه الضربات تعمل

(ا) فى د : ضغينة . — (ب) فى ك : وقد . — (ج) فى ك : وكان . — (د) فى ك : بحيث .
(ه) فى ك : محتطبا . — (و) فى د : بكونهم . — (ز) فى د : على .

(١) أنظر القصيدة الأولى من ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة ١٢٣ إلى ١٢٥ ففى هذه الأبيات إشارة إلى خصوم الفاطميين ، وكيف رمى الفاطميون بالكفر والالحاد وتعطيل الأديان .

(٢) صاحب مصر فى ذلك الوقت هو الخليفة الفاطمى المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر وهو الخليفة الثامن من المهدى . ولد عام ٤٢٠ ﻫ وولى الخلافة يوم الأحد ١٥ من شعبان سنة٤٢٧ وتوفى عام ٤٨٧ ﻫ .

والكلمات تؤثر حتى أحمت الوطيس ، وهيجت ساكن الحمية وأثارت كامن العصبية ؛ فلما (ا) كان يوم عيد الفطر من سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، كنت بيوم قبله مستعداً له فى تحصيل فرش وآلة وسجادات يصلى عليها المصلون ، ولا يستغنى(ب) عنها المتعبدون(ج) فرفع الخبر بأننى أستجمع الجموع للصلاة والخطبة فى غد ، وأضرب فى ساحة دارى المضارب والفازات (١) ، وأن ذلك مراغمة ظاهرة ومغايظة حاضرة ، فنشأ من هذه الجهة سوء رأى عظيم ، وقع به على القصد والنفى عزم (د) وتصميم ، واستفاض القول فى البلد بذلك من وقته ، وجعل الناس به فى الأسواق يتناجون ، وفى المجالس والمنازل يتحدثون ، وكان يقرع أسماع الشيعة فى أقصى المدينة ، فكان كل ساعة (ه) يتبادر إلىّ أحدهم متعرفاً لخبرى ، مستكشفاً (و) عما حل بى ، فيجدنى صحيحاً سليما ، وفى موضعى على جملتى مقيما . ولما كان فى غد وهو العيد اجتمع الخلق الكثير من الديلم للصلاة فصليت بهم ، فلما أتممت عكفت عليهم بالوعظ والانذار ، وقلت : «لا تخفى عليكم صورة الوقت فى الشدة والأعداء فى التظاهر والكثرة ، وأنهم عاكفون على تقبيح الجميل من آثارنا ، ونسب العظائم إلينا من حيث أننا المبرزون فى تحمل أثقال العبادات والقيام بالمفروضات(ز) والمسنونات (٢) ، فينبغى أن تزسوا أنفسكم وتحسنوا أعمالكم وتتقوا(ح) الله حق تقاته ، وتتحفظوا من أن يتعلق أحد عليكم بعيب ، أو يجد لسانٌ مساغٌ انطلاقا(ط) فيكم بثلب ، وعليكم بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين » . ولما كان عشية ذلك اليوم كان الناس يطلبون الهلال على جارى عاداتهم فى مثله ، فغم عليهم ساعة ، وتباشروا لهذه الجهة ، إذ كانوا صاموا تسعة وعشرين يوما ، فظنوا أنهم يكملون فى غد العدة ثلاثين ، ويبسطون أيديهم وألسنتهم فينا لافطارنا(ى)

(ا) فى ك : ولما . — (ب) فى ك : ولا يغنى . — (ج) فى ك : المستعبدون .
(د) ك : عزم صميم . — (ه) فى ك : وكان يتبادر كل ساعة إلىّ . — (و) فى ك : ومستكشفا .
(ز) فى ك : المفترضات . — (ح) فى د : واتقوا . (ط) فى د : أو يجده لسان مساغ انطلاق .
(ى) فى ك : بافطارنا .

---

(١) جمع فازه وهى مظلة بعمودين .
(٢) قال المؤيد فى ديوانه (القصيدة الأولى البيت ٣١ وما بعده) :

وأينا فى الشرع إذ نثبت كل جهول جاحد يبكت
نستنطق الأنفس والآفاقا أرضاً وسبعاً فوقها طباقا
بحجج مثل السراج تلمع تقصم كل ملحد وتقمع ... إلخ

قبلهم بيومين [١] ليكون ذلك أبلغ فى التشنيع ، وأعون على مايؤثرونه من التشفى ، فما كان إلا هنيهة إذ ظهر الهلال ، فجفت ألسنتهم فى أفواههم ، وماتت قلوبهم فى أجسادهم من فرط الغيظ والحنق . ولما كان فى غد سعوا إلى مصلاهم فصلوا ورجعوا ، وباعاتهم موفورة على ذكرنا ونصب الاشراك علينا ، إلا أنه لم يكن فى ذلك اليوم شئ . فلما كان فى غد استدعانى وزير المملكة بهرام بن مافنة (ا) ابن شهل الملقب كان بالعادل [٢] رحمه الله إلى مجلسه ، وهو كامل فى عقله ، مبرز فى فضله ، مصلح فى جميع أحواله ، مهذب بمتصرفاته وأعماله ، فقربنى وأدنانى ورحب بى ، وهو كاره لما يريد مواجهتى به من القبيح ، عارف أن ذلك فى غير وجهه ولا مكان وجوبه ، إلا أنه كان مأموراً من جهة آمر ، لايمكنه مخالفة أمره ومنافاة رسمه ، فقال : تعرف عنايتى بك وإيثارى الجميل لك ، وأننى لا أشير عليك إلا بما فيه مصلحتك ، وأرى أمرك قد تجاوز فى الفساد حده ، وبلغ أمده ، ولقد كان السلطان أمس فى عامة الطريق من داره حين ركب إلى المصلى وإلى أن عاد (ب) ، فى حديثك وممتلئا من الحنق عليك ، وقال فى جملة كلام كثير «إنك (ج) إن لم تدع هذا البلد ولم تمض لوجهك ، أنفذ من يفعل بك كذا وكذا» مشيراً إلى القتل ، سوى أنه يتحاشى عن تصريح القول فيه ، فانظر هل بقى بعد ذلك غاية ، أم هل وراءه نهاية . ثم إنه كان حضر هذه الغداة قاضى البلد وقال إنه اجتمع إليه القصاص وأهل المسجد وقالوا : عيل الصبر فيما يأتيه فلان — عنوك — من نشر البدعة ورفض السنة ، وأننا نجتمع ونقصد باب السلطان مستعدين من هذه الحالة ونستدعى شبه رخصة فنهجم (د) على داره بالقلع والحرق والقتل وجميع ما نستطيعه من الفساد . قال الوزير : فأجبته : أن ذلك ليس بالهين ، فان هذا الأمر يؤلف بين كلمة الديلم عامة ، ومهما حرك ساكنه انتبهت عين الفتنة باراقة الدماء واستباحة الحريم وتعدى إلى مفاعيل . قال : وكان جواب القاضى إنه (ه) إن استنجد بهؤلاء — يعنى بالديلم —

(ا) فى ك و د : ماقنة والتصحيح عن ابن الأثير ج ٩ ص ٣٤٤ طبعة بريل سنة ١٨٦٣ .
(ب) سقطت فى د . — (ج) فى ك : سقطت . — (د) فى د : فنتهجم . — (ه) فى د : سقطت .

(١) نلاحظ أن الفاطميين وأتباعهم إلى اليوم لا يصومون حسب رؤية الهلال كعامة المسلمين ، بل لهم تقويم خاص بحيث يجعلون شهر رمضان ثلاثين يوماً دائما . (راجع الرسالة اللازمة لشهر الصوم للكرمانى والمجالس المؤيدية ، وكتاب المجالس المستنصرية ، وكتاب عيون المعارف) .
(٢) هو الوزير أبو منصور بهرام بن مافنة الملقب بالعادل ولد سنة ٣٦٦ هـ وتوفى سنة ٤٣٣ هـ (ابن الأثير ج ٤ ص ٣٤٤) .

استنجد خصومهم بغيرهم — يعنى به الأتراك — : ثم قال لى : ولو لم يكن فى هذا الكلام مع مقت السلطان الذى لاقرار عليه ولا ثبات معه إلا حديث العامة وهيجانهم لكان التقدير فيك وفى عقلك أن لاتكون أصل الفتنة ، وأن لاتختار أن تصير سبب الفساد والنائرة ، فالأولى أن تستخير الله تعالى فى الخروج من البلد فى هذه الساعة لأضم إليك عدة من الفرسان من يتدرقون (ا) بك إلى حيث توخى قصده من البلدان .

فأجبت وقلت : (ب) إن الأمر أمركم والمملكة لكم ، ولكل كلام جواب ، غير من يقول لأحد فى داره اخرج من دارى فلا جواب له ، ولكنى أفكر فى قولكم «اخرج من ديارنا» فلا أدرى أهو مشبهى أو مشبهكم ، ومستحقى أو مستحقكم ، لأنى أنظر فى نفسى فلا أعرف لها عليكم ثقلا ولا كدا (ج) ، إذ لاحظ لى فى خيركم ، ولا ذكر لى فى ديوان عطاياكم ، ولا رفق فى حال من الأحوال من جهتكم ، وأرى كل من دب ودرج من قاض وفقيه وعالم وكاتب وجميع طوائف الناس ممن له مداخلة لداركم ولقاء لمجلسكم(د) محظوظين منكم ، بين ما يأخذونه أخذا ، أو ينالونه بتوقيعكم معيشة ورفقا ، وصحيفتى بيضاء من جميع هذه الوجوه ، وسوى هذا فأنتم أعرف الناس بقضاتكم وعدولكم وعلماء مساجدكم فيماهم مرتهنون به من المعايب ، وما يشوبهم من المناقص وذميم الشوايب ، ولا تعرفوننى ترسمت بسمة(ه) من سمات معايبهم ، أو أشبهتهم فى شىء من مناقصهم ومثالبهم ، فانى لم أزل بالسداد والرشاد علما [1] ، وباستشعار البر (و) والتقوى مقدما ، ولولا تبرجى بزينة التشيع لاتخذت العامة تراب نعلى كحلا لأعينها ، وماء طهورى شفاء لسقمها . وغير ذلك فان هم الجميع حيازة ملك وإقامة دخل وإضافة درهم إلى درهم ، ولم يلقنى إنسان شغلت بشىء منه فكرا ، أو قصرت عليه من عمرى يوما ، بل كانت الدنيا فى عينى — مذ كنت — مرفوضة ، وأعراضها لدى مهينة ، وأسباب مطامعى مقطوعة ، فاخراجكم من هذه سبيله من دون تعلق عليه بعيب يشينه ، أو تبرم بمؤونة له عليكم يثقلكم (ز) باستحقاق منى ،

(ا) فى د : يبدرقون والتدربق بمعنى التليين . — (ب) سقطت فى د . — (ج) فى ك : كلا .
(د) فى ك : لمجالسكم . — (ه) فى ك : بوسمة . — (و) فى ك : الستر . — (ز) فى د : تثقلكم .

---

(١) فى ديوان المؤيد (القصيدة السابعة البيت ٤٢) :

العلم سيفى والرشاد مطيتى ... والستر درعى والأمانة مغفرى
أنا آدمى فى الرواء حقيقتى ... ملك تعين ذاك للمستبصر

وردد هذا المعنى فى أكثر قصائده .

وأنا من الوجهين برئ ، أم استحقاقكم بأن لاتستوجبوا كونى لديكم ومقامى بين ظهرانيكم . ومعلوم أنه إذا كانت مؤونتى هذه المؤونة فكل مقصود يقبلنى وكل أرض تحملنى ، ولست أقيم عندكم ما أقيم إلا عصبية للدين الذى أدين الله به ، ومحافظة عليه من وهن يحل بساحته ، ولولاها لكان أكثر باعث على التخلى عنكم نفسى ، وأدعى داع إلى مفارقتكم قلبى ، لأستريح من مغاداة الذل ومراوحته ، لاسيما ومعلوم أن لى مولى يقصده القاصد متوسلا إليه بسطور من خطى ولفظى فيكرم مثواه ، ويكفيه ما أهمه من دنياه ، فلو قصدته بنفسى أكان يتقاصر حظى عنده دون حظ من يقصده بكتابى ، فليس الخروج يرهبنى ولا شئ دون ماقدمت ذكره يمنعنى ، وأنا أجتهد إن شاء الله تعالى وأصوب وأصعد فى كفايتكم أمرى ، وتولية هذه النعم التى لى (ا) فى دياركم ظهرى ، ليزول شغل قلوبكم. فأما القاضى وتجرده للجهاد ، فليت الحديث كان معه (ب) ومع العامة الذين يفزعنا بهم حتى كان يرى الأعاجيب ، ولكنما أمر السلطان فى الوسط يضعف المنة ، وقصده يهد ركن الثبات والمكنة ، والقاضى إذا كان لايأسى على أمواله (ج) الموفورة ، وضياعه المدخورة ، وتنازعه نحو الجهاد نفسه «ودينه عليه عمى» ، لم لاينشط له من لايملك من الدنيا شبرا ، ولا يحوى إلا قوتا قشفا (د) وطمرا «وهو على بصيرة من ربه» ، فليتكم خليتم بيننا وبينه حتى كان يجرب كل منا بخته والسلام .

ثم قمت من ذلك المجلس عائداً نحو بيتى وعاكفاً على إصلاح أمرى ، وجعلت اخفض وأرفع أين يكون قصدى والمنافذ بالأعداء مشحونة ، لاسيما إذا عرف السبيل التى أخرج عليها من مقت السلطان وقصده ، وسهرت ليلتى كلها مفكراً فيما أبنى عليه أمرى ، وأسوق إليه قصتى ، فلم يلح لى شئ أعتمده ، ولا رأى صحيح أعمل به . ولما كان فى اليوم الثانى عاودت المجلس فى دار الوزارة ، وأنا لا أدرى بما عاودته ، وعلى أى شئ أخاطبه ، فكان من إلهام الله سبحانه ساعة التقيت بالوزير أن قلت « عدت لشئ عن لى بعد انصرافى بالأمس ، وذلك أنك قطعت على بالخروج من البلد وقلت أجتهد ، وفكرت فى محصول خروجى فوجدته يوردنى شراً مما أنا متهارب منه مورداً وأعم ضرراً ، ويسومنى حالة رديئة أخشى منها ميتة دنيئة ، فاننى أتهارب مما يتوعدنى به السلطان العظيم القدر الجليل الخطر لا من شئ غيره ، ولست آمن من الحصول على مثله من جهة أوضع الناس قدراً وأخملهم ذكراً ، فلئن أقيم بموضعى موطن النفس على ما ينتظر منه (ه)

(ا) فى ك : سقطت. — (ب) فى ك : معى . — (ج) فى د : أموال . — (د) فى ك : كشفا .
(ه) فى ك : عنه .

أولى ، كى ما أعرف قاتلى ، ثم ليقول : الناس قتل ، فلان مظلوما وقتله فلان ظالما ، فليكتسب كلانا بالحمد والذم ذكراً باقياً ، فأنا مقيم على جملتى لا أبرح ولا أنتقل من حيث معروف إلى حيث منكور ، فان كان لابد بحالة من إخراجى فقد أمكنك أن تجعلنى تحت الكبول ، وتقيدنى بالقيد الثقيل ، وتطرحنى على بهيمة وتحملنى لأكون عند نفسى معذوراً ، فأما أن أتولى الخروج بقدمى فلا أفعل ، اللهم إلا أن تؤجلنى أياما لأعاود بيتى وأصلح شأنى وأبيع دويرى وأحصل نفقة لمتوجهى ، وأخرج خفية آمن معها من معترض يعترض لى ، حتى أتخلى من دياركم وأتجاوز حد أعمالكم» .

فأطرق الوزير ساعة ينكت فى الأرض وقال بعد ذلك مجيبا «قد وقع الرضا بالخروج على هذا النمط ، فارجع لترتب أمرك على ما تخيرته برأيك ، وليكن أكثر المقام أسبوعا» فقلت : «سمعا وطاعة . أقوم على هذا التقدير ، وأجتهد فى تقويم المسير ، إلا أن فى الأمر حالة لايسعنى إهمال ذكرها والاستئذان فى بابها»قال : وما هى ؟ قلت : « معلوم ما بينى وبين الديلم من الأحوال الممهدة والأسباب المؤكدة ، وأن أحدهم إذا اختصم مع أهله ليلا فانه يباكرنى شاكيا إلى ، ومورداً جملة أمره وتفصيله على ، ولا شك فى أنهم إذا عرفوا جلية أمرى ضجوا وصرخوا وقاموا وقعدوا ، فلا يكونن ذلك منسوبا إلى ، ولا معتدا بجناية على » فقال : « يجب أن تمنعهم من لقائك مدة مقامك ، وتحول بين نفسك وبينهم بحجة دواء تشربه أسبوعاً» . فقلت : «ما عهدونى قط حجبتهم ساعة من النهار عنى ، ولا قطعتهم دون ذلك منى ، ولكنى أفعل حسب ما ترسم إن شاء الله تعالى» . وخرجت على أن أكون إلى ما مثل مُنْصِباً وللخروج مستعداً ، فأغلقت الباب فى وجهى ، ومنعت الناس عن لقائى ، وتوفرت(ا) على الدعاء والصلاة والرغبة إلى الله تعالى فى كشف الداهية . وكان ذكر ما أنا بصدده يستفيض وينتشر ،(ب) وقلوب الديلم تحرج وتضيق ،فلم يكن يجمعهم مجمع من تعزية وضيافة إلا كانوا يتناجون(ج) بينهم فيما يخلص إليهم من الوهن بعد الوهن ، حتى انتهى إلى أنهم يزاحمون فى دينهم ، ويمانعون عن اعتقادهم ، والنصارى واليهود فى دينهم لا يعارضون ، وعن بيعهم وكنائسهم لا يمنعون ، فاتفقت الكلمة على التجمع للتألم من هذه الحالة ، فاجتمع منهم عدد كثير فى سوق الدواب بشيراز — وذلك موضع يختص بهم إذا شغبوا — واختاروا من بينهم رسلا يتحملون رسالاتهم ، ويوردون ظلاماتهم ، فتوجهوا إلى خليفة كان للوزير ، وأدوا الرسالة ، وهولوا القضية ، وخلطوا حلواً ومراً ،

(ا) فى د : توفرت . — (ب) فى د : سقطت الواو . (ج) فى ك : فيما بينهم .

ولطفاً وعنفاً ، وأوردوا أنه إن يستمر الأمر على ذلك قطعوا الآمال ، وركبوا الأهوال وحموا نفوسهم من احتمال الذلة والتوسم بميسم الضعف والقلة . فانتهى الخبر إلى كل جهة ، وعلم أنه سيكون منه شأن يستفيض شره ويستطير شرره ؛ فرسم السلطان للوزير تلافى القضية (ا) وإطفاء النائرة ، فكان من تلطفه فيه ، وحسن تدبيره وجميل تأنيه ، أنه استقبل الأمر بالتلافى والتدارك ، وسابق الديلم يوم الجمع الكثير فى الميدان للتكلم عن مداواة الداء ، ورسم (ب) استحضار القاضى والقصاص والصوفية على بكرة أبيهم ، فجاءوا يخرقون مصاف الديلم يمنة ويسرة ، وهم يتحاملون بالألسنة عليهم ، ويقولون كل قذع (ج) وسقط فى حر وجوههم ، إلى أن دخلوا الدار وهم موتى من الفزع فيما حصلوا من جهة الديلم عليه ، وما دعوا من دار السلطان إليه ، ولما مثلوا فى بساط الوزير اعتمدوا بكل تثريب وكل زجر ونكير قولا : «إنكم قد بطرتكم (د) النعمة ، وكفرتم الموهبة فيما مد عليكم من ظلال الأسنة والمعدلة ، فصار همكم إثارة الفتنة ، وكلامكم الاغراء بين الشيعة والسنة ، وأنه إن سمع بعد هذا أن أحدكم يتلقن بشئ منه ذكرا ، أو يجرى به فى فمه لسانا ، فرشتم قتلى فى السكك والأسواق ، وحصل من سلم بعده فى المصادرة والجر فى الخناق ، فابصروا بين أيديكم ، وانظروا إلى مواطىء أقدامكم والسلام» . فصدروا ثقالا بعد أن وردوا خفافا . ثم سئل الديلم عما جمعهم فى الميدان ، وألّف منهم بين الشيب والشبان ، ورسم اختيار عدة يدخلون ويترسلون عنهم ، فاختاروهم ودخلوا ، وسألهم (هـ) عن سبب الجمع فأجابوا : «بأنهم قوم يعتقدون اعتقاداً تقرر فى نفوسهم حقه ، وتأكد عليهم بعهود ومواثيق أخذوها فرضه ، وأنهم يتخذون هذا الرجل القيم به أباً لهم وأخاً وصاحباً ومحلا لكل سر ، ومفزعاً فى كل خير وشر ، وأنه منذ أيام أغلق الباب فى وجهه ، ويرجف بأنه ينفى عن البلد ، ويفعل به ويصنع فهذا هو الذى ألّفنا وحرك ساكننا (و)» فأجاب الوزير : «بأنه لم يجر شئ من ذكر النفى معاذ الله ، فانه أجل قدراً وأبسط حشمة أن يتناول بشئ من ذلك ، ولكننى أشرت عليه بالجلوس فى داره ، والمنع عن لقائه أياماً لحدوث فورة من العامة بسببه ، ريثما أتوصل إلى حل عقدتها وإطفاء نائرتها ، وقد استدعيت فى هذه الساعة رؤوس ضلالتهم والمتوجهين فيهم ، وأطعمتهم لحومهم ، وأنذرتهم سوء العذاب إن عادوا لما نهوا عنه من كلام التشيع والتسنن ، والخوض فيما يثير أسباب الفتن ، ويجب عليكم أن تعاودوا منازلكم وتشرحوا صدوركم ، فقد كفيتم فى صاحبكم ما تخشونه» . فانصرفوا

(ا) فى د : القصة . — (ب) فى د : سقطت . — (ج) فى د : قذف .
(د) فى ك : ابطرتكم . — (هـ) فى ك : سقطت . — (و) فى د : ساكنا .

راضين شاكرين . ولما كان بعد ذلك بيوم أو يومين كتب إلىّ الوزير رقعة فسح لى فيها فى فتح الباب ، وتمشية الأمر ، وعقد المجالس على الرسم ، ففتحته (ا) مسرورا بلطف الله تعالى فيما كفانيه عاجلا(ب) وخائفا مما يؤديني إليه تضاعف الغيظ آجلا وقلت :

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى

ووضعت الخد بالسجود والرغبة والابتهال والمسألة راجيا من الله تعالى حسن الاجابة . ثم اقتضى الحزم أن أرفع من البلد كل ما كنت خائفا عليه من كتب ودفاتر ، فنقلتها إلى بعض المواضع وجلست مستسلما للمقادير فيما يمسنى ، ومسلما نفسى لأهل البيت صلوات الله عليهم فيما يدهمنى ، ولم أخل من نفثات كنت أسمعها دالة على سوء الاضمار ، وانتهاز الفرصة فى الاساءة الىّ عند الامكان والاقتدار ، فقلت ما افترض الله تعالى على التغرير (ج) فوق هذا بنفسى ،وإلقام فم الردى عرضى ، واعتقدت الانتباذ إلى الأهواز التى هى من المملكة طرف وللديلم مجمع ، وأن أتخلى هناك عن جميع أثقالى من بهيمة وغلمة، وأغير من حالى فى ملبسى ، وأعتكف فى مشهد ولا أزايله حتى يقضى الله علىّ أمره الذى يريحنى من مرارة ما أتجرعه . ووافق عقد نيتى على ذلك اتفاق حركة السلطان إلى الموضع الذى كان نحوه توجهى (د) فقلت فتح من (ه) الله ونصر ، فانى سائر فى الجملة ، ومتوجه فى الصحبة ، ثم إذا حصلت أقمت بمكانى وعكفت على شأنى ، فجعلت أخبط وأقوم وأقعد فى الاعداد للمسير إعداد منقلع بجملته عن مستقر ولادته،ومول له ظهره ، فاستنظفت دارى من قليلها وكثيرها مما يكون موجودا فى الدار ، ورتبت من يقوم ببيعها إذا فارقتها ، وبينما أنا مشدود الرحل سائر بالقلب ؛ إذ أتتنى رقعة من الوزير مختومة ، فخفق قلبى حين تناولتها وفضضت ختمها ، فاذا هو ينهانى عن المصاحبة أشد النهى ، ويزجرنى أعظم الزجر ، ويقول إن السلطان جد متعض من مصاحبتك ؛ فلم أدر بماذا أجيب ، وأى شئ أقول وتوجهت إلى مجلسه بنفسى جوابا عن الرقعة وقلت : يا قوم ما تطلبون من ضعيف مهين ، لا منعة له يتعزز بها ، ولا يأوى إلى ركن شديد يستظهر بمكانه ، أما تأنفون أن تكونوا أوفرتم على قصده أوقاتكم ، ووقفتكم على ذكره بالسوء هممكم ، من هو ؟ وأى شئ هو حتى تكون همة السلطان أبدا عليه موقوفة وسريرته به مشغولة ؟ ولم يمنعونه عن النفوذ فى صوب الرفاقة وسلوك الطريق مع السابلة ؛ دعونى لأخرج فى شأنى . فقال : « هذا السلطان ليس

(ا) فى ك : ففتحت الباب . — (ب) فى د سقطت الواو . — (ج) فى د : الانتباذ .
(د) فى ك : وجهتى . — (ه) سقطت فى النسختين .

يطيق سماع ذكرك ولا يؤثر قربك ومجاورتك ، وقد عرفت ما جرى عليك أولا وآخرا وقصدت به باطنا وظاهرا ، وكان من الحق أن لا يستقر بك القرار بعده ، وتبغى لنفسك كيفما كان سبيلا وتستصلح شأنا ، فلم يكن إعفاؤك عما كنت بعرضه إلا لما عرفت لا عن رأفة بك (ا) ورقة (ب) لك ، وإذ قد نمت عن تدبير أمرك إلى هذه الغاية ، فلا وجه الآن للمصاحبة ، ولا جسارة على الكلام لك والمخاطبة» ولم أزده شفاعة إلا زادنى ردا ، وعن بلوغ غرضى بعدا ، فخرجت لابسا ملبس الخيبة ، موطنا نفسى على مواقعة أعظم الخطة، إذ كان الديلم عامة فى الصحبة سائرين ، وعندهم أننى فى الجملة ، فكذا كانت الموافقة بيننا ، فمنعت عن النفوذ ، وبقيت فى البلد والمتولى لأمره من لو سقوه دمى لعسى أن كان يشربه ، من بغضه لى وسوء رأيه فىّ ، فأرقت ليلى كله اغتماما وافتكارا فى مصائر أمرى .

ولما أصبحنا أدلج القوم وبقيت مرتبكا فى الحيرة متبلبلا من الدهشة . فقلت لمن حولى : «اطلبوا إلى صحبة لعلها تتوجه إلى «بسا» — موضع على أربع مراحل من شيراز وأهلها من النصب على غاية ، سوى أن بها من الديلم جمعا كثيرا — لنسير فيها ، فجاءنى البشير بوجودها واتفاقها ، فأرخى نفسى من بعض خناقها، وقمت متوجها إليها وجها واحدا ، وجلست هناك أبنى بها مشهدا مختصا بالشيعة وأهل الدعوة ، وما كانت تلك البقعة شهدت حجراً على حجر وضع فيها هذه سبيله ، وقلت : يانفسى أنت مهما أمكن أكلك مأكولة ، وأى وقت تيسر أخذك مأخوذة فاشتغلى باشادة هذا البناء المورث ذكرا وأجرا ، وانتظرى مايكون ولعله سيكون خيراً» فكنت شتوة بطولها موفور الليل والنهار على ذلك ، وكان الديلم الكبراء يعمل الواحد منهم بيده فيه ما لايعمله عدة من العملة ، فقالت العامة : إن هذا الرجل — يعنونى — ساحر قد سخر هؤلاء الجبابرة كما سخر سليمان الجن . حتى تكامل أكثر الغرض ، ولما أقبل الصيف أقبل السلطان والعسكر بوجوههم إلى شيراز ، فقلت الآن حصحص الحق ، الآن جاء البشر . فقلت لامعنى لغيبتى فى هذا الوقت إلا أن أكون فى خط الدائرة فرجعت على علاقى إليها .

وكنت أقضى الوقت بها خائفا مترقبا ، ولما يحدث من الأمر منتظراً ، فكان من توفيق الله سبحانه الجميل أنى توجهت فى زمرة عدة من الأصدقاء من الديلم إلى استقبال صديق منهم وارد من الأهواز ، وكان حضر أيضا من ندماء السلطان وخاصته واحد فكنت فى رجوعنا إلى البلد أسايره وأبث (ج) إليه شكواى وأقول : إن الدولة ديلمية ،

(ا) فى ك : لك . — (ب) فى ك : سقطت . — (ج) فى ك : سقطت الواو .

والسلطان ديلمى ، وندماؤه ديلم خلص ، والقيامة قائمة على خوفا ووجلا من حيث أن المملكة كلها بالأمن محفوفة ، وبالعدل مكنوفة، فلو كنت فى ولاية محمود بن سبكتكين (١) لما زادنى على هذا فان كان الشرائط الديلمية لاتكاد توجب عليكم معشر خاصته أن تحاموا على من ظلمه (ا) رقبة لله ، وقربة إلى أهل بيت رسوله صلى الله عليه وسلم ، أما يوجب عليكم ما تتقلبون فيه من نعمته أن تنصحوا له ، وتنهوه عن ظلمى وتنبهوه لما فى ضمنه من المآثم (ب) والشدائد استحفاظا لنعمته واستتبابا لدولته . وجعلت أطاوله فى هذا المعنى وأطول وأعرض معه ، إذ أقبل ركاب من قبل (ج) السلطان يحث نحوه ويركض فى طلبه ويقول : إن الملك يدعوك . ورجع الركاب إلى حضرته فسأله أين وجده ، ومع من كان ؟ فأخبره على ما بلغنى أنه كان توجه لاستقبال فلان الوارد وأنه رآه(د) يساير فلانا — عنانى به — ويساره ويطول معه ، فلما حصل هناك أخذ يعتب عليه من مصاحبته لى ومسارته ، ويسأل عما جرى بينى وبينه ، فأورد من الجملة ما أمكنته (ه) العبارة عنه فاستوعبه ، وحمله جوابا إلى ، ونهاه أن يقصد دارى به دون أن يستدعينى إلى بعض الصحارى فيسمعنيه هناك ، فاستدعانى فى اليوم الثانى وخرجت فقال : أبلغت الملك رسالتك ، واستوعبها وذكر أنك تسعى بالفساد فى المملكة وتجتهد فى إيقاع الفتنة ، وتجرى إلى عظائم ودواهى لاتغفر فيها زلة ولا تقال منها عثرة ، حتى لقد قيل عنك إنك تريد البروز إلى المصلى لاقامة الصلاة والخطبة هناك ، ولو كنت سالكا طريق الصواب ناكبا عن نهج الخطل ودواعى الاضطراب ، لشملتك العناية واكتنفتك الرعاية ، [ولكن الأفعال تحدث منك بضد مايرضى (و)] ، ونقيض مايحمد ويرتضى .

«فقلت فى الجواب» إن هذا الأمر الذى أتولاه ما أنا أبدعته ، ولا فى أيامى أحدثته ، فانه قديم تقضت عليه السنون ، واندرج فى معرفته ومشاهدته الملوك ، ولو علم أنه يوقع

(ا) فى د : منه من ظلمه . — (ب) فى د سقطت الواو . — (ج) فى ك : عند .
(د) فى ك : رأى . — (ه) فى ك : أمكنه .
(و) فى ك : ولكن الأمثال تحدث منك غير ما يؤثر بضد ما يرضى .

---

(١) هو أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة ابن منصور سبكتكين صاحب غزنة (راجع ترجمته فى ابن خلكان ج ٢ ص ٨٤ طبع المطبعة اليمنية سنة ١٣١٠ ه).
ولعل عداء المؤيد لمحمود بن سبكتكين إنما يرجع إلى ما حدث سنة ٤٠٣ ه عند ما أرسل الحاكم بأمر الله الفاطمى كتابا إلى محمود يدعوه إلى طاعته ، فبعث محمود بالكتاب إلى الخليفة القادر العباسى بعد أن بصق عليه وخرقه . (راجع النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٢ وتاريخ مصر لابن ميسر).

ملكا أو يحدث فساداً لما نامت عيون فحولة ملوك بنى بويه عن إحالته وتغييره وقصر باعه وقص أظافره ، ولما كان أكثرهم يؤثره لنفسه دينا لقى الله تعالى به (١) ويتبرج بزينته ، ولكن المقبحين قبحوا الصورة بحضرة الملك ، ولو أنه استقصى الأمر لوجد قدماءه أكثرهم بذلك دائنين وبشعاره منادين ، فأما ما انتهى إلى عالى مجلسه من اعتقادى كان البروز إلى الصحراء بالصلاة والخطبة فان ذلك ما جال فى خاطرى ولا هجس فى خلدى ، و إنى لأرجو أن أكون أبلغ ما يجرى به القال من ذلك فى ظل دولته وبركة إيالته ، وسوى هذا فان الملك نشأ فى سماع كلام المخالفين والطاعنين علينا ، وتلقن منهم كل شئ مما يزيفنا فى عينه ، ويثقلنا على كريم قلبه ، وقد انتشر الذكر فى كونه من وفور الكمال والعقل بحيث يوجب عليه أن يسمع كلامنا ويصغى لحجتنا ، ثم إن وضح له شئ مما ننسب إليه من الكفر والتعطيل ، كان وسيع العذر عند الله تعالى وعند نفسه فيما يقصدنا به من القتل والنفى ، فاعلا للشئ فى وجوبه واستحقاقه ، والا وجب الاستحلال عما مضى وتلافى ما سبق بالحسنى . » فنفذت هذه الرسالة وعاد الجواب دفعة ودفعتين بما كان يتهدأ(ا) كلما عاد من التحريش ، ويشتمل على الكلام اللطيف ، فعن لى أن أكتب رقعة أودعها ما يجمع بينه (ب) وبين هذه من كلام محق لا يتحاشى فى الله ولا يحابى ، وانهاه (ج) عن الظلم الذى ضاق عن الصبر على مضضه إهابى ، فكتبتها وأصدرتها ، وهناك فضل معرفة بالألفاظ الجزلة والمعانى الرائقة ، فوقف عليها وقوف معجب بها مستحسن لها ، وأصدرها إلى حضرة الوزير مقرونة برسالة فى استدعائى والتلطف بى والتسكين منى ، ومخاطبتى على أن أقف فى الأمر الذى أمشيه حيث بلغت ، ولا أتجاوز به من حد الاسرار إلى

(ا) فى ك : يهدأ (وعلى الهامش) يقتطع . — (ب) سقطت فى ك . — (ج) فى د : انهى .

---

(١) تذكر كتب التاريخ أن البويهيين كانوا من الشيعة وهنا يقول المؤيد إن أكثرهم كان على مذهب الفاطميين .

ويحدثنا صاحب النجوم الزاهرة أن العزيز بالله الفاطمى كان يراسل عضد الدولة البويهى ، ومما جاء فى إحدى رسائله إلى عضد الدولة: « فان رسولك وصل إلى حضرة أمير المؤمنين (أى العزيز) مع الرسول المنفذ إليك فأدى ما تحمله من إخلاصك فى ولاء أمير المؤمنين ومودتك ؛ ومعرفتك بحق إمامته ، ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين » . وكتب إليه عضد الدولة يعترف فيه بفضل أهل البيت ، ويقر للعزيز أنه من أهل تلك النبعة الطاهرة وأنه فى طاعته . — الخ (راجع النجوم ج ٤ ص ١٢٤) . فهذا يؤيد قول المؤيد من دخول بعض البويهيين دعوة الفاطميين .

الاظهار ، فاستدعانى وأكرمنى وبذل الجميل لى (ا) ، وقال لى ما قدمت ذكره من القول فأجبت : «بأنى قد أخرت هذا الأمر من حيث تظنوننى قدمته ، ووضعته من حيث تحسبوننى رفعته ، والدليل على ذلك أن والدى كان فى هذا (ب) البلد متسما بهذا الاسم ، مرتسما (ج) بهذا الرسم ، وكان له من المكنة واليد والقدرة ما كان يغنيه أن يطأ عتبة باب ، أو يقاسى ذل حجاب ، وكان الوزير أبو غالب الواسطى الملقب(١) بفخر الملك وزير الوزراء ، الذى كان ماكان باتساع مكنته وانبساط يده ، نازلا فى هذه الدار التى تنزلها ، فلم يعهد والدى قط داخلا إليه ولا مسلما عليه ، ووجد ذلك غير دفعة يزوره ليلا فى بيته ويغشاه فى منزله ، وأنا طول الدهر على الأبواب طائف ، وعلى الزورات عاكف ، فلو أمكننى التعزز أكنت أختار التذلل» . وجرى فى مثل هذا كلام طويل وخرجت ساكن القلب ، واثقا بحسن كفاية الرب سبحانه وتعالى .

وكان السلطان أزمع الخروج للتصيد عشية ذلك اليوم ، ولم يكن قد اكتحل بى قط ، لأنى كنت ألزم الزاوية وأطلب العافية ، فلا أوثر أن ينثلم دينى أو يسجد لغير الله جبينى ، وكانت صورتى فى التقاعد عن الخدمة تقبح زيادة تقبيح ، وأنسب فيه إلى كلام فظيع ، فحدثت نفسى بالتعرض لموكبه والنزول والدعاء ، ليرق قلبه ، وينزع من سوء الرأى همه ، فوقفت فى بعض الصحارى له ، ولما دنا نزلت وتخضعت ودعوت ، فسأل عنى ، فقيل فلان ، فرسم أن يقدم مركوبى لأركبه ، فارتفعت ضجة المطرقين والركابية بين يديه بذلك ، وقدم لى مركوبى وركبت ، ووقفت مكانى أنتظر عودة الوزير من تشييع ركابه ، فلما عاد ذكر أنه قال فيك خيرا ، وأثنى عليك حسنا ، واستخبرنى هل سكنت بالغداة منك ، وهل أديت رسالته إليك قال : فقلت نعم .

وغاب أياما ثم رجع ، ولما كان يوم الرجوع لقيت (د) ركابه قدر فرسخين ، ونزلت وخدمت ودعوت ودخل البلد ، ورسم للوزير تبرعا استحضارى إلى عالى مجلسه أى وقت حضر ، ففعل ذلك ، وكنت أحضر ، وسبب الاقتراب يعمر ، ثم رسم مناظرة عدة من المخالفين مكاتبة ، فتناوبت بيننا وبينهم ابتداءات وأجوبة ، وكان يقف عليها ويميز

(ا) سقطت فى نسخه ك . — (ب) فى د : بهذا . — (ج) فى ك : مترسما .
(د) فى ك : تلقيت .

---

(١) هو محمد بن على بن خلف أبو غالب الواسطى المتوفى سنة سبع وأربعمائة (المنتظم لابن الجوزى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٥٧ . ابن خلكان) .

بين الصحيح والسقيم منها ، وقد شرحت ما جرى بيني وبينهم ليقف عليه من تأمل هذه القصة ، فأعجب الملك بها وأنحل منه جميع ما كان سبق منه بسوء التعليم ، ولعن كل أفاك أثيم ، والمناظرة ما قد أشرح بفصه ، وأورد على جليته ، وهو هذا : —

مناظرة المؤيد مع العلماء فى حضرة أبى كاليجار

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد حمد الله ذى الطول والانعام والصلاة على سيدنا محمد المصطفى ، وآله صفوة الانام ، فانه رأى من الموقف الأشرف الشاهى أيد الله جمال زمانه وأيد قواعد سلطانه ، استبراء كلام هبة الله بن موسى فى اعتقاده ، والترجيح بينه وبين قول من يحكم بفساده ليعرف المحق منهما من المبطل والهادى من المضل ؛ فانتدب للسؤال واحد كان وقع عليه سؤال من جهتى وهو قول الله تعالى : «ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب[١]» الآية ، وقلت إذا كانت هذه الأسباب التى هى جماد وحيوانات لا تكليف عليها ساجدة لله تعالى من غير معلم ، فلم صارت مفضولة والانسان الذى لا يصح له السجود إلا بمعلم عليها فاضلا . فلم يورد فى الجواب ولم يصدر ، وعدل إلى هذا السؤال الذى نذكره : ما قول الشيخ فى ظواهر القرآن ؟ هل تقتضى معانى لا يدل عليها اللفظ (ا) ولغة العرب مما تحتاج أن نرجع إليه فيه ونتعلمه منه إذ لا يفهمها أحد إلا هو ومن هو على مذهبه وطريقته ؟ وإن كان لها هذه المعانى عنده فما الحجة عليه ؟ وما الذى يدل عليه ؟ يبينه يستفاد منه مأجورا إن شاء الله تعالى بحوله (ب) وقوته .

(الجواب) أقول وبالله التوفيق وعليه أتوكل إن للقرآن معانى سوى ما تتداوله ألسن العامة مما يستنبطونه بحولهم وقوتهم من دون الرجعى فيه إلى أهل الاستنباط ممن قال الله تعالى : «ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم[٢]» ، ونص الكتاب ناطق بأن للقرآن تأويلا بقول الله سبحانه : «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم[٣]» ويقول تعالى : «ولنعلمه من تأويل الأحاديث[٤]»

(ا) فى د : اللفظة . — (ب) سقطت فى نسخة ك .

---

(١) سورة الحج ١٨/٢٢ . — (٢) سورة النساء ٨٣/٤ . — (٣) سورة آل عمران ٧/٣ .
(٤) سورة يوسف ٢١/١٢ .

ويقول عز وجل : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله [١] » . وقال النبى صلى الله عليه وآله : « أنا صاحب التنزيل وعلىّ صاحب التأويل » . وعلم التأويل معناه علم العاقبة ، وما يفضى الأمر إليه فى النهاية ، يدل على ذلك قوله تعالى : « ذلك خير وأحسن تأويلا [٢] » أى أحسن عاقبة ؛ والتأويل تفعيل من آل يؤول ، وهو الذى يستجار به فى الشدة ويفزع إليه عند عارض (١) النائبة ، فتأويل القرآن كذلك ، هو ما يرجع إليه عند عارض الشبهة والحيرة ، فاللفظ يقتضى التأويل ، والعقل يقتضيه ؛ ومعلوم لكل ذى حاسة أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث فى حين استعلاء الألفاظ العربية وتبرج أهلها بالفصاحة والجزالة ، وكان كلام خاصتهم مضمنا من الرموز والاشارات مالا يتطاول نحوها عامتهم ، فأتى صلى الله عليه وسلم من جنس ما كان لهم فيه اليد والقهر والغلبة وَحْيًا من ربه سبحانه ما أعجزهم باطنه كما أعجزهم ظاهره ، قال الله سبحانه : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا [٣] » فكان ظاهر القرآن معجزا لرسول الله ، وتحقيق معناه وتفسيره معجزا لأهل بيته صلوات الله عليهم لا يدعيه سواهم إلا كاذب ، يؤكد ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى وأنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض » وقال صلى الله عليه وسلم : « تعلموا من عالم أهل بيتى أو ممن (ب) تعلم من عالم أهل بيتى تنجوا من النار » والحجج على ذلك كثيرة وهى كوضوح الشمس واضحة ، لا يجليها عن (ج) سترها إلا تنسم رائحة الانصاف بالزام من لا يكاد يفرق بين نفسه وبين الجماد ، بل يفضله عليها إذ كانت الجمادات عنده ساجدة لله تعالى عن غير تعليم ، وهو ساجد تعليما أن يخرج عن هذه العهدة ، ويوضح شرف الانسانية أو ينزع قلنسوته لمستحقها من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(جواب الخصم على ما هو به) وجدت فى هذا الكلام تطويلا ينقض بعضه بعضا ، وكاتبه هارب عن جواب ما سئل عنه ، جانح إلى بسط الكلام فيما هو مائل إليه ، غير منصف فى العبارة والمعنى ، وذلك أن السؤال أولا وقع عن القرآن ، هل له معان لاتقتضيها ألفاظه أم لا ؟ وجواب هذا : نعم أو لا . فلم يجب بشئ منهما ، بل كتب شيئاً آخر فيه

(ا) سقطت فى د . — (ب) فى ك : وممن . — (ج) فى د : من .

---

(١) سورة يونس ١٠/٣٩ . — (٢) سورة النساء ٤/٥٩ . — (٣) سورة الاسراء ١٧/٨٨ .

جفاء ، تعريضاً لاتصريحاً ، وجوابه مثله تعريضاً،قولك: إن للقرآن معانى سوى ماتداوله ألسن العامة مما يستنبطونه بحولهم وقوتهم من دون الرجعى فيه إلى أهل الاستنباط ممن قال الله سبحانه : « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم (١) » لايخلو من وجهين : إما أن يريد بالعامة غير العلماء من أهل نحلتنا ، أهل الاسلام والحق ، أو يريد به مخالفيه من أهل الحجى والأدب والاعراب والقرآن وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، فان أردت به غير العلماء فلا اعتداء بهذا الكلام إذ ليس لهؤلاء معرفة بالقرآن نفسه ، فكيف يكون لهم معرفة باستنباط الحق منه واستخراج ذلك بالنظر الصحيح الذى مداره على أصول لم يعرفوها وقواعد لم يحكموها . أو يريد به مخالفيه وهم الذين أحكموا مذاهب العرب وعاداتهم ومجارى كلامهم ، وعرفوا الفرق بين الحقيقة والمجاز ، والتأويل الصحيح الذى يعضده لغاتهم وطبعهم ويدل على قوته كلامهم وعبارتهم ، مثل ابن عباس رضى الله عنه الذى قال (ا) له النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن مسح وجهه : «اللهم علمه الحكمة (ب) وتأويل القرآن» ولاشك أن دعوته مستجابة، ومثل الفقهاء (ج) والأئمة مثل أبى حنيفة الذى استخرج من كتاب الله مائة ألف مسألة دونها فى كتبه ، وصار الناس فى البلدان الكثيرة إلى مذهبه فيها ، ومثل الشافعى الذى ظهرت بركاته فى الدين حتى انتشر مذهبه واعتقده الخلق العظيم فى كثير من البلدان ، ومثل غيرهم من أئمة الهدى رضى (د) الله عن كافتهم ممن يطول ذكرهم ، فإن أردتهم بهذا الكلام فقد غلطت فى قولك ، وأفحشت وقبحت ، إذ هم وأمثالهم لا يستنبطون بآرائهم ، وإنما يستنبطون الأحكام من القرآن بعد أن يشهد بصحة بعضه بعض ، ويقوى الشئ منه الشئ ، وأنا أذكر من استنباطهم الحسن شيئاً تستفيده وتزين به حلقتك باطناً وإن أنكرته ظاهراً على عادة مذهبك واستمرار طويتك : قال (ه) الفقهاء رضى الله عنهم : إن أقل الحمل ستة أشهر وإنما كان ذلك لأن الله تعالى قال : «وحمله وفصاله ثلاثون شهرا (٢) ». وقال فى آية أخرى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة (٣) » . فاذا كان مجموعها (و) ثلاثين شهراً ومدة الرضاع أربعة وعشرين شهراً بقى مدة الحمل ستة أشهر فأى استنباط أحسن من هذا ، وأى استخراج أوضح وأصح منه . ونحن أولوا الأمر لأننا

(ا) سقطت فى ك . — (ب) فى د : الحكمات . — (ج) فى د : فقهاء الأئمة .
(د) سقطت فى د . — (ه) فى ب : فقال . — (و) فى ك : مجموعهما .

---

(١) سورة النساء ٨٣/٤ . — (٢) سورة الأحقاف ١٥/٤٦ . — (٣) سورة البقرة ٢٣٣/٢ .

العلماء والقدوة والفقهاء ، والنظار فى دين الله تعالى ، والذابون عنه والناصرون له ، والدامغون للباطل وحزبه ، والرادون على الزائغين ، عصمنا الله تعالى من قول المبطلين المفترين فى الدين الذين يجحدون الحق وينصرون الباطل . وإن كان الاشارة فى إبطال الاستنباط إلى رد القياس واستعماله ، فالقياس الصحيح هو المعيار الصحيح الذى يميز به الحق عن الباطل ، والصواب عن الضلال ، يدل عليه قوله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار[1] » . والاعتبار إلحاق الشئ بنظيره ، ولايعلم أن الشئ نظير لغيره إلا بمعنى يحصل فيهما ، أو علة تجمعهما ، ومن أنكر الاعتبار والقياس فى الدين لم يكن من أهل الاجتهاد، ولايكون ما يشتغل به علما ، والذى يدل عليه من جهة الخبر أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القبلة للصائم أنها تفطر أم لا ، فقال له(ا) : « أرأيت لو تمضمضت ماء فمججته أكان ذلك يفطرك » فقال الرجل : «لا» . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «فلا إذن» . فشبه النبى صلى الله عليه وسلم القبلة للصائم بالمضمضة من حيث أنه لم يدخل جوفه شئ مع الذكر ، وهذا يفهمه من له حاسة صحيحة ، وعقل وافر لا نافر .

ثم وجدت فى هذا الكلام تناقضاً لأنه نفى استنباط الغير وأثبت لنفسه وأهل نحلته استنباطاً ، فان كان الاستنباط فاسداً فهلا هجره هو وقد قيل فى المثل :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

ثم هذا الكلام خارج عن(ب) الانصاف ونهج الصواب لأنى سألته(ج) عن تصحيح ما يدعيه من معانى القرآن ، لايدل عليه اللفظ العربى ولا يقتضيه فحواه ، وهو يزعم أنه يستنبط من القرآن معانى ، [والاستنباط لايصح إلا بعد اعتبار معنى] (د) فى الشئ المنصوص عليه فيرد عليه بذلك المعنى غيره مما لا ذكر له فى القرآن وهو القياس المحض ؛ وهو لايقول بالقياس والاستنباط فلم ينقض كلامه بعضه ببعض ؟ وينسخ أوله بآخره ؟ إنما يناظر المرء مكاتبة ومشافهة إذا ضبط المناظرة ، فأما الذى لا يعرف ذلك لم يتعرض له لأنه تفضحه شواهد الاختبار . فان زعم هذا القائل أنه من أولى الأمر لم يسلم له وقد بنى خلافاً على خلاف هو أعظم ، وادعى لنفسه ما لايصلح له أبداً . وأما قولك ونص

(ا) سقطت فى ك . — (ب) فى د : من . — (ج) فى د : سألت .
(د) سقطت هذه الجملة من نسخة د .

---

(١) سورة الحشر ٥٩/٢ .

الكتاب(ا) ناطق أن للقرآن تأويلا بقول الله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم(١) » . فصحيح إلا أنه يحتاج أن يبين أن التأويل المشار إليه هو عارف به من دوننا ، وعنه يؤخذ ولأجله يسار إليه ، فاننا نقول وقولنا الحق والصدق ، إنه معنى ونحن به عارفون ، وهم عنه عادلون ، يقولون فيه بشهواتهم ، ومرادهم حيث يحملون قوله تعالى : «فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى(٢) » على قوم بأعيانهم وهل ذلك إلا شهوة وقول معدول به عن الحق ، نعوذ بالله من القول فى القرآن بالشهوة . وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده فى النار » . وأما تعلقك فى هذا الموضع بقوله تعالى : « ولنعلمه من تأويل الأحاديث (٣) » . فهو محمول على معرفة تعبير الرؤيا ، أجمعوا على ذلك ، وليس تأويلاتك من هذا الجنس ، ولو كانت تأويلاتك تعبير الرؤيا (ب) على ما جاء فيه الآثار لكان مسلماً لا نناقش فيه ، فاعلم أنه لا تعلق لك بهذه الآية ، إذ لا حجة لك فيها بتة بتة . وأما تعلقك بقوله تعالى : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله(٤) » فهو حجة عليك إذ تجرأت على الله تعالى ، وحملت كلامه على مرادك ، وما زينه الشيطان فى عينك بلا حجة ، وخالفت ظاهره ، وزدتم فى القرآن ونقصتم وبدلتم على شهواتكم ، هداكم الله للرشاد ودين الحق بمنه ولطفه .

وأما ما رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم : «أنا صاحب التنزيل وعلى صاحب التأويل» فمن أعجب الأمور ! من روى هذا عن النبى أولا من الصحابة ومن أهل البيت ؛ وأى شئ إسناده ؟ وفى أى كتاب دون ؟ وفى أى مسند كتب ؟ ومتى سمع على أمير المؤمنين عليه السلام يروى هذا ؟ أو يذكر تأويلا لا يدل عليه لفظ العرب ؟ ومتى سمع أحد من أولاده الطاهرين يروى هذا ما لا أصل له بوجه من الوجوه ؟ فثبت الغشاء ولك الفضل .

وأما كلامك فى تفسير التأويل فانى أسلمه لك تسلم جدل لأطرح لك طرحا وافرا وتقوى ثم أبين لك فساد تعلقك به ؛ أحسب أن الأمر فى التفسير كما ذكرت لكن

(ا) فى د : القرآن . — (ب) فى ك : المنامات .

---

(١) سورة آل عمران ٣/٧ . — (٢) سورة محمد ٤٧/١٥ . — (٣) سورة يوسف ١٢/٢١ .
(٤) سورة يونس ١٠/٣٩ .

من أين لك أنك إذا سلكت طريقتك ونهجت مذهبك واستمررت على عادتك كانت لك العاقبة ، به نجوت وبلزومك إياه تخلصت ، بل يقول لك مخالفك كل ما سلكته ضد ما رمته ، وخلاف ما أردته ، فهل وجدت فى هذا الكلام نفسك إلا قائلة بشهواتها مائلة إلى ما وضعتها .

وأما قولك اللفظ يقتضى التأويل فكلا ومعاذ الله ، اللفظ العربى الذى يقتضى (ا) عندهم معنى معلوما لا يحتاج معه إلى التأويل بل هو محمول على معناه الحقيقى ، وقولك والعقل يقتضيه فليس الأمر كما زعمت فان العقل لا يقتضى أن تحمل ألفاظ عربية على معان لم توضع لتلك الألفاظ ؛ يدلك على ذلك أن رجلا لو أمر غلاماً بأن يسقيه ماء فباع للآمر جارية ، استجهل وأدّب وعوقب ؛ وإن قال حملت قوله اسقنى ماء على تأويل صحيح وهو أنه أراد منى بهذا اللفظ أن أبيع له جاريته (ب) لم يقبل منه ، ولم يسقط عنه التأديب واسترك عقله ، ولا يجوز أن يختلف فى هذا العقلاء ، فكيف تعضد دعواك بالعقل ولا يدل على صحة قولك هذا العقل الناقص فكيف العقل (ج) الكامل ؟ وأما ماذكرت أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث فى حين استعلاء الألفاظ العربية وتبرج أهلها بالفصاحة والجزالة فنعم ؛ إلا أن الفصاحة والجزالة ضد ما تطلبه أنت وتدعو الناس إليه ، وأنا أضرب لكم مثلا ها هنا ، وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم ركب فرسا ، فقال وجدتها بحرا ، وهو كلام جزل فحل فصيح وجيز ، فترى أنه يجوز لقائل أن يقول إنما أراد بقوله : «وجدتها بحرا» معنى سوى السير العظم والنفس القوية والطاعة لراكبها ، حتى أنه لو أراد إنسان أن يحمل كلامه على غير هذا ما التفت إليه وعرج عليه . فاعرف الفصاحة من الشهوة ، والجزالة من الدعوة المحضة حتى لا تضل .

وأما قولك كان ظاهر القرآن ، معجزاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتحقيق معناه وتفسيره معجزا لأهل بيته ، لا يدعيه سواهم إلا كاذب ، فكلام طريف (د) ، قد ادعيت أن لك استنباطا حقا ، إليك فيه يسار ، فلم يصح لك دعواك . ثم قلت هذا الكلام الذى عظمت جنايته ، وذلك أن القرآن ظاهره وباطنه فكله معجز للنبى صلى الله عليه وسلم وقولك باطنه وتفسيره معجز لأهل بيته صلوات الله عليهم كلام غير مفهوم ففسره ؛ ثم لا يصح هذا الكلام كله من أوله إلى آخره من حيث أن أهل البيت ما فيهم من أولهم إلى آخرهم من يدعى لنفسه شيئا مما ذكرته ، بل

(ا) فى د : الذى عندهم يقتضى . — (ب) فى د : جارتيه . — (ج) فى د : العاقل .
(د) فى ك : طريف لك .

كلهم صاروا إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يدعوا تأويلا أنت القائل به ، ولا خالفوا الناس ولا أخفوا عنهم الدين دين الاسلام ، بل علموهم فى الظاهر وأمروهم بالمصير إليه ، فقد علمت أنك تحاول ما لا أصل له ، ولا يرتضيه أهل البيت ، بل يسخطونه ويمقتون قائله ومعتقده . وأما الخبر الذى رويته عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى » فصحيح وأنت عادل عنهم ناسب إليهم ما لا يعتقدونه ، تبطل ما قالوه واستعملوه فى الدين ، تتفوه بذكرهم ، وتنقض عليهم دينهم عروة عروة . وفق الله بين قولك وعملك ، وهداك إلى الرجوع إلى اعتقادهم وأقوالهم . وأما الكلام فيمن لا يفرق بين نفسه وبين الجمادات فلم يجر بينى وبينك كلام فيه ، والاشتغال به من جهته عبث ، وقد تبينت فساد كل (ا) جواب كلامك شيئاً شيئا . وجملة القول أنه تدهكم (ب) [1] فى جواب مسألتى ، وشغل المسألة بعبارات تشتمل على الهرب والدعوة وترك الانصاف ، وبدأ فيه بالجفاء ، وقد خاطبتك مرة بحرف الغيبة وأخرى بحرف المبهم إذ هذه عادة العرب العاربة ، وأنا منتظر لجواب المسألة والجواب عن (ج) هذه الأسئلة اللازمة ، والله أسأل أن يعصمنا من (د) الزلل ويهدينا إلى صواب العمل وهو بلطفه يسمع ويجيب .

رد المؤيد

(الجواب) وصل الجواب بالاعتراض الذى أجل المسامع الشريفة للموقف الأشرف الشاهنشاهى خلد الله ملكه عن أن يكون ما تضمنه من الهجو الوافر ، والسقط الكثير جرى فيها ، فلم يأمر بالمقابلة عنه بالزجر والنكير . إذ كان ذلك من أشراط المناظرات خارجاً ، ولعادات المجارات فى المسائل مبايناً ، ولقد كان التحفظ فى الامتناع عن المشافهة بها عن مثله ، والتصون عن نظيره ، ولم أدر أنه يستفتح به ، وأرشق على ظهر الغيب بسهامه . ومعلوم أن مستقرنا من قديم الدهر بشيراز هذه وأن أحداً لم يمكنه أن يدير بمثل هذا الجفاء لساناً ، أو يصرف على هذه اللدغات المؤلمة بناناً ، ففى أى الأحكام أن إنساناً سئل عن مسألة فيصدر جوابها ما يظهر فيه لأهل بيت الرسالة عليهم السلام على

(ا) سقطت فى د . — (ب) فى د: دهثم . — (ج) فى د : من . — (د) فى ك : عن .

(١) تدهكم أى اقتحم فى أمر شديد .

المهين . يا نعمان أيهما أفضل الصلاة أم الصوم ؟ فقال : الصلاة . فقال : إن الله تعالى أمر الحائض أن تقضى الصوم ولاتقضى الصلاة ، ولو كان القياس مطرداً لكان القضاء فى الصلاة ! وأيهما أطهر المنى أم البول ؟ قال : المنى . فقال الصادق : إن الله تعالى أوجب فى المنى الغسل وفى البول الوضوء ولو كان بالقياس لكان الغسل فى البول(ا) وأيهما أعظم عند الله الزنى أم قتل النفس ؟ قال : قتل النفس . قال : فان الله تعالى أوجب فى القتل شاهدين وفى الزنى أربعة ولو كان بالقياس لكان(ب) الأربعة فى القتل !. قال : فأيهما أضعف المرأة أم الرجل ؟ قال : المرأة . قال : فلمَ جُعِل لها سهم وللرجل سهمان ؟ فلو كان بالقياس كان السهمان للمرأة ! فاتق الله يا نعمان ولا تقس فاننا نقف غداً (ج) بين يدى الله تعالى فيسألنا عن قولنا ، ويسألكم عن قولكم ، فنقول نحن : قلنا ما قال الله تعالى ورسوله ، وتقول أنت وأصحابك رأينا وقسنا فيفعل الله بنا وبكم ما يشاء .

وأما الفائدة التى سقتها إلىّ واستننت بها علىّ لأزين بها حلقتى فيما يتعلق بقوله سبحانه : «وحمله وفصاله ثلاثون شهرا[1]» مما ذكرت أنه من استنباط أئمتك ، فابعث ثقة لك لنريه أنها(د) مسطرة عندنا فى كتاب يسمى «دعائم الاسلام[2]» والرواية صادرة عن علىّ عليه السلام دون من ذكرت طنزك[3] ونبزك مما يتعين الصبر عليه . وأما قولك إننا نحن أولوا الأمر ، لأننا العلماء والقدوة والفقهاء ، والنظار فى دين الله تعالى ، والذابون عنه والناصرون له ، والدامغون للباطل وحزبه والرادون

(ا) فى د : قال وأيهما . — (ب) فى د : لكانت. — (ج) سقطت فى ك .
(د) فى د : اياها .

---

(١) سورة الأحقاف ٤٦/١٥ .
(٢) كتاب «دعائم الاسلام» للقاضى أبى حنيفة النعمان بن أبى عبد الله محمد بن منصور بن أحمد ابن حيون التيمى ، والاسماعيلية لا يكنونه بأبى حنيفة خوف الالتباس بالامام أبى حنيفة النعمان صاحب المذهب المعروف ، بل يشير أتباع المذهب إليه بسيدنا القاضى النعمان والقاضى الأجل وتوفى النعمان سنة ٣٦٣ هـ فى خلافة المعز لدين الله الفاطمى بعد أن خدم المهدى ، ثم خدم القائم والمنصور ثم المعز وكتابه دعائم الاسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام فى جزأين الأول يبحث فى العبادات وأوله باب الايمان والثانى يبحث عن المعاملات ، والمقول إن المعز هو الذى أمر النعمان بتأليف هذا الكتاب لما وجد اختلافا شديدا بين الدعاة فى الفقه فأصبح هذا الكتاب أكبر مصدر فى فقه الفاطميين وعليه يعتمد الاسماعيلية إلى الآن . (راجع ما كتبناه فى التقدمة لكتاب الهمة فى آداب أتباع الأئمة) .
(٣) الطنز السخرية والنبز بالفتح فالسكون اللمز .

كلهم صاروا إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يدعوا تأويلا أنت القائل به ، ولا خالفوا الناس ولا أخفوا عنهم الدين دين الاسلام ، بل علموهم فى الظاهر وأمروهم بالمصير إليه ، فقد علمت أنك تحاول ما لا أصل له ، ولا يرتضيه أهل البيت ، بل يسخطونه ويمقتون قائله ومعتقده . وأما الخبر الذى رويته عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى » فصحيح وأنت عادل عنهم ناسب إليهم ما لا يعتقدونه ، تبطل ما قالوه واستعملوه فى الدين ، تتفوه بذكرهم ، وتنقض عليهم دينهم عروة عروة . وفق الله بين قولك وعملك ، وهداك إلى الرجوع إلى اعتقادهم وأقوالهم . وأما الكلام فيمن لا يفرق بين نفسه وبين الجمادات فلم يجر بينى وبينك كلام فيه ، والاشتغال به من جهته عبث ، وقد تبينت فساد كل (ا) جواب كلامك شيئاً شيئا . وجملة القول أنه تدهكم (ب) [1] فى جواب مسألتى ، وشغل المسألة بعبارات تشتمل على الهرب والدعوة وترك الانصاف ، وبدأ فيه بالجفاء ، وقد خاطبتك مرة بحرف الغيبة وأخرى بحرف المبهم إذ هذه عادة العرب العاربة ، وأنا منتظر لجواب المسألة والجواب عن (ج) هذه الأسئلة اللازمة ، والله أسأل أن يعصمنا من (د) الزلل ويهدينا إلى صواب العمل وهو بلطفه يسمع ويجيب .

رد المؤيد

(الجواب) وصل الجواب بالاعتراض الذى أجل المسامع الشريفة للموقف الأشرف الشاهنشاهى خلد الله ملكه عن أن يكون ما تضمنه من الهجو الوافر ، والسقط الكثير جرى فيها ، فلم يأمر بالمقابلة عنه بالزجر والنكير . إذ كان ذلك من أشراط المناظرات خارجاً ، ولعادات المجارات فى المسائل مبايناً ، ولقد كان التحفظ فى الامتناع عن المشافهة بها عن مثله ، والتصون عن نظيره ، ولم أدر أنه يستفتح به ، وأرشق على ظهر الغيب بسهامه . ومعلوم أن مستقرنا من قديم الدهر بشيراز هذه وأن أحداً لم يمكنه أن يدير بمثل هذا الجفاء لساناً ، أو يصرف على هذه اللدغات المؤلمة بناناً ، ففى أى الأحكام أن إنساناً سئل عن مسألة فيصدر جوابها ما يظهر فيه لأهل بيت الرسالة عليهم السلام على

(ا) سقطت فى د . — (ب) فى د: دهثم . — (ج) فى د : من . — (د) فى ك : عن .

---

(١) تدهكم أى اقتحم فى أمر شديد .

المهين . يا نعمان أيهما أفضل الصلاة أم الصوم ؟ فقال : الصلاة . فقال : إن الله تعالى أمر الحائض أن تقضى الصوم ولاتقضى الصلاة ، ولو كان القياس مطرداً لكان القضاء فى الصلاة ! وأيهما أطهر المنى أم البول ؟ قال : المنى . فقال الصادق : إن الله تعالى أوجب فى المنى الغسل وفى البول الوضوء ولو كان بالقياس لكان الغسل فى البول(ا) وأيهما أعظم عند الله الزنى أم قتل النفس ؟ قال : قتل النفس . قال : فان الله تعالى أوجب فى القتل شاهدين وفى الزنى أربعة ولو كان بالقياس لكان(ب) الأربعة فى القتل !. قال : فأيهما أضعف المرأة أم الرجل ؟ قال : المرأة . قال : فلم جُعِل لها سهم وللرجل سهمان ؟ فلو كان بالقياس كان السهمان للمرأة ! فاتق الله يا نعمان ولا تقس فاننا نقف غداً (ج) بين يدى الله تعالى فيسألنا عن قولنا ، ويسألكم عن قولكم ، فنقول نحن : قلنا ما قال الله تعالى ورسوله ، وتقول أنت وأصحابك رأينا وقسنا فيفعل الله بنا وبكم ما يشاء .

وأما الفائدة التى سقتها إلىّ وامتننت بها علىّ لأزين بها حلقتى فيما يتعلق بقوله سبحانه : «وحمله وفصاله ثلاثون شهرا(١)» مما ذكرت أنه من استنباط أئمتك ، فابعث ثقة لك لنريه أنها(د) مسطرة عندنا فى كتاب يسمى «دعائم الاسلام(٢)» والرواية صادرة عن علىّ عليه السلام دون من ذكرت طنزك(٣) ونبزك مما يتعين الصبر عليه . وأما قولك إننا نحن أولوا الأمر ، لأننا العلماء والقدوة والفقهاء ، والنظار فى دين الله تعالى ، والذابون عنه والناصرون له ، والدامغون للباطل وحزبه والرادون

(ا) فى د : قال وأيهما . — (ب) فى د : لكانت. — (ج) سقطت فى ك .
(د) فى د : اياها .

---

(١) سورة الأحقاف ١٥/٤٦ .
(٢) كتاب «دعائم الاسلام» للقاضى أبى حنيفة النعمان بن أبى عبد الله محمد بن منصور بن أحمد ابن حيون التميمى ، والاسماعيلية لا يكنونه بأبى حنيفة خوف الالتباس بالامام أبى حنيفة النعمان صاحب المذهب المعروف ، بل يشير أتباع المذهب إليه بسيدنا القاضى النعمان والقاضى الأجل وتوفى النعمان سنة ٣٦٣ ﻫ فى خلافة المعز لدين الله الفاطمى بعد أن خدم المهدى ، ثم خدم القائم والمنصور ثم المعز وكتابه دعائم الاسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام فى جزأين الأول يبحث فى العبادات وأوله باب الايمان والثانى يبحث عن المعاملات ، والقول إن المعز هو الذى أمر النعمان بتأليف هذا الكتاب لما وجد اختلافا شديدا بين الدعاة فى الفقه فأصبح هذا الكتاب أكبر مصدر فى فقه الفاطميين وعليه يعتمد الاسماعيلية إلى الآن . (راجع ما كتبناه فى التقدمة لكتاب الهمة فى آداب أتباع الأئمة) .
(٣) الطنز السخرية والنبز بالفتح فالسكون اللمز .

على الزائفين ، فقد عرفت ذلك ولقد حقق فى نفسى صدق قولك بكونك من أولى الأمر تسلطك هذا وتنشطك (ا) فى استماع السوء ، وضراوتك على ثلب الناس والنقيصة فيهم ، وحجتك فى هذا المعنى قوية والمسألة لك مسلمة ، بعد أن كان مأثوراً عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن قول الله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم[1]» فقال : إيانا عنى به ونحن أولوا الأمر وطاعتنا مفروضة . وإنما هذه ثلاث طاعات خارجةمخرج الاطلاق والعموم ،ولم تتعقب واحدة منها بتقييد ولا خصوص ، فطاعة الله سبحانه عامة لجميع الخلائق وكمثلها طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وينبغى أن تكون طاعة أولى الأمر مثلهما عامة وعلى مثالها (ب) جارية . ثم إن طاعة الله ممتنعة إلا بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكمثلها تمتنع طاعة الرسول إلا بطاعة الأئمة من ذريته (عليهم السلام) ليكون الجميع على نسق واحد جارياً وبعضه لبعض موازياً ، وإن كان بنو علىّ من الحسن والحسين ، وزين العابدين ، والباقر ، والصادق ، ومن نسلوا (عليهم السلام) قد نزعوا عن هذه الفضيلة ، وسقط فى طاعتهم ما أكد الله من الفريضة ، فلأن يكون شاهنشاه المعظم حرس الله ملكه متوجاً بتاجها متبرجاً (ج) بزينتها خيرا من أن تكون أيها الشيخ المترشح لها والمتوسم بها ، فبالله لاتنافسه فى ذلك . وأما قولك إننى نفيت الاستنباط ثم أوجبت لنفسى مثله ، فمتى قلت ذلك وادعيته ؟ لم أدعيه إلا لأهله الذين أوجب الله لهم أن يستنبطوا انتزاعا من القرآن على مثال(د) تركيب الأنفس وتقدير الآفاق ، حتى إذا اعتبرت المسألة من منتزعاتهم وجدت السموات والأرض بها شاهدة ،ولفضائلها مؤكدة ، فان كانت منتزعات أبى حنيفة التى هى مائة ألف مسألة على هذه الصيغة فى شهادة التركيب لها لم يكن عليها مزيد ، وإن كانت مؤسسة على شفا جرف الشبهة ، إذن ليس هو من رجال الاستنباط والانتزاع .

وأما ما كررته من ذكر سؤالك عن تصحيح ما أدعيه من معانى القرآن لايدل عليها اللفظ العربى وإفضاؤك إلى التكرمات التى كلامك مشحون منها ، مما يصدر من مثلك مثلها ، فقد عرفته ووددت أن لايعرى فصل واحد منها ، وليس يكاد يتفق والقول فى جواب السؤال ؛ اننى أسألك هل كان فى معتادات العرب الصلاة التى هى القيام والركوع والسجود ؟ وهل عرفوا فيها إلا السابق والمصلى ؟ فلو وكل الأعرابى إلى استدراج ذلك بفطنته أكان يجد من

(ا) فى د : تبسطك . — (ب) فى د : مثالها . — (ج) فى د : متبهرجا . — (د) سقطت فى ك .

---

(١) سورة النساء ٤/٥٩ .

فصاحته فى معرفة الصلاة ردءا ؟ أم هل عرفوا فى الصوم غير الوقوف ؟ فلو خلى بينهم وبين فصاحتهم أكانوا يبلغون فيه غرضاً مؤديا ! أم هل عرفوا من الزكاة غير الزيادة فهل كانوا يبلغون بأحلامهم لو تركوا فيها غرضا ؟ وكذلك السنة والشريعة والنبى والامام . ثم أن الله تعالى يقول : «إنما المشركون نجس[١]» من أين يتمعنى للفصيح من الأعراب هذا القول ؟ أليس مأثورا عن النبى صلى الله عليه وسلم : «إياكم وخضراء الدمن» أين هذا مما يبلغه فطنة العرب أنه المرأة الحسناء فى منبت السوء . أليس الله تعالى يقول : «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا[٢]» فشبه الماء بالوحى ، وما خص به الأنبياء عليهم السلام . أليس النبى يقول : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جانبى الصراط سور وعلى السور أبواب مفتحة عليها ستور مرخاة ، وعلى جانبى الصراط داع يدعو أن ادخلوا الجنة ولا تعرجوا » فشبه ذلك بالاسلام وبحدود الله ومحارم الله تعالى . وأمثال ذلك كثيرة مع الانصاف يجزى عشرها .

وأما قول الله تعالى : «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم[٣]» مما احتججت (ا) به فى وجوب تأويل الكتاب واثباتك إياه بعد أن سودت الطوامير فى دفعه وإنكاره والمطالبة باثباته ووافق(ب) الأمر فيه على الخلاف هل هو فى أيدينا أم فى أيديكم ، فقد عرفته ، والحمد لله الذى ردك إلى الواجب وأفضى بك بعد الجحود إلى الاقرار ، وقولك إنكم — تعنينا به — عنه عادلون وبشهواتكم قائلون ، فأنت فى حل . ونسبك إلينا أننا نحمل معنى قوله : « أنهار من ماء غير آسن[٤]» وغير ذلك على أنهم قوم بأعيانهم فقد وجدتك فى معرفة مذهب مخالفك غير ماهر ، وقبيح بك(ج) القطع على مالا تعرفه .

وأما تقسيمك الآية : «ولنعلمه من تأويل الأحاديث[٥]» على أنه الرؤيا فقد أثبتت الآن التأويل ولا جحود بعد إقرار ، ولو ثبت على آية واحدة وتكلمت عليها لتبين لكل منا مقداره ، ولكنك تقتصر على السب والثلب والقصص والحكايات ، وما يضيع الوقت فيما يصرف إلى كتب جوابه ، وأما ما استدللت به من قول الله تعالى : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله[٦]» وما سردته فى جوابه من الشتيمة المستمرة المطردة أنك فعلت

(ا) فى د : احتجبت وفى ك : احتجت . — (ب) فى د : وأوقف . — (ج) فى ك : لك .

---

(١) سورة التوبة ٢٨/٩ . — (٢) سورة الرعد ١٧/١٣ . — (٣) سورة آل عمران ٧/٣ .
(٤) سورة محمد ١٥/٤٧ . — (٥) سورة يوسف ٢١/١٢ . — (٦) سورة يونس ٣٩/١٠ .

وصنعت وزين الشيطان فى عينك ، فلا أدرى من أين حصلت لك هذه الحجج القاطعة والبراهين اللامعة . وأما إنكارك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى علىّ : «إنك صاحب التأويل» . فانكره ولا شئ عليك ، ولئن انكرت أن عليًّا صاحبه فلقد أوردت الآن(ا) أن ها هنا تأويلا ، فمن صاحبه ؟ أفدنا مأجورا . فلئن كنت وأبناء جنسك أصحابه على سنتكم فى الدعوى أنكم أولوا الأمر فاعلمنا ذلك . وأما ما رددته علىّ من القول فى كون التأويل علم العاقبة الذى به ينجى فاننى لا أنكر على مخالفى إذ قال إن الذى نتمسك به هو ضد ذلك مما ينجى به ، فقد سبق القول إن الذى يتمسك به للنجاة ويتحقق أنه علم العاقبة ما كان شاهدا بصحته الآفاق والأنفس ، أو لا يكفى من البيان ما تشهد به الأيدى والأرجل كما قال الله عز وجل: «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (١)». فما بعدقيام هذه الشهادات فى معارف علم العقبى بشئ وماذا بعد الحق إلا الضلال . وأما قولك إن اللفظ العربى لا يقتضى تأويلا فانه محمول على معناه المقصود (ب) منذ تقدم الذكر فى حديث الصلاة والزكاة ونجاسة الشرك وما يجرى هذا المجرى ، وأنه لو خلى بين العرب وبين ذلك كله فلم يكشف لهم فيه الغطاء ولكان الجهل يغشاهم والوقوف دون الغرض فيه قصراهم . وأما تمثيلك فيه بمن أمر غلامه أن يسقيه ماء فباع جاريته فما أحسنه من مثل ، هلا تمثلت بقول النبى صلى الله عليه وسلم: «لا ينقص مال من صدقة بل يزيد» . وهلا اعتبرت المائتين إذا أخذت منها خمسة يزيد (ج) ذلك أم ينقص وهل ذلك شئ إذا اعتبره أعرابى(د) بفصاحته استبان له وجه الغرض ؟ وهلا اعتبرت (ه) قوله سبحانه « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين (٢)» ومن تتصرف هذه الاشارات إليه ألقى فى التراب مفرقا بين رأسه وجسده وهو نصب عينيك تراه ميتا مطروحا فكيف تعده حيًّا مرزوقا ، وكيف تقول إنه عند ربه وهو عندك بأسوء حاله . أين يحوم (و) الأعرابى حول هذا ؟ وبأى مثابة هو من مبلغ فهمه . وهلا اعتبرت قوله سبحانه أيضا : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم (٣) » فكنى عن الأحياء بالأموات ها هنا وعن الأموات بالأحياء هناك ، فما تصنع العرب ها هنا ؟ على أن الخلاف معك زال

(ا) سقطت فى د . — (ب) فى د : المتصور . — (ج) فى د : انه يزيد .
(د) فى د : الاعرابى . — (ه) فى د : اعتبرت فى قوله . — (و) فى د : يحول .

---

(١) سورة النور ٢٤/٢٤ . — (٢) سورة آل عمران ١٦٩/٣ . — (٣) الأنفال ٢٤/٨ .

فى إثبات التأويل فقد ردك الله فيه إلى الواجب فأقررت بثبوته بعد ما أمعنت فى دفعه وإنكاره . وأما تهجينك لقولى إن معنى القرآن معجزة لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يملك مفاتيح أقفاله غيرهم ولا يدعى قدم الصدق فيه سواهم ، فيا سبحان الله أيجوز لك أن تدعى أنك من أولى الأمر وتنكر أن يكون بنو على أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا أهلا لهذه الفضيلة ؟ ما أظلمك لمحمد صلى الله عليه وسلم فى أهل بيته ، فتفضل وسقهم فى هذه المزية مساق نفسك وسو (ا) بينهم وبين أبناء جنسك ، ما هذا الانكار العظيم والامتعاض الكثير . وأما قولك إنى مخالف لأهل البيت وفاعل وصانع فجميع ذلك معتاد من برك وفضلك ، وفى كل ساعة يتجدد لدى عرفك وإحسانك ، وقولك إنهم ماخالفوا الناس ولا كاتموهم دينهم فالله تعالى بايع وعاهد وبه أمر فاعتبر القرآن تجد موجبات العهد فيه والبيعة كثيرا « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا[(١)] » والله تعالى قسم ما خلق قسمين : ظاهرا جليا كالدنيا وكأجسادنا ، وباطنا خفيا كالآخرة وأرواحنا ، فسله لم فعل كذلك ! وسل النبى صلى الله عليه وسلم لِمَ قسم شريعته هذا التقسيم ؟ فان خصومتك فى ذلك كله معهما وعندك انك إذا قرأت « بسم الله الرحمن الرحيم » فقد قتلته علماً ، وأحطت بما فيه خبراً ولو لم تشتغل بهذه الترهات ، وكنت تدع رجلك على معنى آية حتى كنا نتكلم فيها ، لعرفت هل يصح لك فيها معلوم أم لا . وإن شئت جعلنا بسم الله الرحمن الرحيم قاعدة الكلام ، فأورد ما تعرفه فيه (ب) لتخاطب عليه . وهبك تتصور فى نفسك أنك بقدر بضاعتك فى العربية ذلت قطوف معانى القرآن لك ، فصرت من أولى الأمر المفترضى الطاعة ما الذى عرفته فى « كهيعص[(٢)] » و « حمعسق[(٣)] » وأشباههما أما تعلم أن ذلك ليس بعبث ، وأنه يحتاج إلى معنى محقق فان كان ذلك مما لا يعرف معناه بوجه فهل كان إيراده إلا عبثا يجب أن ترجع إلى معهود نفسك ولا تمد رجلك فوق قدرك وتكف عنان سبك وثلبك فانه أولى . وأما الكلام فيمن لا يفرق بين نفسه وبين الجماد وقولك إنه ما دار بينى وبينك خطب فيه ، فكان سهمى فى ذلك تجاوزك ، وما نال منك نيله من غيرك أو كأنك(ج) اهتديت فيه لما ضل عنه سواك ، ولو كانت نصفة لما عكستم المسألة على ، وأنتم فيما تقدم من سؤالى مأخوذون بالنواصى والاقدام . جعلنا الله ممن يعرفون

(ا) فى د : وشد . — (ب) سقطت فى ك . — (ج) فى ك : وكأنه .

---

(١) سورة الأحزاب ٧/٣٣ . — (٢) سورة مريم ١/١٩ . — (٣) سورة الشورى ١/٤٢ .

مقادير نفوسهم فما هلك امرئ عرف قدره . والسلام والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبى المصطفى محمد وعترته الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

مناظرة الخراسانى

جواب الخراسانى عما سئل عنه من معنى قول الله عز وجل : «ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب[١]» والغرض فى السؤال أن يفرق بين الناس وبينها إذا كان السجود يعم الكافة :

« بسم الله الرحمن الرحيم » قال الله تعالى فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم : « ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى[٢] » أعلمنا أنه لا يتكلم إلا عن وحى ، وقال تبارك وتعالى «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا[٣]» أمرنا تبارك وتعالى بأن ننتهى عما ينهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال تعالى فى سورة النساء : « من يطع الرسول فقد أطاع الله[٤] » وقرن طاعته بطاعته إذ كان لا يأمر العباد إلا بالحق ، كذلك كان لا ينهى إلا عن ما يجب الانتهاء عنه ، فيلزم كل مسلم أن لا يتعدى حدود الله تعالى ، فقد قال الله تعالى عز من قائل : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين[٥]» وقد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة[٦]» وابتغاء الوسيلة متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم عند أكثر المفسرين ، فعلينا أن نتبع سنته ونسلك طريقته ، وننتهى عما نهانا عنه . قال صلى الله عليه وسلم : « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وحدثنا بهذا الحديث القاضى أبو حامد بن أحمد بن أبى اسحق (ا) الابنورذى قال : أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن غلينمه (ب) قال أخبرنا أبو بكر الشافعى قال حدثنا محمد بن سليمان الحرث الواسطى : قال حدثنا أبو نعيم الفضل

(ا) فى نسخة ك : أبو حامد أحمد بن أبى أحمد بن اسحق الأبيوزدى .
(ب) فى نسخة د : أبو بكر محمد بن أحمد بن على خان .

---

(١) سورة الحج ١٨/٢٢ . — (٢) سورة النجم ٢/٥٣ و ٣ و ٤ و ٥ .
(٣) سورة الحشر ٧/٥٩ . — (٤) سورة النساء ٨٠/٤ .
(٥) سورة النساء ١٤/٤ . — (٦) سورة المائدة ٣٥/٥ .

ابن دكين (ا) قال : حدثنا عيسى بن طهمان(ب) الجشمي قال : سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار[1]» . وفى تفسير النقاش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «اتقوا الحديث إلا ما علمتم فانه من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومن كذب فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» . وعن أبى صالح عن ابن عباس قال : «من فسر القرآن بالرأى فأصاب لم يؤجر وإن أخطأ دخل النار[2] » وفيه عن سعيد بن جبير عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من فسر القرآن برأيه فأصاب كتبت (ج) عليه خطيئة لو قسمت بين العباد لوسعتهم ، فان أخطأ فليتبوأ مقعده من النار » . وعن الحسن عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من فسر القرآن على رأيه فأصاب لم يؤجر وإن أخطأ محا الله النور عن قلبه » وهذا خبر مشهور لا طعن عليه رواه الثقات عن النبى صلى الله عليه وسلم سئل أبو بكر وعمر عن قوله تعالى « وفاكهة وأبا[3]» فقالا لا علم لنا أى سماء تظلنا وأى أرض تقلنا إذا قلنا فى كتاب الله تعالى بما لا نعلم[4]» وعن مسروق قال : قال على بن أبى طالب عليه السلام وابردها على الكبد إذا سئل عما لا يعلم أن يقال الله أعلم . ثم قال علىّ عليه السلام : أىُّ أرض تسعنى وأىُّ سماء تظلنى إذا قلت على الله ورسوله ما لا أعلم » . ثم قال على عليه السلام : كلام العرب كالميزان الذى يعرف به الزيادة والنقصان ،وهو أعذب من الماء وأرق من الهواء، إن فسرته بذاته استصعب

(ا) فى ك و د : بو أنعيم الفضل بن زكريا والتصحيح عن تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٢٧٠ .
(ب) فى ك : طها . — (ج) ك : كتب .

---

(١) رواية الترمذى عن ابن عباس عن النبى قال : اتقوا الحديث على إلا ما علمتم فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار .

(٢) فى مسند ابى داود عن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» . وزاد رزين «ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر » . وقيل إنه حديث غريب . [تفسير القرطبى ج ١ ص ٣٢]

(٣) سورة عبس ٣١/٨٠ .

(٤) عن ابن أبى مليكه قال : سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى تفسير حرف من القرآن فقال : «أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى وأين أذهب وكيف أصنع إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى» [تفسير القرطبى ج ١ ص ٣٤].

وإن فسرته بغير معناه استحال ؛ فليس يجوز لأحد أن يتكلم فى القرآن برأيه وإن كان عارفاً باللغة ، ولو كان علم القرآن يدرك باللغة دون التنزيل والمراد لم يكن فى العالم أحد أعلم به من الأعرابى ، والجلى والخفى له أصل فى القرآن : إما منصوص إليه أو مدلول عليه بعقل لأن علم القرآن أصل المصلحة وقطب المنفعة . وعن ابن عباس قال : تفسير القرآن على أربعة أوجه : تفسير يعرفه العلماء ، وتفسير يعرفه العرب ، وتفسير لا يعذر بجهالته أحد وهو الحلال والحرام ، وتفسيرلايعلم تأويله إلاالله ، من ادعى علمه فهو كذاب . قال الله تعالى : «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا(١)» قال أبو العالية : الحكمة الفهم فى القرآن وقال غيره تفسير القرآن . ورحل مسروق فى آية إلى البصرة فسئل عن الذى يفسرها فأخبر أنه بالشام ، فقدم الكوفة فتجهز به ثم وصل إلى الشام حتى سأل عنها ابن عباس قال : « إن هذا القرآن ذو شجون وفنون لاتنقضى عجائبه فمن أوغل فيه بأثر نجا — ويروى من أوغل فيه برفق نجا — ومن أوغل فيه بعنف أو قال برأيه هوى ، أخبار وأمثال ، وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه ، وظهور وبطون ، وظاهره التلاوة وباطنه التأويل فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء» . قال أبو سعيد المروزى : فمن تكلم فى القرآن من حيث النقل فهو من العلماء ، ومن تكلم من حيث الرأى فهو من السفهاء .

(فصل) أبو الأحوص عن عبد الله بن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن ، ولكل حد مطلع . والشيخ الزاهد أحمد بن سنان قال : المعنى فى قوله ظهر وبطن يريد ظاهراً وباطناً ، فالظاهر ما يعرفه العلماء ، والباطن ما يخفى عليهم ، فنقول فى ذلك كما أمرنا ، ونكل ما لا نعلمه إلى الله عز اسمه . وقال غيره : هو أن يؤمن به ظاهراً وباطناً ، ويقال ظهر وبطن فرائضه وأحكامه ومطلعه ثوابه وعقابه وقال أبو عمر(ا) لكل حد مطلع أى مأتى منه . وليس لهذا الكلام مطلع غير ما قلت يريد وجهه ، وفيه أقوال كثيرة وأحسنها عندى قول من قال الظهر لفظ القرآن والبطن تأويله لأن فى القرآن أشياء لا تعرف إلا بالتفسير ، وحدودا لا تفهم إلا بالتوفيق (ب) فاللفظ ظاهر وما أراد الله باطن يحتاج(ج) من أراد علمه إلى الفحص عنه لغة ونقلا والله الموفق ، ومن سألنى عن معنى قوله تعالى :

(ا) كذا فى ك و د ولعل الصواب ابن عمر . — (ب) فى ك : التوقيف .
(ج) فى د : ما يحتاج .

---

(١) سورة البقرة ٢/٢٦٩ .

«ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب[١]» فأنا أتكلم فى معنى الآية على ما تكلم فيه السلف لغة ونقلا ، فمن رام منى غير ذلك فقد تعدى وأساء ، ويجب أن يبين هو ما عنده ، كما أبين أنا ما عندى ، ثم يتأمل فى التفاسير فإن كان ما قلته وبينته موافقاً لأقاويل المفسرين فأنا على الصواب ويلزمه ترك ما تعلق به من الشبهة ، فان كان ما قاله موافقاً لأقاويلهم دون ما قلته رجعت أنا حينئذ عن قولى فيظهر للناس الحق من الباطل والصواب من الخطأ ، فأما من يضرب الطبل تحت الكساء ويتبع الهوى ويروم منى أو من غيرى الاعتماد على الخطأ كان قوله « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » .

أما الكلام فى الآية من حيث اللغة فان السجود فى كلام العرب هو الخضوع والانقياد لأمر الآمر ، ومن لا يمتنع من أمر الآمر فقد انقاد له ، ويقال كان سجود الملائكة لآدم عليه السلام إيماء ولم يضعوا وجوههم بالأرض ، ولا ينبغى لأحد أن يضع جبهته بالأرض إلا لله تعالى ، ويقال كان سجودهم له خضوعاً وإقراراً بفضله لما أنبأهم بالأسماء التى علمه الله تعالى ، فيجوز أن يكون السجود بمعنى الانحناء والخضوع . وأما السجود بمعنى الاقرار بالفضل فهو قوله تعالى : « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا[٢]» ولم يكونوا سجدوا له لكن أقروا بفضله من حيث أنهم أساءوا إليه وأحسن إليهم وهو معنى قوله تعالى : «تالله لقد آثرك الله علينا[٣]» ويجوز أن يكون آدم كالقبلة وكما أنا أمرنا أن نسجد نحو الكعبة كذلك أمروا أن يسجدوا لله وآدم لهم كالقبلة ؛ وإنما قررت معانى السجود هاهنا لئلا يطول الكلام عند الآية التى سئلت عن معناها .

أما الكلام فى قوله تبارك وتعالى «ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب» . فقوله تعالى : «ألم تر» يقول ألم تخبر يا محمد فى الكتاب فتعلم أن الله يسجد له يقول يصلى له وينقاد لأمره من فى السموات من الخلق(ا) ومن فى الأرض من الملائكة والجن الذين لاترون سجودهم ؛ فأما من اعترض علىّ فقال لم يعهد فى مكان أن «ألم تعلم» ناب مناب «ألم تر» وأنه إن جاز ذلك جاز أن يقوم ألم تر أيضاً مقامه فى كل موضع مما ليس

(ا) فى د : خلق .

(١) سورة الحج ١٨/٢٢ . — (٢) سورة يوسف ١٠٠/١٢ . — (٣) سورة يوسف ٩١/١٢ .

بينه وبين الرؤية مناسبة ، فهذا كلام رجل ليس يعرف أن العرب تضع العلم مكان الرؤية وتضع الرؤية مكان العلم ؛ أما العلم مكان الرؤية فمثل قوله تعالى : «ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون « إلى قوله » فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين[١]» هاهنا العلم بمعنى الرؤية إجماعاً ، وذاك أن الله تعالى علم قبل أن يفتنهم الصادق من الكاذب ، وليس يجوز أنه يقال أن يجدد له علم بعد أن اختبرهم ، بل علم بسابق علمه مايكون منهم ، فلما ظهر ما كان (فى اللوح)(ا) من معلومه رآه كما علمه ، وكذلك الملائكة رأوا ذلك حسب ما كان مكتوباً فى اللوح فهذا (ب) هو الفرق بين المعلوم والمرئى ، فان البارى عالم بالموجود والمعدوم ، وإذا وجد (ج) المعدوم أدركه على ما هو . وأما الرؤية بمعنى العلم فكقوله تعالى : «ألم تر كيف فعل ربك بعاد[٢]» فليس يصح حمل هذه الرؤية بمعنى النظر إلى الشئ ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم ما نظر إلى قوم عاد بل علم بخبر صادق أن الله تعالى أهلكهم فقد دل دليل العقل على أن الرؤية ها هنا ليس بمعنى النظر فمعنى قوله «ألم تر» ألم تخبر ، ألم تعلم ، وفى مثل هذا يرجع إلى أهل اللغة ولا منازعة فيها بل الأمر فيه موكول إلى أهلها .

وأما قوله: «والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب» ، ومثل ذلك قوله : «إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق[٣]» سئل على عليه السلام عن تسبيح الجبال فقال : والله ربنا (د) قادر أن يصنع ذلك وأنا أومن» وقد صح أن ركانة[٤] سأل النبى صلى الله عليه وسلم معجزة فقال : وما تريد ؟ فقال : أريد أن تشهد تلك الشجرة لك بالنبوة ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتيها ويستدعيها والقصة معروفة . وتسبيح الحصى فى يد النبى صلى الله عليه وسلم أشهر من الشمس حتى قال علىّ عليه السلام يسبح فى يديه الحصى وشهد على نبوته . وأقام دلالات لا تحصى ، ومن أنكر هذا فقد أنكر القدرة ودفع المعجزة ، ومنه كلام الذئب وكلام الضب وتسبيح الحصى واتيان

(ا) سقطت فى د . — (ب) فى د : وهذا . — (ج) فى ك : اوجد .
(د) ك : ربنا والله .

---

(١) سورة العنكبوت ٢٩/١ و ٣ . — (٢) سورة الفجر ٨٩/٦ . — (٣) سورة ص ٣٨/١٨ .
(٤) فى الأصل (أبا زكان) وركانة هو ابن عبد يزيد المطلبى الصحابى الذى صارعه النبى صلى الله عليه وسلم فصرعه النبى ، وله حديثان فى أبى داود والترمذى وابن ماجه . أما حديث معجزة الشجرة فقد وردت فى الشفاء للقاضى عياض على أوجه متعددة ولم يرد فيها ذكر اسم الأعرابى الذى طلب من النبى هذه الآية .

الشجرة مع ركانة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بينت أقوال المفسرين فيه وأن الحسن (ا) أشار إلى ما أشار إليه على عليه السلام فقال : الله أعلم بكيفية سجود الجمادات . وقد ذكرت أن سجود الجمادات قد قيل إنه بمعنى أنها لا تمتنع من إرادة الله تعالى فيها ، وليس يكون هذا السجود التكليف الذى يأتى من الحى الناطق ، ويثبت أيضاً أنه يجوز أن يكون معنى السجود من الجمادات على معنى أن من نظر فى الجمادات أداه صحة النظر إلى الاقرار بالوحدانية وذلك أن آثار الصانع (ب) فيها ظاهرة فهى تدل على الله سبحانه فهى كالساجدة له من حيث دلت عليه ، فدلالتها عليه سجودها له ، وهذا مثل قوله تبارك وتعالى : «وإن من شئ إلا يسبح بحمده[١]» يقول ألا يدل على حمده وتوحيده وتبريته من السوء وتنزيهه عنه ، والدلالة على صحة ماقلت أن السجود المتعارف لا يرى من هذه الجمادات ، والكذب فى قول الله تعالى مستحيل ، فيجب أن يحمل السجود على الدلالة . والشاعر يقول :

ففى كل شئ له آية   تدل على أنه واحد

فتلك الآية التى عناها هذا القائل عبر الله عنها تارة بالسجود وتارة بالتسبيح .

وأيضاً فان قوله تعالى «ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض[٢]» . إلى آخر الآية خبر عام وإذا حمل على غير ما قلته أدى إلى أن يكون مخبره بخلاف خبره تعالى الله عن ذلك ، لأن من لايثبت البارى كيف يسجد له . والدليل على ما قلت قوله تعالى فى آخر الآية : «وكثير حق عليه العذاب» فبين أنه وإن حق عليه العذاب فدلالة التوحيد فى نفسه ظاهرة ،و«كثير من الناس» يعنى أهل الجنة «وكثير حق عليه العذاب» يقول وجب عليه العذاب فى النار ويقال : ويسجد كثير من الناس يعنى المؤمنين ويسجد كثير حق عليه العذاب من كفار الانس والجن وسجودهم فى ظلهم وهو معنى قوله تعالى : «ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال» يعنى غدوة وعشية ، فظل الكافر بالغدو عن يمينه يسجد ، وعند العشى يكون ظله عن شماله . ويجوز أن يكون السجود ها هنا التسخير وكذلك قوله تعالى : « والنجم والشجر يسجدان [٣]» وإذا كان كذلك فان قلت : ألم أقل : أليس الله أمر الشمس أن تسير من المشرق إلى المغرب

(ا) فى ك : الحسين . — (ب) فى د : الصنع .

(١) سورة الاسراء ٤٤/١٧ . — (٢) سورة الحج ١٨/٢٢ . — (٣) سورة الرحمن ٦/٥٥ .

فى منازل معلومة ؟ فتقول بل هى تسير كما أمر الله تعالى ؛ فنقول هذا سجودها إذ السجود هو الطاعة ، وكذلك القمر والشجر أمرها باخراج الثمار ، والجبال أمرها بامساك الأرض (وذلك سجودها) (ا) والدواب أمرها أن تحمل أثقال الخلق وسخرها لذلك(ب) وهى تفعل ما أمرها الله تعالى وتطيعه فى ذلك فطاعتها لربها سجودها له والله أعلم .

وأما الكلام فيما تقول فى السجود فى كل ساعة من كل جنس من الحيوانات فهو فيما روى عن عبد الواحد بن أحمد بن أبى القاسم(ج) على سبيل الاجازة عن أبى محمد حاتم بن يعقوب عن أبى العباس محمد بن الحسين بن جعفر بن جابر بن عبد الله بن فرجة عن مالك بن سليمان وهو أبو عبد الرحمن السعيدى قال حدثنا رجاء بن مالك عن يزيد عن سعيد عن قتادة فى قوله: «ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها[1]» أما المؤمن فيسجد طائعاً وأما الكافر فيسجد كارها . قال(د) أبو العباس : حدثنا رجاء بن مالك عن ابراهيم بن محمد عن ربيعة ابن عثمان التيمى عن حبى بنت رجاء بن مالك قالت : قلت لأبى هريرة : أسمع ليلتى نقيقاً قال ذلك تسبيح الجدار . عن رجاء بن مالك عن الهياج عن اسماعيل بن أبى خالد عن قيس ابن أبى حازم قال كتب سلمان (ه) بن أبى سليمان إلى أبى الدرداء بأنه سبحت القصعة بينى وبينك. عن ليث عن مجاهد أنه سمع صرير الباب فقال هذا تسبيحه . وقال الأعمش : ميل الظل تسبيحه . عن عكرمة قال للرجل (و) قميصك هذا يسبح . وبلغنا عن ابن مسعود أنه قال : لينظر أحدكم لا يلقى الله وقميصه أكثر تسبيحاً منه . وعن أبى أخفش الأحوص أنه قال : الفأرة تسبح . وفى تفسير مالك بن سليمان وقد ذكرت إسناده أن محمد بن اسحق[2]

(ا) سقطت فى د . — (ب) فى د : كذلك .
(ج) فى د : ابن أحمد أبى القاسم . — (د) سقطت فى د .
(ه) فى ك : كتب ملك بن سليمان والتصحيح عن خلاصة تذهيب تهذيب الكمال للخزرجى .
(و) فى د : رجل .

---

(١) سورة الرعد ١٣/١٥ .
(٢) رجال الاسناد الذين أشار إليهم لم ترد فى كتب الطبقات ، وكذلك لم أجد ذكراً لأكثر هذه الأسماء التى وردت فى هذه الصفحة فى المراجع العامة ، ثم نلاحظ هذا الاضطراب الظاهر فى تسلسل رواياتهم فمثلا نرى رجاء بن مالك يروى عن يزيد عن سعيد عن قتادة التابعى المعروف ، وفى الوقت نفسه نرى رجاء بن مالك يروى عن ابراهيم بن محمد عن ربيعة بن عثمان التيمى (وربيعة هذا هو حفيد ربيعة الرأى التابعى المعروف) وجعل ربيعة بن عثمان يروى عن حبى بنت رجاء بن مالك الذى جعلها تعاصر أبى هريرة الصحابى المعروف ، فكيف نوفق بين ذلك ؟ =

قال عن بعض أهل العلم فى قوله : « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ... الخ » الآية . قال لما حضر آدم الوفاة دعى ابنه شيثا فعهد إليه عهده وعلمه ساعات الليل والنهار وأنبأه كيف هى ، فالساعة الأولى من النهار حين يسجد بنو آدم من الضحى ، والساعة الثانية صلاة الملائكة ، والساعة الثالثة صلاة الطير ، والساعة الرابعة صلاة الهوام ، والساعة الخامسة صلاة الحيوان ، والساعة السادسة صلاة المقربين وذلك حين يستغفرون لبنى آدم ، والساعة السابعة حين تبرز الملائكة من الحجب ، والساعة الثامنة صلاة السموات والأرضين ، والساعة التاسعة صلاة الذين حول العرش ، والساعة العاشرة حين ينزل الريح على الماء وتنفر الجن من حول الماء ولولا ذلك لأفسدت الشياطين الماء على بنى آدم ، والساعة الاحدى عشرة حين يعرج (ا) أرواح النبيين والصديقين إلى الله ، والساعة الاثنتا عشرة عند غروب الشمس وهى زكاة عند الرحمن ، والأولى من الليل صلاة الجن ولذلك لا تضر واحداً من بنى آدم حين يقضون صلاتهم ، والساعة الثانية صلاة دواب البحر ، والساعة الثالثة صلاة من تحت الأرض من الخلق ، والساعة الرابعة صلاة الصابرين ، والساعة الخامسة صلاة الذين فوق السماء من الخلق كلهم ، والساعة السابعة صلاة الغمام ، والسابعة حين تثقل العين وتهدأ الخلق كلهم ، والساعة الثامنة صلاة البحر (ب) والشجر ، والساعة التاسعة صلاة الملائكة الذين هم فى السماء ، والعاشرة حين تفتح أبواب السماء وتضع الملائكة أجنحتها وتصيح الدجاج فى الأرض وحينئذ من سأل الرحمن شيئاً أتاه ، والاحدى عشرة حين يخرج ما فى الأرض أهلها ، والاثنى عشرة عند صلاة الصبح ، فتلك ساعات الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ؛ وكذلك كنت أسمع وأبصر يا بنى وأنا فى الجنة من قبل أن أخطئ فلما أخطأت لم أسمع صلاة الملائكة وكانوا يستعجلون بالتسبيح إلى ربهم ، وقد كنت أسمع وأنا فى الجنة ذلك . فلما كتب الوصية مات رحمه الله ، وقال الحسن تحريك الديك جناحه ركوعه وسجوده . قال ابن عباس : لم يخلق الله طيراً إلا وهو يركع ويسجد والكافر يسجد ظله وميل الظل سجوده وعن يزيد بن مرثد (ج) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يصاد من الحيتان

(ا) فى د : زيادة إلى السماء . — (ب) سقطت فى ك . — (ج) فى د : مؤيد .

= ثم ما معنى قوله : كتب سليمان بن أبى سليمان إلى أبى الدرداء بأنه سبحت القصعة بينى وبينك ! كل هذا يجعلنى أشك فى صحة هذه الروايات ، وأخشى أن يكون المؤيد فى الدين قد وضع هذه الروايات من عنده ، أو أن يكون اخترع هذه المناظرة وحشاها بمثل هذه الترهات ليضعفها فتظهر مقدرته وكفايته هو .

إلا بما يضيع من التسبيح » . وبلغنا عن عمر بن الخطاب أنه أتى بأسد فقال : لولا ما ضيعت من تسبيح الله ما أخذت فتب . فخلى عنه سبيله . وأتى أبو بكر بغراب واقر الجناحين والذنب فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ما صيد من مصيدة ولا قطعت من وشيجة إلا بما يضيع من تسبيح الله فخلى سبيله» . عن عطاء بن دينار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تتخذوا ظهور الدواب كراسى لأحاديثكم فرب راكب مركوبه هو خير منه وأطوع وأكثر ذكرا» . هذا الفصل من حيث النقل سمعناه فى تفسير مالك بن سليمان وفيه غنية ومن أراد أن يتكلم فى الآية ويظهر خلاف ما فى التفسير فليس يقبل قوله إلا ببرهان جلى وحجة بالغة والسلام وله الحمد والمنة .

جواب المؤيد

بسم الله الرحمن الرحيم : وقفت على كلام الشيخ ، فوجدت الصدق يجلو مانظمه فيه من آياته وأخباره ، وجعلت حسن القبول منى تابعاً لآثاره ، وأما ماحكاه من قوله سبحانه « وما ينطق عن الهوى[1] » وقوله : «من يطع الرسول فقد أطاع الله[2]» واشباه ذلك فنعم القدوة والدليل لو تركه أهل الرأى والقياس ولم يوسوسوا بهما فى صدور الناس . وأما الأخبار المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فمقبولة وعلى الأحداق محمولة . وأما قوله إنه ليس يجوز لأحد أن يتكلم فى القرآن برأيه وإن كان عارفا باللغة ، فلو كان علم القرآن يعرف باللغة لم يكن فى العالم أعرف به من الأعراب ، فيا لله لقد آوى فى ذلك ونصر ، وأدى الأمانة وما قصر ، سوى أنه غير واقع موقع الرضى من أولى الأمر الجدد ، وجد مناف لما سلكوه استنجاداً برأيهم وقياسهم من الجدد ، والسعيد من كفى بغيره ، والمشار إليه بهذه النحلة تجمعه وإياه الدار العزيزة وغيرها ، وإذا تفضل بالقيام معه بهذا التقرير (ا) وسلافاته عن فعله بالزجر والنكير كان أمراً لنفسه يمهد وعليه يؤجر ويحمد .

وأما مارواه عن ابن عباس رضى الله عنه من قوله : «تفسير القرآن على أربعة أوجه » : منه ما يعلمه العلماء ، وآخر (ب) ما يعرفه العرب ، وباقى التقاسيم ؛ وقوله فى موضع آخر : لا تنقضى عجائبه . وقوله : ظاهره التلاوة وباطنه التأويل . فلست أعد ما أورده

(ا) فى د : التفسير . — (ب) سقطت فى د .

---

(١) سورة النجم ٣/٥٣ . — (٢) سورة النساء ٨٠/٤ .

الشيخ من جميع ذلك إلا لطفاً ساقه الله برحمته إلىّ ؛ وجدد بمكانه حسن عوائده لدى ، إذ لو كنت استظهرت بشئ من ذلك على من كنى عن نفسه بأولى الأمر لما وجد إلا مستقبلا بالرد فى الوجه والدفع فى الصدر ، والحمد لمن أجرى الحق فيه على لسانه وبواه مبوأ صدق من إظهاره وإعلانه .

وأما قوله من تكلم فى القرآن من حيث النقل فهو من العلماء ، ومن تكلم فيه من حيث الرأى فهو من السفهاء ، فانى مسائله عمن يتكلم فيه جامعاً بين النقل والعقل هل هو منظوم فى سلك أهل الفضل أو معدود من أهل الجهل ؟ وأما روايته عن النبى صلى الله عليه وسلم نزل القرآن على سبعة أحرف ، وقوله لكل آية ظهر وبطن ؛ فلولا أن عقد المناظرة هو لأن يخف على الموقف الأشرف سمعه ، ويخلص إلى النفس النفيسة نفعه فيقتضى ذلك أن يقتصر من عشر كلمات على واحدة ، ويتجنب كل لفظة على الغرض المقصود زائدة ، لاستقصيت عليه فى هذا الخبر تعرفا ، وأكثرت فى البحث عما استعجم من معناه تصرفا ، لكنى أقتصر على الخطاب عن الآية التى بنيت السؤال عنها فانها بعد فى غشائها والوقوف موقف التفسير معه فيما عسى أن يكشفها عن غطائها ؛ جوابه عن سؤالى : «ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب» الآية . أنه تكلم فيه ما تكلم السلف لغة ونقلا ، فاننى أكلفه أن يتكلم فيه لغة ونقلا وعقلا . فلو كان النقل المجرد ينفعنى لكان نص كتاب الله المنزل على نبيه المرسل يقنعنى ولكان (ا) .

« فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل »

لا حاجةبى مع تلاوة القرآن أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب يسجد إلى قوله حدثنا فلان عن فلان أن القميص يسبح والعمامة تركع وتسجد ، فاذا به ما زاد القصة فيما سألت عنه إلا تطويلا ولم يؤيد قوله سبحانه وتعالى ومن أصدق من الله قيلا : «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا[1]» . وكان الغرض أن يمهد أحوال البشر ويبين فضلها على الشوك والشجر فلم يفعل ، وكنت جعلت عمدة اعتراضى عليه فى الأول كلاماً ، فصرف عن جوابه مع بسطه

(ا) سقطت فى د .

---

(١) سورة الاسراء ٧٠/١٧ .

فيما لم يتم مقامه اهتماماً ولم يعتمد (ا) به إلماماً ، وها أنا ذا معيده وهو عمدة مرادى وعميده .
قلت : إن السجود لايصح إلا عن حى ناطق أخذا عن مؤيد من الأنبياء صادق ، نزل ذلك عليه وحياً وإرشاداً من ربه وهدياً ، وأنه إذا كانت الدواب والأشجار منبعثة من تلقاء نفسها لسجودها ، عارفة حق المعرفة لمعبودها ، كان فضلها على الأنبياء فضلا عن التابعين مشهوراً ، ولم يكن البشر بالقياس إليها شيئاً مذكوراً ، ووجدت هذا الفصل طوى طى السجل للكتاب ، وحذف من جملة ما يستوجب شيئاً من الجواب ، فان كان ها هنا جواب فهلم لتهدى (ب) العمى وتسمع الصم ، وإلا فدعنى من القصص الطويل والتوسع فى ميدان القال والقيل .

وأما قوله من لم يرض بما يورده تعين عليه الافصاح بما يعتقده ، فان ذلك حكم والحكم إلا على من تملكه ظلم . وأما التعريض (ج) بمن يضرب الطبل تحت الكساء فلو سلم خطابه من هذه اللدغة على طوله (د) لكان مهذباً فى مقاطعه وفروعه وأصوله ، لكنى أحتمل عنه ما ساء لما سر ، وأصبر لما نفع من كلامه على ما ضر .

وأما تقسيمه السجود على وجوه فراراً من زحف الالزام ، وضيق خناق الكلام ، فلئن كان السجود يتصرف على المعانى التى ذكرها من سجود وخضوع فليس يعدو أن يكون صادراً عن حى قادر ، وإذا ثبت عن الحى القادر فسواء خضع أو سجد أو قام أو قعد ، وأصل اعتراضى ثابت لايتخلخل وموطد لايتزلزل .

وأما إنكاره على اعتراضى عليه فى «ألم تر» أن يفسره بما ألم تخبر فتعلم ، وقوله إن ذلك اعتراض من لم يعرف أن العرب تضع العلم مكان الرؤية ، واستشهاده بقول الله تعالى : «فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين[١]» وقوله إن العلم يراد به ها هنا الرؤية ، وذلك أن الله تعالى علم قبل أن يفتنهم الصادق من الكاذب ، وأنه ليس يجوز أن يتجدد له علم لم يكن فى السابق ؛ فأقول فى جوابه وبالله التوفيق : أى القولين أحق بأن يكون متبوعاً : قول الله سبحانه الذى لا يتعرف إلا على جهة الحقيقة والصدق ، أم قول العرب الذى يتصرف على جهة المجاز والكذب ، أم ترى يلزم الله سبحانه أن يقتدى بالعرب من جهة كذبهم ومجازهم ويحدث النقيض فى كلامه تشبهاً بهم وتأدباً بآدابهم من حيث لايضيق

(ا) فى د : لم يتعمد . — (ب) فى د : لتهتدى . — (ج) فى د : التعرض .
(د) فى د : طويله .

---

(١) سورة العنكبوت ٢٩/٣ .

عليه الصدق ولا تعوزه الحقيقة ، وإنما العرب تفضى إلى استعاراتها ومجازاتها إذا ضاق بها ميدان الصدق والحقيقة ، فالله سبحانه الذى لايضيق عليه شئ من ذلك لم يقل مجازاً وكذباً ، هذا خلف من القول . واستشهاده بقوله : «فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين(١)» . وقوله يمتنع أن يتجدد له علم لم يكن فى السابق ، فذلك شبهة ثانية ، ووبال ثان قد أغناه الله عنهما مع خبطه فيما تقدم ، ولاتكاد الشبهة تحل بالشبهة ، فانه إن امتنع أن يتجدد له علم لم يكن سابقاً امتنع أيضاً أن تتجدد(ا) له رؤية لم تكن سابقة ، فان الحوادث عنه منفية ، وأعلام قدرته ظاهرة جلية .

وأما استشهاده أيضاً بقوله : «ألم تر كيف فعل ربك بعاد (٢)» فهو كمثل ذلك شبهة لا تحل بشبهة ، وإلى أن يتقرر بينه وبين الخصم تفسير الآية فلا سبيل إلى الاحتجاج .

وأما سوقه كلامه فى سجود الشجر والدواب إلى ذكر معجزة الأنبياء عليهم السلام وأن المنكر لذلك ناف لاعجازهم ، ومنكر لقدرة ربهم ، فقد وجدته قصد بهذا من التشنيع باباً ، وعمد لأن كشف فيه حجاباً ، وبين هذا وبين ذلك أمد بعيد ، إذ كان انبعاثها عابدة لربها ساجدة غير ما يظهر الله سبحانه فيها من أعلام النبوة لعصبة كانت لها منكرة وبها جاحدة . وأما قوله يجوز أن يكون معنى السجود من الجمادات أن من نظر اليها أداه إلى السجود ؛ فقد كنت سبقت فيما تقدم إلى الجواب أن الناظر إليها ساجد لا لاهى ؛ وكلام الله سبحانه فى الابانة عن سجودها بلا حقيقة بقى . وأما قوله قطعا على أن السجود المتعارف لايرى من هذه الجمادات ، وأن الكذب على الله سبحانه مستحيل فيجب أن يحمل السجود على الدلالة ؛ فأقول الله أكبر ! رجع الشيخ بهذا القول عن معتقده وأبطل سائر سورده وأجمل فيه ما نقض جميع تفصيله ، ودمر على كثيره وقليله ، فكفانى فى التكلم على ما بقى من الأخبار التى أوردها مؤنة وأولانى تخفيفاً ومعونة ، أينما أفتى به أولا وهو قوله فى جواب السؤال عن الآية لأن المخلوقات لايعصين الله ولا يكفرن بوحدانيته ومن الناس من يعصى ويكفر ، وأن ما قاله فى هذه النوبة ثانياً أن الله أمر الشمس أن تسير من المشرق إلى المغرب وذلك سجودها ، والقمر بمثله وذلك سجوده ، والشجر باخراج الثمار وذلك سجودها ، والجبال بامساك الأرض وذلك سجودها ، الدواب بحمل أثقال الخلق وهى

(ا) سقطت فى د .

---

(١) سورة العنكبوت ٢٩/٣ . — (٢) سورة الفجر ٨٩/٥ .

تفعل ما أمرها وذلك سجودها ، ألم يستوجب (ا) على " اللوم على البدء ، ألم يبسط فيه إلى " لساناً ويداً ، ألم يستقبل حكم الآية التى عليها مبنى المناظرة فى سجود الشجر والدواب بالدفع (ب) ألم يضع فى جميع ذلك (ج) الأخبار الموجبة الشاهدة به ما تقدم من الصنع ؛ فأما وقد رجع عن ذلك إلى ما قاله آخرا فان الأمر ينقسم فيه (د) إلى ثلاثة أقسام أنصف منها فى اثنين وجار فى الثالث . وأما كون السجود المتعارف لا يرى منها ، فله أن يقول إذ لو كان لكان تحت الحواس من السمع والبصر واقعاً ، ولو احتجب عنها لكان صنع الله سبحانه فى انشائها لمعرفة الخلق والألوان والأصوات ضائعاً ، وأما استحالة الكذب على الله سبحانه فهو الأصل المعتمد والكذب قبيح لنفسه ، تعالى عنه الواحد الأحد .

وأما قوله فيجب أن يحمل السجود على الدلالة فالكلام ها هنا منحل ، واعتقاد معتقده مختل ، فما يدريه ما الذى أراد الله سبحانه بقوله وعنى ، وعماذا عبر وكنى ، وإنما يصح منه على كلامه الحكم إذا حق به منه العلم ، فأما من بنى على ما لا علم له به فانما يبنى على شفا جرف هار ، وحقيق أن يتبوأ مقعده من النار ، وقد كان بلغ الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أن أحداً من الناس يرد على القرآن ويرميه بالثلب والنقصان ، فقال عليه السلام لأحد أصحابه : « قولوا لهذا الراد أبلغت قصرى ما يشتمل عليه ظاهر لفظه من المراد فعنده يحق الرد ويصدق نحوه القصد» فبلغ الرجل ذلك فأصبح واجماً ، وارتد عن فعله نادماً سادماً ، وتلك سبيل حكم من حكم بما لا يعلم عليه ، ونظر من هو فاسد النظر إليه . والذى أختم القول به أننى أعد الشيخ معد العقلاء وأرمقه بعين الحصفاء ، فلا أرضى له أن يعد دوى الريح وخرير الماء عبادة وحفيف الشجر طاعة ، فانه إذا أثبت (ه) ذلك ثبت بثبوته (و) كل سخف ولغو ، ووجد بوجوده كل هذر وحشو ، فما تنكر على من يقول (ز) إدارة الحبل لما يديره طاعته ، وذرق الطير (ح) عبادة ، وفى أمثال ذلك فساد الأصول واختلال العقول ، حاشا لله ، إن الدين أبسق فرعاً وأرسخ أصلا وأجمع للمحاسن كلها قولا وفعلا (ط) ومعنى جزلا من أن يزيف بهذه القاذورات التى تنفر عنها ذوى العقول السليمة وتشرد عن التمسك بعروته أهل الرأى والعزيمة وفيما أوردته (ى) كفاية لمن أنصف واعترف من الحق بما عرف ، والسلام وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله الطاهرين وسلم تسليما .

(ا) فى د : ألم يستوجب اللوم على البدء . — (ب) فى د : لم يضيع . — (ج) سقطت فى د .
(د) سقطت فى د . — (ه) فى د : ثبت . — (و) فى د : ثبوته . — (ز) انه ادار ... وطاعته .
(ح) فى د : الطيور . — (ط) فى د : فصلا . — (ى) فى د : فيما أديته .

أبو كاليجار يعتنق الدعوة الفاطمية

ولما جرت المناظرة المذكورة مكاتبة لا مشافهة لأنى تحرجت من المشافهة صوناً للعرض مما يخلط بالمشافهة فى المناظرة من سوء الأدب . ثم أنى قصدت أن يكون ما يدور بيننا من الكلام يتجسم بالكتابة لتبقى فائدته لمتأمله ، فسكن جأش الملك واطمأن قلبه وقال : إنى أسلمت نفسى ودينى إليك وإننى راض بجملة ما أنت عليه . فاستقر الأمر على أن أجتمع به كل ليلة جمعة للمذاكرة والمفاتحة [1] فكنت كل ليلة جمعة أمكث عنده إلى أن يمضى هزيع من الليل ، وهو يسألنى عن جميع مايهجس فى نفسه ، وكنت أجيب عنه جوابا يظهر أكثره تباشير الفرح فى وجهه ، وأسأله كيف وقع هذا الجواب منك ، فربما حرك رأسه يعنى أنه جيد ، فلا أرضى دون أن أقرره بلسانه أنه مادخل فى مسامعه مثله ، قصدا منى لتندمه على فرطاته ، وإقامة الحجة عليه بكون الحق فيما كان (ا) يحسبه ضلالا ، والرشد فيما كان يظنه غيا ، وكان بناء المجالس التى تعقد بحضرته فى ليالى الجمعات على أن يبتدىء بقراءة شئ من قوارع القرآن ، ويثنى بباب من كتاب الدعائم ، ويثلث بأن يسأل عما يريده فأجيبه عنه ، وأختم بالتحميد والخطبة لمولانا الامام خلد الله ملكه وله من بعده ، ثم أنصرف إلى منزلى . ومن جملة ما كنت قررته معه أننى غير ناهيه من استماع ما يريد استماعه من أى لسان كان من أى مذهب كان ، ولكن يرجع به إلىّ ، ويسألنى عما عندى فيه ، فان وجد الرجحان فيما عندى لزمه أن يرفض أقوالهم ويعمل بما هو أنجى له وأرجى لخلاصه معه . فكان الأمر مستمرا على هذه السيرة ، يزداد فى كل يوم إعجابا بى ومحبة لى ومغالاة فى وصفى ، حتى كان يفيض (ب) يوما فى ذكرى عند وزيره بهرام بن ماقية العادل المقدم ذكره رحمه الله تعالى : ويشتد (ج) فى مدحى فقال له الوزير : سبحان الله بينما كنت تبغض هذا الرجل البغض الذى يضيق عنه جلدك حتى صرت تحبه هذه المحبة التى يقصر دونها وصفك ، إن هذه سعادة لا تنكر مثلها من سعادات أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ، فمن سعاداته أن حصل لهذا الرجل من القبول (د) عندك ما انتهى

(ا) سقطت فى ك . — (ب) فى ك : افاض . — (ج) فى ك : تبسط .
(د) فى د : القول .

---

[1] نلاحظ ان الفاطميين ومن تبعهم لهم طرق خاصة فى التعليم فمبادىء الشريعة هى أول العلوم التى يلقيها الداعى للمستجيب وهى المقصود بها فى اصطلاح الفاطميين (المفاتحة) .

إلى هذا الحد . فأجابه الملك بقوله : إننا أصحاب أذن ومهما وجدنا الناس مجتمعين على القدح فى انسان ونسبه إلى الكفر والضلال فلا لوم علينا أن نصدقهم ونقبل منهم ، ونحن نحمد الله الذى أيقظنا من سنة الغفلة ، وردنا من الاقدام على الشبهة وصور فى نفوسنا أن القوم كانوا كاذبين مبطلين » .

الندماء يكيدون للمؤيد

ثم أنى كنت أخذت معه فى تهجين الشرب والخلاعة إليهوتحسين ما يضادها عنده ، فكان ذلك غير واقع موقع الرضا من قوم كانوا ينادمونه ويجتمعون معه على هذه الضلالات ، وكانوا يسرون النجوى فيما بينهم أن هذا الانسان — يعنوننى — يريد أن يستأثر بالسلطان دوننا ، ويأخذ به إلى أن ينحيه عنا ، ويمنعه من الاختلاط بنا ، وكانوا مشمئزين من هذه الحالة ، متقطعين من الغيظ والحسد والعداوة ، وفيهم واحد عطل من الدين ، عيبة للعيوب ، متوسع فى الغش والدغل والخيانة ، وكان هذا الانسان ممن دخل فى الدعوة لا لله ولا عن عقيدة صالحة ، فلما رأى الحالة فى اشتداد غضب الملك وقصده من قبل مصالحته لى وانفتاح الطريق بينى وبينه أراد أن يتقرب إلى قلبه بأن قال : إنى كنت من جملة من دخل فى أسرهم فلما رأيته كفراً وضلالا رجعت عنه قول من يئس من كون الزمان بيننا قط جامعاً ومؤلفاً ، أو أن يرانى على ذلك مبكتا وموافقا ، فلما أخلف الله تعالى فى ذلك ظنه واجتمعنا قال لى الملك يوما يطرفنى : إن فلانا — يعنى ذلك الانسان — أحد من قال إن مقالتكم كفر وزندقة ، وأنه لما دخل فيها ووجدها على هذه السبيل مرق منها(ا) . فوقعت بين خطتين مظلمتين ، أحدهما الانتداب لموافقة الرجل على ما قرفنا به ، وتكذيبه وتنزيه عقيدتنا عما دنسها به ، فأكون قد استخصمت منه شيطانا ملعونا لا يقعد به شئ من الغيلة والفساد ، ولا آمن مما يفتحه على من كمين غدر لا ثبات على مثله(ب) مع كونه قريباً من السلطان ، متمكناً منه مقبول القول عنده والأخرى التغاضى عنه والتغافل عن تبكيته ، فكأنى اعترفت بذنبي ولبست على شبهة ثوبى وقررت فى نفس الملك أن الذى قاله أو بعضه صحيح ، فاخترت من البابين كشف القناع معه(ج) المانع من أن يدخل على قلب الملك عاجل شبهة ، وقلت أكفى نفسى (د) هذه

(ا) فى ك : عنها . — (ب) فى ك : لا ثبات عليه . — (ج) سقطت فى ك .
(د) فى د : بنفس .

المعرة عاجلا ، ثم أتهدف لما يكون آجلا ، فقمت بمواقفته وأقمت البرهان على زوره وكذبه لكننى دست منه ذنب الثعبان برجلى ، وفتحت باب الفساد على نفسى ، فجعل يتعقبه (ا) فى بكل حيلة ويلقانى بكل مكيدة ، ويقول إن الذى لزمه (يعنينى) من باب التقشف والتظاهر بالستر والسداد تدليس على الناس وخديعة ، والدليل على هذا أن صاحبه الذى ينتمى إليه بمصر وهو متجاهر بكذا وكذا وأنه يركب فى العشاريات(ب) ويعلن بفعله على رؤوس الأشهاد ، وجعل يحضر واحداً واحداً من الغرباء الذين سافروا إلى مصر فيسألهم عن هذه الحالة فيشهدون كل ذلك تغييراً لقلب الملك وتوهينا لرأيه ورداً عما هو بصدده ، وكنت أقوم بالمحاجة عن (ج) ذلك والدفع بما هو أحسن ، على أنى كنت أعلم أن سماعه مما يدخل حيرة فى قلب الملك وضعفاً فى عزيمته .

وجرى بينى وبين الملك يوما فصل عجيب وقلت : إنى أرى قوماً تعاونوا على فساد حالى عندك ، وأطمعتهم نفوسهم أنهم بتسوقهم يبلغون المبلغ الذى يريدون فيما يجعل حظى عندك منقوصاً وعقد أمرى محلولا ، يردون الحال فى الوحشة جزعاً ، والأمر الذى يشرعون فيه هو باب الممتنع ، وضربت له مثلا وقلت : بلغنى فى الأمثال السائرة أن رجلا كانت صنعته كسر الحطب من الصحارى ونقله إلى المدينة وبيعه ، وكان ذلك معاشه وكان لا يخلو من شظف عيش ومقاساة ضر ، وأنه أتى عليه فى خلل الشتاء يوم فى غاية البرودة وكلما هم بالتوجه لطلب معاشه ثنت وجهه وصدته البرودة ، ولم يجد فى بيته مع ذلك ما يقتاته ويقتات أطفاله ، فأجهدهم الجوع وقالوا يا رجل نحن مضرورون بالجوع فجالد نفسك وابلغ طرف صحراء المدينة ولا تبعد عسى أن تظفر بشجرة تكسر منها مقدار ما تشترى بثمنه لنا طعاما نطعمه ، فقام الرجل ولم يبعد حتى لحق مثل ما وصفوه من شجرة فزحف إليها بفأسه للقطع ، فنودى منها لا تقطع وانظر كم يحصل لك فى كل يوم من كسبك هذا فاحضر كل غداة وخذه هنيا مهنئا قارا وادعا قد كفيت التعب والنصب ، فقال الرجل : محصول كدى وكسبى فى اليوم درهمان أو ثلاثة ، قالوا : قد حصل لك ذلك من غير تعب ، قيل فكان الرجل يباكر الموضع فى كل يوم ويأخذ القدر الميسر له فينفق البعض ويدخر البعض حتى صلحت حاله واستقام أمره ، وحملته الجدة على مركب البطر وقال فى نفسه : ما لى أغدو كل يوم إلى هذه الشجرة فآخذ منها درهمين أو ثلاثة على سنة الكدية ، وما أظن إلا أن تحت الشجرة كنزا مكنوزا وقد تسلط عليه جنى أو شيطان يمانعنى (د) عنه ، ولو

(ا) فى د : ينقبه . — (ب) فى د : العشار . — (ج) فى ك : على .
(د) فى د : يمانعانى .

أنى توصلت إلى قطع الشجرة واستخلاص المال من تحتها وتحصيله فى منزلى مكان التوجه، كل صبحة لدرهم (ا) ودرهم آخذه، فجعل فى نفسه أنه يأخذ فأسه غداة غد و يمضى إليها ويخرج الكنز من تحتها، فلما كان بالغداة تجهز على هذه النية فَعَلاَ الشجرة بفأسه كى يقطعها، فقيل له : يا إنسان شجرة أفضت بك من المسكنة والمجاعة إلى الثروة والحال الحسنة لم تكافئها بالقطع ؟ ولم تعلوها بالفأس ؟ فقال : اغربوا عنكم هذا الكلام إنه لابد لى من قطعها لاستخراج ما تحتها، فقيل : إذا كان لابد من ذلك فدونك وإياها، فلما رفع يده بالفأس ليهوى بها فى الشجرة جفت يده فى الهواء والفأس فيها وبقيت لا تنزل ولا تضم، فقيل : يا جاهل إنما كان لك على قطعها السبيل حين لم تعرفها ولم تعرف الخاصية (ب) التى فيها، وبعد معرفتك بها فلا سبيل لك عليها. وكذا أنت أيها الملك فلا سبيل لك علىّ بعد أن عرفتنى وعرفت خاصيتى.

وجرت بينى وبينه فى حال القوم الذين تساعدوا على إيذائى منافرة فى وقت آخر وقلت : ما ينجينى منك لا سخط ولا رضى، فلقد كنت علىّ إلبا قبل المعرفة قاصدا لروحى بلا بصيرة ولا بينة، وكان يتجافى جنبى عن المضجع رهبة من بغتاتك وخوفا من سطواتك، فلما سهل الله تعالى وأيقظك من رقدتك وجمع بينى وبينك ففعلت بك ما لم يفعل بك والدك — أعنى من طريق الارشاد والأخذ به من الاختلال فى دينه إلى السداد — صرت لا أتخلص من أذى من هم حولك ونصبهم لى اشراك الغوائل ولقائهم إياى بالخدع والمخاتل. فاستلب هذه اللفظة التى هى قولى « ففعلت بك ما لم يفعل أبوك » مستلبهم وقبحها مقبحهم، وهولوا القصة فى نفسه وقالوا : هذه لفظة ما لقى بمثلها أحد سلطانا ولا أدار بما يشبهها لسانا. وانتهت الحال به إلى اظهار موجدة ونكير زال بهما رسم الاجتماع فى ليالى الجمعات وتغير مدة ثم رجع، ولما عوتبت(ج) على بشاعة الكلمة المقدم ذكرها استظهرت فى الجواب بعذر بلغنى عن ابن الاسكندر فأتيت به مثلا، وقلت بلغنى أنه كان للاسكندر ابن يعزه ويكرمه ويرى الدنيا بعينه، فلما انتهى به العمر إلى حد التعلم والتفهم اختار له أفضل الناس وأعلمهم، فجعل يعلمه من كل شئ ويلقى إليه كل حكمة، فلما شب الصبى حوى من العلوم والحكم الشطر الأوفى جعل (د) يتقاعد بأبيه ولا يرى له الرأى الذى يجب، وكان توفره على اجلال معلمه وتوقيره من دون أبيه حتى

(ا) فى ك : لدرهم آخذه. — (ب) سقطت فى د.
(ج) فى د : عوقبت. — (د) فى ك : جعله.

كان لا يقوم لأبيه إذا حضره قائما ويقوم لمعلمه مكرما له ومعظما ، فنقم الاسكندر هذه الحالة من فعله ونسبه إلى سوء الأدب ، واستدعى المعلم ليعتب عليه ويقبح إليه فعل ولده فقال المعلم : أيها الملك ليس ولدك بالمخزى فى عقله ولا الناقص فى فضله ولا القاصر عن القيام بعذر فعله ، فسله عن مقتضى ذلك فعسى أن يصدر منه جواب يغنيك عما تسألنى عنه ، فقال : لا بأس بذلك ، فاستدعى الغلام وقال : يا بنى انما أنت بى وقد عرفت ما أوجبه الله تعالى عليك من حقى فلم تتهاون بخدمتى وتخدم معلمك أكثر مما تخدمنى فقال : أيها الملك ما كان قصدك بالفعل الذى اقتضى وجودى فى هذه الدار المحفوفة بالآفات والعاهات إلا لذة تقضيها ، فتلذذك فى هذه البئر أوقعنى وإلى فخها دفعنى ، وإننى لأرجو الخلاص مما أوقعتنى فيه على يد معلمى فمن أجل ذلك اتخضع لمن أرجو خلاصى على يديه دون من دفعنى إلى ما أنا مدفوع إليه(١) . وكذلك فأقول أيها الملك إننى لك بمنزلة ذلك المعلم من ابن الاسكندر ، وما قلت الذى قلته إلا على هذه الجهة ، فان وجدت مجالا لقبول العذر فيه من حيث العقل قبلت ، وإلا نسبته عنى إلى حشف ادمغة المعلمين الذين هم باختلال العقل مشهورون وفيه معذورون . وعند ذلك عملت قصيدة مسمطة ضمنتها هذا الذكر ، وذكر ما كنت ألحف عليه بالسؤال فيه والمطالبة به من مكاتبة الحضرة النبوية بمصر وكانوا يتشققون من الغيظ لأجله ويذكرون أن قصدى به الاشاعة بكونه خادماً لجهة ومطيعاً لجهة من حيث لا حاجة به إلى أن يكون بعد كونه مالكاً يصير مملوكا وعقب(ا) كونه متبوعاً يصير تابعاً ، وأن غرضى تهجينه والوضع منه والرفع من صاحبى ، ثم أن أبغض إليه الرعية بأجمعها وأزهدها فيه وفى أيامه وأوجس منه الخليفة ببغداد الجارية سنته وسنة آبائه أن يكونوا إليه بوجوههم متوجهين ولذكره

(ا) فى د وك : عقيب .

---

(١) شبيه بهذه القصة ما جاء فى نزهة الألباء ص ١٣٠ أن المأمون وكل الفراء ليلقن ابنيه النحو ، ففى ذات يوم أراد الفراء أن ينهض إلى حوائجه ، فابتدرا إلى نعل الفراء ليقدماها له فتنازعا ، أيهما يقدمها له ، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة ، وكان للمأمون وكيل على كل شئ خاص ، فرفع ذلك إليه فى الخبر ، فوجه إلى الفراء واستدعاه ، فلما دخل عليه ، قال له : من أعز الناس ؟ فقال : لا أعرف أحدا أعز من أمير المؤمنين . فقال : بل من إذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليا عهد المسلمين ، حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فردا . فقال : يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها ، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها .

فى الخطبة مقدمين ، وأن كل ذلك مما يشوش عليه ملكه ولايضمن شيئاً من صلاح شأنه . وضمنتها أيضاً ذكر ما كان المارق المقدم ذكره ألقاه إليه ووسوس به صدره أن الذى يستحليه من كلامى فى العقليات إنما هو استراق من الفلاسفة ، والقصيدة المسمطة المذكورة هى ما أثبته وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت :

باسـمك يا الله يا رحمن ويا رحيم يبـدأ اللسان
ثم يثنى بعـده بالحمد لك يا عادلا فى حكمه ما أعدلك
وبالصلاة دائماً (ا) على النبى مثلث الطهر الهمام العربى
محمد أشرف من ضم حشا وخير مخلوق على الأرض مشى
وبعده على البطين الأنزع نجل أبى طـالب السميذع
زلزلة السـاعة مولاى (على) ومن به للدين برهان جلى
طود الهدى ومنبع السعادة ومن له لو ثنيت وسادة
قضى من التوراة فى أهليها فصلا يزيل اللبس والتمويها
كما من الانجيل فى أهليه كشف عنهم عشوات التيه
واستخلص المستور من مسطور مترجما عن صحف الزبور
وبالقران الحق فى الناس نطق نطقا يجلى صبحه كل غسق[1]»
كذاك(ب) قال المرتضى والمنبر من نوره لمـا علاه أنور
من ذا على ما قاله يعترض إلا الذى فى القلب منه مرض
صلى عليـه وعلى أبنائه رب(ج) هم صفوة أوليـائه
قوم هم لله فينـا نعم جاحدهم أفضل منـه نعم
واذ مضى هـذا (فأما بعـد) فاننى لآل طـه عبد
مشتهر فى حبهم اخلاصى مجردا أرجو به خلاصى

(ا) فى ك : بعده . — (ب) فى د : كذلك . — (ج) فى ك : ربهم صفوة .

---

(١) جاء فى كتاب الفترات والقرانات لجعفر بن منصور ص ٥٧ (نسخة خطية بمكتبتى) : قال عالم الأمة وربانيها صلوات الله عليه : «لو ثنيت لى وسادة وجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الانجيـل بانجيلهم ، وبين أهل الفرقان بفرقانهم ولولا أن يقال إن ابن أبى طالب ساحر لأخبرتكم بما كان وبما هو كائن إلى يوم القيامة مما علمنى رسول الله» .

كم قد دهتنى فيهم من داهية … وحقدت فىّ قلوب قاسية
فكلما للحرب ناراً أوقدوا … اطفأها ربى ، فربى احمد
وأكثر الشيعة أهل الدعوه … لم يهو غيرى منهم فى مهوى
ما أحد فى آل طه قصدا … غيرى ولا من أرضه قد طردا
ما فيهم من لحقته ضغطه … يوما ويوما عارضته خطة
وانهم على اختلاف الفرق … وقلة الثبات عند الفرق
لايجدون قدوة من عَلَما … قد نصبوا لآل طه علما
بين قرون عصبة النصاب … فى دولة الازلام والانصاب
أجل فكل بى قد استجنا … إذا رأى ليل اغتساق جنا
أعرب فى الخوف إذا ما أعجموا … وأصدق الاقدام حين أحجموا
ثم إذا ما الخوف يوما ذهبا … اتخذوا ثلبى وسبى مذهبا
وسلقوا (ا) بألسن حداد … أثبتهم جأشا لدى الجلاد
لو اننى تركت بالكفاف … عددته من أكبر الانصاف
ما أن أرى الزمان لى بالمنصف … والموقف الأشرف بى لم يعطف
ولم يعد لى النظر الشريف … كما بدا والكرم المألوف
ولم تعد لعيشتى الحلاوة … بعود ذاك(ب) البر والحفاوة
يا مالكا فى الجسم والنفس ملك … إنك أنت الشمس والملك الفلك
يا طلعة الخير وياشخص الكرم … وطالع السعد ومصباح الظلم
من ذا رأى طلعتك الميمونه … فلم ير السبع الطباق دونه
عماد دين الله أنت المنتهى … فى كل ما باهى به ذوو النهى
خلقا وخلقا تبعا أسنى الحسب … كالدر ما بين اللجين والذهب
جعلت شاهنشاهاً المعظما … من نائبات الدهر لى معتصما
يا كاليجار (ج) فالاله جاره … وفى ذراه وحماه داره
المرزبان والزمان عبده … كما الكرام الكاتبون جنده
والمصطفى وآله عماده … حقا كما ولاؤهم عتاده
يا ملكاً مطهر الأخلاق … مشتهراً بالفخر فى الآفاق

(ا) فى د : سالقوا . — (ب) فى د : ذلك . — (ج) فى ك : كالنجار .

يا غاية السؤدد والنفاسه انظر فأنت صادق الفراسه
هلا ترانى فيك إلا غاليا يفرط فى حبك لا سواليا
فما لحقى عندكم يُضَيَّع وما لقولى صار ليس يسمع
أخادم مثلى يضاع هكذا كيما يطول نحوه باع الأذى
لقد نبا بى مقعدى ارجافا يجحف بى طول المدى إجحافا
من قائل يقول كيف شانه أما علا ، فلم هوى مكانه
وقائل يقول قد تنكرا سلطانه لكفره إذ ظهرا (١)
وقائل يقول قوم ما رضُوا فعللوا قصته وأمرضوا
كل بنا من حيث يهوى يشمت فبعضهم يمحو وبعض يثبت
هذا الذى يلسعنى من خارج من ناصبى كاشح وخارجى
وإن لى من داخل البيت ضنى يسأل عنى البعض بعضاً ماجنى
يا ليت شعرى ما الذى منه بدر من خلل نَفَّر عنه من نفر
ألم يكن حسن القبول قابله فما الذى قد قطع المعامله
إنى لفى أمثال هذا مرتبك فنجنى إنى بالله وبك
يا ملك الآفاق عطفاً عطفا تثنى (ب) به عنى الأعادى عطفا
إن كنت أذنبت فانت تعرف وليس ما تعرف عنه مصرف
إن كان ذنبى ما جرى ببسا ألم أقم عذرى فطبت نفسا
خلال أيام لنا بالعسكر فى المجلس الشاطئ فوق المنظر
والمثل المضروب بالاسكندر وبابنه علامة فادكر
إذ قلت ما جاوزت فيه واجبا فلا تكن من واجب مغاضبا
وانه إن كنت ترضى المعذرة وتقتضى لما نقمت المغفرة

---

(١) اضطرب ترتيب هذه الأبيات فى نسخة «د» فجاءت على هذا النحو :

من قائل يقول كيف شانه
وقائل يقول قوم ما رضوا
وان لى من داخل البيت
وقائل يقول قد تنكرا
كل بنا من حيث يهوى
هـــذا الذى يلسينى

(ب) فى د : يثنى .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

فاغفر ، وإلا فاعذر المعلما   إذا رأيت عقك منثلما
وانى كما ترى معلم   وها كم فى العقل منى لمم
وان تكن إذ قلت كاتب مصرا   تحمل من ذاك علىّ إصرا
فعدلك الشامل حسبى من حكم   وليس لى إلا الرضا بما حكم
أكان قولا منكراً أوزورا   أم كان حجراً ذاكم محجورا
أم كان لى غير الصلاح من غرض   أم لسوى رضاك فيه معترض
إذ (ا) قلت كاتب حضرة ابن فاطم   واسلك بما فيها سبيل الهاشمى
فليس مثل المرتضى عباس   ولا ابنه إلى ابنه يقاس
وان آباءك أيضا كتبوا   واظهروا الود له واقتربوا
لا سيما وربعه قد أشرقا   بخبر منى إلى مصر ارتقى
فيما له الرأى العلى وفقا   دام نظام سعده متسقا
وهو الذى أرسلت فيه رسلا   من بلد الأهواز عاما أولا
وجئت فى بابهم مستأمرا   فقلت دمت ناهياً وآمرا
ووجهك الميمون ذو تهلل   ما تكتب الآن خلاف الأول
فقلت فضلا من الله مفضل   ويمن جد للمليك مقبل
وقلت ان بعد هذا نكتب   بما به للود يقوى السبب
وانى الآن على انتظار   لعودهم (ب) بمنتهى الايثار
وبالجواب بالدعاء الصالح   وشكر مجدود من المنائح
لآل طه فى أجل ناصر   لهم ووجه للزمان ناضر
الملك الصاعد نجم الديلم   بملكه فى الأفق فوق الأنجم
فان عددت هذه الجناية   فقد بلغت فى العقاب الغاية
أرى نزولا عرضا عن ارتقاء   لا البشر ذاك البشر بى ولا اللقاء
ولا الكلام ذلك الكلام   ولا المقام ذلك المقام
وأن ما أسلفته من خدمى   وخلتنى قدمت فيه قدمى
أصبح نسياً كله منسيا   حتى كأنا ما صنعنا شيا
وليس ذاك بالذى يضاع   فمثله فى السوق لا يباع

(ا) فى ك : ان . — (ب) فى د : لعوده .

مصدره عن مشفق نصوح جاد به وهو شقيق الروح
لا منعة تمنع حين يمنع ولا غنى ينفع يوم ينفع
فما لأعمالى غدت مختله من أجل ان ساءتك (ا) منهاخله
وحسناتى قد عفت آثارها لخصلة منها يرى انكارها
ألم أكن أنطق بالبيان فى الجمع بين العقل والقرآن
ألم أكن جلاء كل ظلمة من مشكلات الدين مدلهمة
ألم أكن أحل كل رمز عنه الدهاة تنثنى بعجز
أغذى العقول بالعلوم الشافيه لكى تنال فى المعاد العافيه
فلم منعت عقلك الشريفا يا ذا النهى غذاءه اللطيفا (ب)
هلا منعت ما اشتهاه الجسم فمنعك العقل الغذاء ظلم
أصرت تأبى نفعه لضرى تمنعه الخير لقصد شرى
كم قد جمعت للهوى من عدة ومن عتاد بامتداد المدة
فمن ترى لعقلك المجرد من مرشد هاد له مسدد
يكسبه عزاً من القرآن يفنى الزمان وهو غير فان
ويعقد المجد له مؤبدا إذا مضى المجد شعاعا بددا
لا تطرحنى إننى ذاك الرجل سابق آثارى على هذا يدل
ولا تبع تحقيق شئ يعرف بشبهة يأتى بها محرف
يا ملك الملوك يا زين الزمن لا تطرحنى إننى غالى الثمن
أنا الذى من فضل آل أحمد فى العلم يعلو كل ذى يد يدى
أطبّ فى مصالح المعاد ما طب جالينوس للاجساد
قد شيبت منى العذار العفة مازلت من (ج) ميزانها فى الكفة
ما شاق قلبى وتر أو زمر ولم تدب فى عروقى خمر
عبادتى طول الزمان عادتى ما ملكت يد (د) الهوى مقادتى
أعاند الحرص الخبيث والطمع ماالهما طبعى مذ (ه) كان انطبع
فلا يغرنك قول الحسد من كل أفاك أثيم معتد
وقول من يقول من أهل السفه انا نقول قول أهل الفلسفة

(ا) فى ك : سألت . — (ب) فى د : لطيفا . — (ج) فى د : عن .
(د) فى د : يدى . — (ه) فى د : ما .

وها هم فسلهم لتعلما هل ينصبون فى القرآن سلما
لقصة واحدة أو دونها بموجبات العقل يوردونها
فكيف ما لم يعلموه علموا جار الأولى أفتوا بما لم يعلموا
يا ضعف ما بالجهل أسسوه أعلموناه (ا) وهم نسوه
إن القران عندنا أسنى نسب والفلسفى ما له فيه نشب
نجمع بين فضله والعقل ونقمع الجور بسيف العدل
يا أيها الهمام هذى قصه مما (ب) يضم الصدر لى من غصة
رفعتها تلبس لبس النظم والغرض المقصود فيه همى
تكفير سيئاتها بطولها وبعث حسن الرأى فى قبولها
فاسمع وانصف والزمان انصفا لك (ج) الورى ومن قذاه قد صفا
انك إن فتحت لى (د) عين الرضا لم تلف الا خدمة لى غرضا
يقصر عنها شأو من دونى عسى تميز اليقظان ممن نعسا
ولم تجدنى فى وجوه الخدمة من غير ذا إلا وكيد الحرمة
حاشية فى زمر الحواشى لا أستحى فيهم ولا أحاشى
كويتب ما أن أقول كاتب فان قدر كِتبتى مقارب
وخاطب ان ذكر الخطاب من خطبى (ه) لايأنف المحراب
وان ادلّ واحد بباسه فى شدة وعدة من ناسه
فجدك الميمون مضمون له طول الزمان النصر من عند الله
وبأسنا محصوله قليل منه لسان فخرنا كليل
وإن يكن مع ذا يحق الفخر به فانى فى الظلام الفجر
فعنده لا شك ناسى أكثر لطفاً من الله وبأسى أقهر
هذا كذا واننى إلى ورى حرمت بين النظراء النظرا
من غير ما ذنب قد اقترفته ودون عيب هو لى عرفته
يا زمنى لو لم تكن خوانا ما كنت أغلو هكذا مجانا
ويشتوى بالجمر يا شر الزمن من فيهم ازرى بمن إذ قلت من

(ا) فى د : أعلمونا . (ب) فى د : بما . — (ج) فى ك : فيك .
(د) فى د : فتحتنى عين . — (ه) فى د : خطبتى .

فالغير فى جانب بر يسلم … وأنا فى وادى الجفاء اسقم
يا مالك (ا) الأرض لسان رن … عن واصب بقلبه إذ أن
ثم إليك هاجرا واستأمنا … أبلغهما من القبول (ب) المأمنا
آمنك الرحمن مما تحذر … ودام وجه الأرض منك يزهر
والعدل فيك مشرقا آفاقه … والتاج منك دائما اشراقه
والملك فيك عاليا مناره … والدين منك لامعا أنواره
ودام لى ظلك ذخرا باقيا … كما دعائى لك حرزا واقيا
والحمد لله ولىّ الحمد … ذى الطول عز جاره والمجد
والصلوات الطيبات اجمعا … على الأولى قدرهم قد رفعا
محمد وآله الأبرار … والأكرمين الصفوة الأطهار
أئمة العدل هداة الخلق … معادن الفضل شموس الحق
منابع العلم مفاتيح الحجى … مرابع الفهم مصابيح الدجى

نجزت والحمد لله والمنة وصلواته على محمد وآله وسلامه .

واتفق فى خلال هذه الأحوال موت الوزير العادل المقدم ذكره رحمه الله تعالى وانتقال الأمر إلى من كان يعضد الحسدة والمتظاهرين كانوا علىّ لكونه ناقصاً فى نفسه خائفاً منى لتمكنى من السلطان[1] ظانا أننى من جملة من شره نفسه والعياذ بالله لطلب رتبته ومكانه والله تعالى يعلم أننى ما كنت من هذا ولا إليه ، فصاروا يداً واحدة فيما كانوا عليه وكنت لا أفكر بهم اشتدادا منى بمعونة الله تعالى إذ كنت مجاهداً فى سبيله ، وقائماً بنصرة آل رسوله صلى الله عليه وسلم لا يستفزنى حرص ولا طمع وانى منقبض عما تبسطوا (ج) له فيه من طلب دنياهم متجمع .

حادث مسجد الاهواز

فقضى من القضاء انى توجهت إلى الأهواز وكنت قد احتويت على مسجد شعث

(ا) فى : ك ملك . — (ب) فى د : قولهم . — (ج) فى ك : تبسطوا .

(١) الذى ولى الوزارة بعد الوزير العادل هو مهذب الدولة أبو منصور هبة الله بن أحمد الفسوى (ابن الأثير ج ٩ ص ٣٤٤ طبعة بريل سنة ١٨٦٣) .

بها كان تأويه الصوفية وأهل النصب احتواء على نصبة عجيبة لها قصة مفردة ، فعكفت على عمارته إلى أن جعلته بهجة للنواظر ، وكتبت على دور محرابه أسماء النبى صلى الله عليه وسلم وأمير المؤمنين والحسن والحسين فصاعدا إلى جعفر بن محمد واسماعيل ابن جعفر ومحمد بن اسماعيل عليهم أفضل السلام ووصلتها باسم المهدى والقائم والمنصور فصاعدا إلى مولانا الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين عليهم السلام[1] ذهبا على ألواح ساج يكاد يخطف الأبصار (ا) من لألائه وحسنه من المدى البعيد ، فرأى أهل تلك المدينة من ذلك ما لم يعهدوه ، وشاهدوا منه ما كادوا يكذبون عيانهم فيه ، ثم لم أكتف بذلك حتى أقمت الأذان « بحىّ على خير العمل » من فوق سطحه فبلغت القلوب الحناجر وصادفت فيها مثل وقع الخناجر ، فوقفت (ب) وتركت مديدة ثم قلت فى نفسى ما قال القائل :

انتهز الفرصة اما مرت   فربمـــا طلبتها فأعيت

وقلت لمن كان يحضرنى من الديلم إنى أريد إقامة صلاة الجمعات فى هذا المسجد مشفوعة بالخطبة لمولانا أمير المؤمنين المستنصر بالله صلوات الله عليه فهل لكم(ج) من مساعدة عليه ، فقالوا : « افعل ما ترى » . فلما كان يوم الجمعة أمرت عشرين نقيباً يصعدون إلى سطح المسجد ويؤذنون « بحى على خير العمل » فقامت ضجة فى المدينة شغلت الناس عن المسجد الجامع ، وفاض الديلم عن الموضع فيضاً حتى ضاقت المنافذ والمسالك بدوابهم ونجائبهم وغلمانهم ، وكان الأمر جاريا على هذه المثالة فى كل جمعة والدنيا تموج بأهلها خوضا وكلاما ، كيف كان سبب هذا ؟ وكيف تم ؟ وما يجرى هذا المجرى . وكان بالأهواز قاض يعرف بابن المشترى[2] كان أبو كاليجار أرسله إلى الخليفة ببغداد فحمل على

(ا) فى د : أبصارهم . — (ب) سقطت فى د . — (ج) فى د : عندكم .

(١) نلاحظ أن المؤيد أغفل ذكر الأئمة المستورين الذين جاءوا بعد محمد بن اسماعيل وقبل عبيد الله المهدى ، ولعل عدم ورود أسماء الأئمة المستورين فى كتب الدعاة مما قوى الشبهة ضد نسب الفاطميين ، ولا سيما عند المؤرخين الذين ينكرون نسبهم إلى الرسول ، وقد اختلف المؤرخون فى أسماء المستورين ، ولكن أكثر المؤرخين الاسماعيلية قالوا انهم عبد الله الرضى بن محمد بن اسماعيل ، فأحمد الوفى بن عبد الله ، فالحسين الزكى بن أحمد .

(٢) هو أبو الحسن عبد الوهاب بن منصور بن المشترى قاضى خوزستان وفارس ، وكان شافعى المذهب توفى سنة ٤٣٦هـ (ابن الأثير ج ٩ ص ٣٦٠) .

يديه اللواء واللقب ، فوقع فى الحريق من هذه الأحوال وكتب إلى بغداد كتاباً ينعى (ا) فيه خلافة بنى العباس ويذكر دثور ذكرهم فى الرسوم الداثرة ، ويشير عليه أن يتلافى نفسه قبل فوت التلافى ، وأن يرسل إلى أبى كاليجار رسولا ، وأن يصانعه على يديه بأنفس ما يجد إليه سبيلا ، وأن يقترح عليه بتسليمى فى يد رسوله بالحديد مكبولا ويجعله على ثقة بأنه إن قعد عن الاجابة إلى ملتمسه دعته الضرورة إلى مكاشفته واستنفار التركمانية عليه واغرائهم بحيازة ملكه ومملكته ، وقال إن أبا كاليجار تشف إلى الدنية نفسه عند الرعب ، ويرتاع عن غير روع قلبه عند الرهب ، فما كان إلا قليلا حتى سمعت بحصول ابن المسلمة (ب) [1] بالبصرة رسولا (ج) للخليفة كان فى ذلك الوقت ، وهو وزيره فى هذا الوقت لما نجح سعيه باقتلاعى من تلك الديار وقصدى بالتشرد منها والانتشار ، والذى تصدى لمكاتبة الصنهاجى [2] ومهاداته والتحريك من ساكنه ، والذى شرع (د) شروعه فى نبش قبر موسى بن جعفر ومقابر قريش [3] وكل ما يعزى به إلى الخليفة من سوء الأفعال فانه سهم من كنانته وقائم من تحت رأسه ، ولما حصل بالبصرة نزل على واليها وهو ضد شاق ، فشفع طاعون دبيلة وأشفق من دخول الأهواز وأنا مقيم بها (حذرا على نفسه من الديلم أن يفتكوا به) (ه) والأمر الذى ورد من أجله تتداوله الألسن فى الأسواق والمساجد ، ففزع أن تبدر نحوى بادرة منه وراسلنى (و) من البصرة على لسان بعض الرؤساء رحمه الله معتذراً ومتنصلا يقول : إنه بلغنى تكاثر الأراجيف علىّ بكونى فى شئ مما يتعلق بك وارداً ، ونحو مضرتك قاصداً ، وأننى علم الله برىء عما أنسب إليه

(ا) فى د : ينعى إليه فيه بنى العباس ودثور . — (ب) فى د وك : ابن مسلمة .
(ج) فى ك : رسولا لخليفة ، وفى د : رسول لخليفة . (د) فى د : يشرع .
(ه) سقطت هذه الجملة من ك . — (و) فى د : وأرسلنى .

---

(١) هو رئيس الرؤساء على بن الحسين بن أحمد بن محمد وزير القائم العباسى . ولد سنة ٣٩٩ هـ واستوزر سنة ٤٣٧ وقتله البساسيرى سنة ٤٥٠هـ وقد كان هذا الوزير من ألد أعداء المؤيد صاحب هذه السيرة فكثيراً ما سبه وهجاه فى شعره ونعته بابن دمنة لخبثه ومكره (النجوم الزاهرة ج ٥ وابن الأثير ج ٩) .

(٢) هو المعز بن باديس بن منصور بن بلكين الحميرى الصنهاجى ولاه الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٧هـ وتوفى سنة ٤٥٤هـ وقد خلع طاعة الفاطميين سنة ٤٣٥هـ ، وحمل أهل مملكته بالاشتغال بمذهب مالك وترك مادونه من المذاهب . وقال ابن الأثير إن ذلك إنما كان سنة ٤٤٠هـ .

(٣) كان هذا الحادث فى صفر عام ٤٤٣هـ وتجد تفصيلها فى (ابن الأثير ج ٩ ص ٣٩٤ طبعة بريل سنة ١٨٦٣ ، والنجوم الزاهرة ومرآة الزمان) .

الصنهاجى . و الشيرازى .

فانى أعلم إنك لجمهور الديلم يد ولسان ، وما كنت من قلة العقل بحيث أتصدى لمزاحمة الديلم جميعاً بمنكبى ، واجعل سبيل مباغضتهم سبيلى ومذهبى ، ولو أن مرسلى كلفنى ذلك لما تكلفته واستعفيت منه ، ولكنى وردت لتعهد اقطاعه بالبصرة ومراعاة خصائصه . فعلمت أنه كاذب آفك وأن الذى بالبصرة له على ما هو بصدده مشارك ، وأنه يهديه لما يدل به على مقتلى (ا) سهمه ، ويشده (ب) فى مكاتبة أبى كاليجار بما ينفذ فى سهمه ، وأن القوم الذين بحضرته خصوصاً المارق المقدم ذكره يجتهدون فى التحطيب على ، وينتهزون الفرصة فى القدح فىّ . فقمت متوجهاً إلى حضرته بشيراز وإذ الأمور أبرمت ، وعقدة الفساد أحكمت ، وسمعت أن الكتاب نفذ إلى جماعة الديلم بالأهواز يؤمرون فيه بالتطريق لابن المسلمة فى دخولها وترك معارضته فى العبور بها ، إذ كان يرد فى مهم من مهمات الخليفة لا يتعلق بأحد سواه .

مناظرة المؤيد مع العلوى الزيدى

فاجتمع الملك بأرباب المناصب فقالوا : ها ذاك(ج) فلان — يعنونى — ورد ، ورسول الخليفة على الأثر ، فكيف الحيلة عليه(د) فى أن نخفض منه ، وما نتعلق عليه بحجة جناية جناها ولا جريمة اجترمها ، فما الذى نلقاه به وما الذى نقول له ؟ إن هذه والله حيرة ودهشة وشئ لا ندرى كيف يكون عقباه ، وكيف يكون تخلصنا عند الله منه . فقال المارق : أنا احتال عليه حيلة لطيفة بباطل نجهزه إليه فى لباس حق . قال : وما ذاك ؟ قال : فلان العلوى القائم الليل ، الصائم النهار ، الذى هو زيدى المذهب يختلط بالصوفية والقصاص وأصحاب الحديث نكلفه أن يطلب مناظرته بين يدى الملك على مذهبه ، وتجزم أنت أيها الملك عليه بمناظرته ، ونقيم فى الوسط قوماً يعدون عليه فى نوبته ويقطعون خاطره ، ويفجرونه وهو على ما تعرفه قوى المنة ، عزيز النفس ، لايراقب أحداً ، فيحمله الغيظ على الاشتطاط(هـ) فى كلامه ، والخروج به من آداب المناظرة ، فنجعله حجة عليه فى تبكيته ، والوضع منه ، ونسلم من كلام الديلم أيضاً وتشنيعهم علينا (و) ، إذ كان المناظر له علويا مشهوراً بالسداد والستر لا عامياً ولا وضيعاً . فاجمعوا أمرهم على هذا ، فاتتنى رسالة الملك بعد هذا التقرير بيوم أو يومين بأن فلانا العلوى يدعوك للبراز فى مناظرته على مذهبك ، وأننى

(ا) فى د : قتلى . — (ب) فى ك : يسدده . — (ج) فى د : ها ذلك . — (د) سقطت فى ك .
(هـ) فى د : الاستشاط . — (و) فى د : إذا .

مؤثر لاجتماعكما عندى على ذلك ، ومريد لسماع ما يجرى بينكما فى كل نوبة ، فقلت : سبحان الله ، لا تعرب به هجرة ، ولا مزيد على ما دار بينى وبين خصومى من مناظرة وقف الملك على مسطورها وعرف تقواها من فجورها ، ولكن هذا عنوان رأى فاسد ، وسوء لامحالة علىّ وارد ، وأفوض أمرى إلى الله وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت .

فوقع التعيين على ليلة من الليالى للاجتماع بحضرته والمناظرة ، وكان ذلك فى أوائل شهر رمضان . فحضرت وحضر العلوى بعدى ، فقلت له : « أيها الشريف إنى أريد أن أحدثك بحديث فى نفسى قبل المناظرة » . قال : «وما هو ؟» قلت : «بلغنى أن علويا غزا فى جملة الغزاة الروم ، فأحيط بهم وسلكوا وفى الحبوس والمطامير زموا (ا) فلما كان يوم من مشاهير أيامهم التى يعظمونها ويقربون القربان عندها ، أخرجوهم فأطلقوا (ب) الأسر إلا العلوى فانه ضرب ضرباً وجيعاً ، ورد إلى محبسه ، حتى حال(ج) الحول ، ورجع مثل ذلك اليوم فأطلق أسارى وعملت به العادة فى إيجاعه ضرباً ورده إلى الحبس ، وكان تألمه من اشتباه وجه ذلك عليه وموجب فعله به أشد من ألم الضرب والمكروه الذى كان يناله ، وتمادى به الأسر إلى اليوم الثالث من السنة الثالثة ، فحين رأى المثالة فيه محفوظة والسنة بضربه ورده فى الحافرة قائمة استغاث ، وقال : « يا قوم دلونى على وجه اختصاصى بهذه العقوبة من بين قوم كانت قصتى وقصتهم واحدة فأولئك مُنَّ عليهم بالاطلاق وأنا باق يجدد علىّ العذاب فى مثل(د) كل يوم أطلقوا فيه من الوثاق ، ثم أضربوا رقبتى بعد أن تشعرونى مقتضى قصتى ، فحمل إلى الملك أو بعض أصحابه وسأله : مَنْ الرجل ؟ فقال : علوى . قال : فما معنى قولك علوى ؟ قال : المعنى فيه أننى أنسب إلى على بن أبى طالب . قال : ومن على بن أبى طالب ؟ قال : أخو محمد الذى(هـ) هو رسول الله وهو وصيه ، قال الرومى : فكيف جرى حال علىّ هذا بعد موت محمد ؟ قال : قتل . قال الرومى : قتلناه نحن ؟ قال : لا . قال : فمن ؟ قال : المسلمون . قال الرومى : أو كان له أولاد وذرية ؟ قال : نعم وأجلهم الحسن والحسين اللذان كانا إبنى (و) بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الرومى : فما قصتهما ؟ قال : سمّ الحسن وقتل الحسين وسبى أهله وذريته . قال الرومى : أنحن الفاعلون ذلك بهم ؟ قال : لا . قال : فمن ! قال : المسلمون ، فقال الرومى : فأنت يا إنسان ، طوائلك فى المسلمين وأبوك

(ا) فى د : قربوا . — (ب) فى د : فاطلقوهم . — (ج) سقطت فى ك .
(د) فى ك : حالت . — (هـ) فى د : سقطت . — (و) فى د : من .

وأهلك من قتلاهم ، وأتيت تغزو الروم الذين لا جناية لهم عليك ، لأى معنى ؟ فهذا وجه معاقبتك التى سألت عنها وتحيرت لاشتباه وجه موجبها . وكذلك أنت يا شريف وطوائلك مع القصاص الحشوية الذين يحشوهم المسجد الجامع ، الهادمون لمجدك والمنتقصون(ا) لأبيك وجدك ، وأنت تزرع المحبة فى تربتهم ، وتميل إلى جهتهم ، وترحف بسلاحك وعدتك إلى قتالى ، وتجمع حولك وقوتك إلى نزالى ، وأنا غصة فى حلقوم القوم ، وشرقة لاشتهارى بنشر فضائل (ب) أهل بيتك ، وإقامة عمد مجد قومك ، فما هذه لك بعلامة خير . فاصفر وجهه وتلجلج لسانه ولم يدر كيف يقوم ويقع ، فقال الملك : أغربوا هذا التوبيخ والتقريع واثبتوا على مسألة تتكلمون عليها . فقلت : أيها الملك معلوم عند هذا الشريف وعند أمثاله أننى لا أصلح أن أكون مسئولا ، لأنه لا يمكننى أن أبوح بحقيقة ما أسأل عنه ، فاننى بزعمهم باطنى ، واعترافهم بكونى باطنياً يمنع من مطالبتهم بحقيقة ما أعرفه فيجعلونى بالكشف عنها مثلهم ظاهريا ، وإنما أصلح أن أكون سائلا فيردون الجواب الذى لا منعة دونه عندهم ولا حجاب . قال العلوى : أو ما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من سئل عن علم عنده فكتمه ألْجَمَهُ الله تعالى بلجام من نار . قلت : الله أكبر قد حصل ما نتكلم عليه إن الله تعالى أعطانا من حيث العقل بصيرة بها نستبصر ، كما أعطانا من حيث المشاهد بصراً به نبصر ، وقد عرفنا من شأن النار أنها تفرق الأجزاء وتحل الأجسام المجتمعة ، واللجام من النار الذى هو مجموع من جوهر منها يفرق أجزاء ما تسلط عليه ، ويحللها ليس يكاد يتمعنى لى ولا لمن له عقل ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الحق الذى لا يشوبه باطل ، وعسى أن يكون ضرب فيه مثلا يحتاج الشريف أن يستصحه ويعرف المعنى الذى تقوم عليه بينة العقل منه ، فاما مقتضى تصوره فيه لا يصح . فقال : أما تؤمن بقدرة الله جل جلاله ؟ فقلت : كيف لا أومن بقدرة الله سبحانه وهذه السموات المبنية المرفوعة السمك(ج) والأرض المدحوة الوسيعة العرض وما بينهما جميعاً من صنائع حكمته وقدرته . غير أنه لما لم أجد فيها اللجام من النار تعجبت مما قال الشريف فيه وطفقت أطالبه البينة عليه .

وأخذ الشريف لا يمر ولا يجيء فى الجواب ، وتقطعت به الأسباب ، حتى صار القوم الوقوف من الحاشية والأستاذين يتضاحكون منه ويستهزءون (د) به ، والقوم المدسوسون لتذليقى(ﻫ) والكلام فى نوبتى والقصد لاحماء صدرى حاضرون يهيمون فى كل واد ،

(ا) فى د : المنقصون . — (ب) سقطت فى د . — (ج) فى د : المسمك .
(د) فى ك : يتهزأون . — (ﻫ) فى ك : لتفتيرى .

وأنا لا أعبأ بهم ولا أنصب لهم ، معرفة منى بكونهم مدسوسين ، وعلى تذليقى محمولين ، فقال الملك : دعوا هذا الباب وتكلموا فى أمر الصيام ووجوبه على الرؤية أو غير الرؤية . فقال العلوى : يحكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جمع أصابعه الخمس وقال : نحن قوم أميون لا نعرف الحساب ؛ الصوم مرة هكذا حتى استوفى العدة ثلاثين فى ست مرات ، وأنه جمع الأصابع ثانية فلما انتهى إلى الآخر نَقَّص واحداً من الأصابع ، ثم قال ومرة هكذا .

فقلت : حاشا لله أن النبى صلى الله عليه وسلم الذى شرفه الله بالمعراج ، وأراه ما وراء الحجاب يكون به من العى واللكن وإن كان أميًّا أن لا يفصل ثلاثين من تسعة وعشرين بلسانه فيغنى عن جمع(ا) الأصابع وتحريك اليد هذه الدفعات الكثيرة مما يقوم به راعى البقر والغنم ، ثم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنى بطرقات السماء أعرف منكم بطرقات الأرض ، فلو أنه صلى الله عليه وسلم ، على كون هذا الكلام العظيم محصوراً عليه مثبتاً ، يتكشف(ب) للسماء فى طلب رؤية الهلال لقام الناس لموافقته يقولون فأين هذا من دعواك بالأمس إنك بطرقات السماء أعرف منا بطرقات الأرض ؟ وسوى هذا فلو كان الهلال شيئاً يتعين وجوبه ولزومه لكان ذلك لنا خاصة ، ولكان هو عليه السلام بالغنى عنه لكون جبرائيل يعتاده بالوحى ينزل عليه ، ولكان سؤاله جبرائيل هَلْ أهَلّ الهلال أولى به من التكشف للسماء لطلبه ، وفى مضماره التشكيك فى أمر نفسه وتعليل نزول الوحى عليه . ولو وجد واحد منا السبيل إلى ملك من الملائكة يستفتيه ويستخبره عن مغيبات الأمور أكان يتكل على نفسه فى الطلب والاجتهاد ؟ هذا ما لا يقوم عليه دليل ولا برهان . فخزى العلوى من هذا الجواب خزيا قام وهو يتعثر بذيوله [حتى صار القوم الوقوف من الحاشية والأستاذين(ج)] يتضاحكون منه ويستهزئون به وانصرف كل منا إلى داره .

وشايات النديم

وغشى الملك من غواشى الحيرة والحشمة إن غدر بى وشرانى بثمن بخس ما لم(د)

(ا) فى د : جميع . — (ب) فى د : يكشف السماء . — (ج) سقطت هذه الجملة فى د .
(د) فى د : لا .

يسعه جلده فيه واتبعني نصف الليل بأستاذ من حضرته محتشم صعد وصوب فى الاعتذار عنه وتقطيع الخجل مترسلا منه ، وقامت قيامة المارق الذى دس العلوى وأنشأه لهذا المقام وجعل يتقطع فى جلده ، ويخلق لى ذنوباً وينسبنى إلى أننى أغرى الديلم جميعاً به ، وأبعثهم على ذكره بالتقبيح فى مواسمهم ومجامعهم ، وأغريهم بالبطش به والتجمع على هلاكه(ا) وكان يلقى الملك كل يوم بصحيفة من الشكوى ينشرها مواضعة فيما بينهم على إتمام الضربة وبلوغ منتهى المكيدة ، على كون الملك يقدم رجلا ويؤخر أخرى مؤثراً لبلوغه الخليفة بعض مراده بعد مصانعته له بما صانعه به ، ومحتجزاً عما يوعده به أنه يستنصر التركمانية عليه ويصير فى شعبهم إن لزم الطريقة التى نقمها منه ، وقاصداً نسخ معلومات الناس أنه صار فى شعبى وتمذهب بمذهبى ، فيكون يألف به قلوب العوام ، وهو مع هذا كله يخاف الله سبحانه فىّ ويحتشم من فعله بى بلا ذنب أذنبته ولا جرم ارتكبته ومن بعد ما عاهد الله عليه ، وأخذت صفقته فيه من حفظى والمانعة عنى وما انغرس فى قلبه من كلامى الذى لم أزل آخذ إقراره به أنه ما مر مثله على مسامعه ، غير أن كفة الهوى كانت أرجح من كفة العقل ، وكان الزمان بانجاده للخليفة ردءاً(ب) من التركمانية لم يكونوا من قبل ، مال على كل الميل . فلما كان ذات يوم وقد اجتمع إلى جمع كثيف من الديلم فى مجلس يوم الثلاثاء وكان انتسج فيه من ذكر العلوى ومناظرته وذكر من دسه ، تكلم الحاضرون بما يتكلم فى مثله ، وكان يحضر الموضع عيون ، فأعادوا على المارق ذكر ما جرى ، فقصد وجها واحداً حضرة الملك ، وأعاد من كل كلمة عشرا ، وأزكى النائرة بجهده ، وعقد عزمه على المكاشفة ، وتمزيق ستر(ج) المساترة ، وبعث الملك إلى بالرسالة أستاذا من خواصه حظياً عنده يقول : إن فلانا يعنى المارق حضر فى مجلسه وقال إنه دارت عليه اليوم عندك سوق(١) وتمضمضته بكل قذع وسفه ألسن ، وتوعده الديلم بالفتك به والقتل وأسباب لا توجب السياسة مثلها ، وكان الأولى أن تمنع من جرى مثل ذلك بين يديك ، وتبت أرسان القال فيه والقيل وما يجرى هذا المجرى . فأجبت بالاعتذار وقلت : إنى زام لسانى عن ذكره ومسلمه إلى رب العالمين الذى هو ولى مكافأته عن فعله ، فأما ألسنة الناس فلست بمتملكها ، وشئ شاع وذاع واشتهر فى كل مكان من فعله لا قبل لى بأن أرده فى مطاوى الخفاء .

(ا) فى د : ملاكه . — (ب) فى د : وردا . — (ج) فى د : سر .

---

(١) سوق : جمع ساق بمعنى شدة ومنه قوله تعالى : يوم يكشف عن «ساق» .

وسمعت أن الملك لما بعث الرسول أظهر الاشفاق من حضورى بنفسى معه لاقامة العذر، علماً منه بما يعتقده حجب المجاملة سعى وقال: أرجو أن يعقد مكانه ويرد جواب الرسالة ولا يأتى بنفسه. فقال المارق: هو أجهل من أن يفعل ذلك؛ أو ما يشبه ذلك من كلام جفاه. ولما أدّى الأستاذ الرسالة أحست نفسى بالشر، ورأيت الصواب أن لا أسر واقتصر على ما يبلغه الأستاذ عنى فى الجواب، وامتنع الأستاذ إلا أن يأخذنى إليه لأكون المبرهن عن نفسى، قصداً منه للخير، وقد كان رحمه الله ممن يؤثر الخير لى ويحبنى، وتوخى به أنى ألحن بحجتى وأقوم بالعبارة عن نفسى، فلزمنى إلى أن حملنى معه. وسمعت أن الملك لما لمحنى من بعيد أظهر تغما من مجيئ. وقال: بئس الشئ. فتقدمت إلى حضرة الملك وخدمت وجلست، وقال الأستاذ: يا شاهنشاه قد أبلغته الرسالة فاعتذر وقال كذا على كذا؛ ثم أخذت الكلام من فيه ووصلته بقولى. فقال المارق: إنك تجاوزت حدك وبسطت لسانك فىّ، وفى هذا الشريف الزكى الطاهر الذى هو خير منك ومن إمامك ومن بنى القداح كلهم، وهو إمامى وقدوتى فى دينى وعدتى لآخرتى. فقلت: صان الله هذا الموقف الشريف وحضرة الملك العظيم أن تجرى فيها هذه السفاهة وذكر قوم ليسوا بأمثالك وأمثالى، ولا عندهم خبر من وجودك ولا عدمك، ولئن كان هذا العلوى إمامك على ما تذكره وعدة دينك، فلم جعلته مشرف دارك واستحفظته ختوم(ا) مخازنك؟ أرأيت من اتخذ إمامه وكيل داره والمشرف على انباره — وكان العلوى يتولى القيام بذلك كله له — فهام ذلك النذل فى وادى النذالة والأقوال الخارجة مما يجرى فى مجالس الملوك(ب)، ويقتضى جواباً؛ وقال فى خلال خباطه: إن الذى اتخذته جنتك من حديث العلم والدين هو تمويه(ج) وتدليس لأن همك الوزارة ومشاركة وإيثاراً إلى الملك فى المملكة. وكان قصده بهذا القول خاصة أن يبلغ الوزير فيلهبه ويجعله على (د)المقالى. فقلت: لا حاجة لى إلى إقامة البرهان على كذب هذا القول مع حضور الملك وسماعه، فان ذلك كما قال الله سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام: «إن كنت قلته فقد علمته» وكذلك الوزارة إن كنت من خطابها وطلابها فمنه طلبت، وهو حاضر يسمع النجوى، ويميز من اتخذ الصدق مذهباً، ممن افترى على (ه) الله كذبا.

ولما جرت هذه المكاشفة القبيحة، قام الملك من موضعه حذراً من الخجل، وقمت مدهوشاً

(ا) فى د: مختوم. — (ب) هكذا فى النسختين ولعل الأصوب: مما لا يجرى فى مجالس الملوك ولا يقتضى جوابا. — (ج) فى ك: خباطة. — (د) فى د: فيلهبه على ويجعله لمقالى.
(ه) فى ك: الناس.

مما تحزب على من الشر وفتح كمين الغدر . ومضيت أجر رجلى إلى بيتى ، وبت ليلة يا لها من ليلة ، وصارت بشيراز صيحة(ا) واحدة بحديثى وذكرى فى البيوت والمساجد والمجامع ، وتباشر المخالفون فى كل بقعة وكل مكان ، ونفذت الكتب إلى البلدان الشاسعة بالتهانى أن الملك رجع عما كان عليه من الضلالة ، وقتل فلاناً وجعله قطعة قطعة ، وسمعت واحداً يتباشر واحداً أن فلاناً فعل به كذا حتى قطعت البغلة التى كان يركبها قطعة قطعة فقال المبشر: ناولنى يدك أبوسها . قال المبشر: بل هات صدرك فامسحه على صدرى لتسر قلوبنا التى فى الصدور بانكشاف هذه الغمة عن الاسلام والمسلمين ؛ وكانت هذه المكاشفة جرت فى يوم الثلاثاء الباقى بينه وبين يوم الجمعة يومان ، وكانت جرت عادة الملك بأن يحضر المسجد الجامع فى كل جمعة من شهر رمضان ، فعمد المارق على الاجتماع بقاضى قضاة فارس ورءوس الضلالة من أهل البلد وأستن عليهم بفعله بى(ب) ، وأننى ما غضبت إلا لله ولدين (ج) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما آثرت إلا تطميس أثر (د) الضلال ، وبقيت خصلة واحدة إن(ه) وقعت المساعدة منكم عليها ، أفلحتم وأفلحنا ، وإن تكن الأخرى فسدت الحال فى أيدينا ، إذ كان الملك قد أشرب فى قلبه حب هذا الانسان ، وإنما نحن كالمعنفين عليه فيما يفعله والمخوفين له من عقبى ميله إليه ومحاماته عليه ، فقالوا : وما ذاك الخصلة ؟ قال : هى أن يفرق كل واحد منكم تبعه وأصحابه فى الأسواق والمحال ويحْشد الحشد العظيم من العامة والرعاع ليصطفوا يوم الجمعة من باب دار الملك إلى المسجد الجامع ، ويضجوا بالشكر والدعاء على ما كفى الاسلام من عادية هذا الانسان بلسان واحد ضجيجاً لا تكون نفخة الصدر مثله ، حتى يرتجف قلب الملك من لقيا هول تلك الجموع ، ويحسن فى نفسه فعلا من أجله صاروا له محبين بعد أن كانوا مبغضين ، وشاكرين عقب أن كانوا شاكين ، فيستحكم ما فعلناه ويستقر ولا يتحلحل(١) . وكان قصده لعنه الله أن يستجمع القاضى والمشايخ الجموع ، فاذا اجتمعوا تفاقم الأمر فلم يقفوا عند أمثلتهم فى الاقتصار على الشكر ، بل يتجاوز إلى بسط أيديهم بالقتل والحرق وإيقاظ عين الفتنة ليبلغ هو مراده بأيدى غيره . فلما كان يوم الجمعة سمعت فى منزلى ما لم أشبهه إلا بنفخ الصور حقيقة ، وما حسبت إلا أن السيوف تأخذنى من أقطارى ، والنار تحرق إلى

(ا) فى ك : ضجة . — (ب) سقطت جملة فى النسختين لعلها : ومن قوله لهم .
(ج) فى ك : ولدين الاسلام . — (د) فى د : اهل . — (ه) سقطت فى د .

---

(١) أى لا يتحرك .

جوانب دارى ، وقعدت مستسلما لأمر الله سبحانه وحكمه ، وجائداً بنفسى على أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فطمس الله على أعين القوم فضلا منه ورحمة ، وجعل على قلوبهم من فهم ما قصد بجمعهم له أكنة ، وتفرقوا . فلو لم أقاس من الشدائد غير تلك الساعات لكان كثيراً .

غدر أبى كاليجار بالمؤيد

فلما انفض القوم أتتنى رسالة الملك على لسان أستاذين من خواصه يقول لاشك أن هذه الضجة التى كادت تخرق الأرض وتشق(ا) الجبال وقعت فى مسامعك ، وعلمت أن هذه الأمم لا يحصيها إلا الله سبحانه أعداؤك وخصماؤك ، وكانوا (ب) أعداءنا فيك أيام كنا نقربك وندنيك ، وينبغى الآن أن تأخذ لنفسك وتبتغى سبيل نجاتك ، وتفرغ هذه الممالك ثم تأخذ أى صوب شئت . فقلت لهما : قولا للملك خفْ ربًّا إليه إيابك وعليه حسابك ، واذكر أيامى عندك ومعك ، فانك لا ترى فيها شيئاً تذمه وتنكره ، ولى فى رقبتك من أمانة الله تعالى ما هو لازم لها لزوم القلائد (ج) ، فلا يخلصك أحد من عهدته ولا ينجيك شئ من تبعته . وأما النفى فليس ذلك مما ترعبنى به ، إذ كانت هذه النعم التى أتقلب فيها (د) من ابتداء أيام مملكتك إلى هذه الغاية قصداً بالروح والمهجة وسَوْماً بسوء العذاب فى كل حين وساعة ليست مما يضيق على الانسان أن يوليها ظهراً ، ويملك عنها صبرا ، والسمع والطاعة لأمرك . ولما كان فى اليوم(ه) الثانى أو الثالث أرسل إلىَّ قوماً مِنْ أجل مَنْ بحضرته يتحملون معذرة وقولا أنه يعز عليه ما يكلفنى إياه(و) من الصعوبة ، وإن كتاب الخليفة ورد بالعظائم فى بابى ، والتوعد بطغرلبك التركمانى ، وأنفذ الكتاب مع القوم لأقف عليه ، وذكر أن رسوله لاحق فى أثره ، وجعلوا الكتاب فى يدى ، فنفضته عنى ورميته وقلت : لا أعرف خليفة غير المستنصر بالله ، وهذا الكتاب ما لى حاجة إلى قراءته . إلا أنهم عرفونى أن مضمونه الوقوع فى موالينا عليهم السلام ، وتنقيصهم(ز) والقدح فى أنسابهم ، والكناية عنهم بالمغاربة الفعلة الصنعة ، والقول انه إن كانت دعوة تعزى إليهم فى الأيام المتقدمة ، فلقد كانت فى الخفاء والستر ، مثل خبيات الصدور ، ومكنونات القلوب ، وإن أحداً ما جسر على مثل ما جسر عليه هذا الرجل الفاعل الصانع من الوقوف

(ا) فى د : تشق . — (ب) سقطت فى ك . — (ج) فى د : القلادة .
(د) فى د : إذا كانت هذه النعم اتقلب من ابتداء . — (ه) فى د : يوم .
(و) سقطت فى ك . — (ز) فى د : وتنقصهم .

فى بعض مواقف إظهاره وإشهاره ، والتجرد لدفع معالم ذكرهم بالصلاة والخطبة وإزالة أساسينا بالكلية ، وإنه إذا سومح فى بابه ، وأهمل الاستيثاق منه وتسليمه فى يد صاحبنا فقد أخرجتمونا من عهدة الايمان والعهود بيننا وبينكم ، وأحوجتمونا إلى استنصار من ينصرنا عليكم – يعنى التركمانية – وقلت فى جواب توعده بالتركمانية : أما التركمانية فليس قصدهم هذه الديار نصرة للخليفة ولا مظاهرة له إلا فى طلب الملك ، ولو قتل مثلى ألف ما ارتدوا على أعقابهم إلا أن يردهم الله سبحانه ؛ فقولوا للملك ليشتد عليهم بعد معونة الله سبحانه بعضده واستنزال أمواله التى أعدها فى قلعته وتفرقتها فى أعوانه وأنصاره ليشمروا عن ساق الجد فى الممانعة عن ملكه . فأما الأحدوثات(ا) وأسمار الليل فما يجىء منها شئ ، وأما(ب) ما يسومنى من الخروج فانى على ذلك ، ومجمع له أمرى ، وعاقد عليه عزمى . فرجعوا بجواب الرسالة إليه ، وكنت فرحان بايجاده لى السبيل إلى النزوح حذرا من مكيدة تتم علىّ بالقتل ، وأن يصل(ج) رسول الخليفة فربما سلمت فى يديه ، فدخل المارق لحاه الله فى رأيه ، ورده عن فسحته لى فى المسير ، وأشار عليه بأن يجعل حبسى دارى ، وذكر أنه إذا أطلقنى فى التوجه لم يأمن استثارة الديلم فى عصبيتى ، وربما تأدى الأمر إلى فساد كلى لايتلافى ، فرجع إلى الرسل وقالوا : سومحت(د) بالمرور ، فالزم دارك ، واغلق فى وجهك بابك ، إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، ويرى الملك فيك رأيه . فهالنى ذلك وراعنى ، وجهدت كل الجهد فى التملس(ﻫ) فلم أجد رخصته فيه . ولما كان بعد أيام قليلة دخل ابن المسلمة رسول الخليفة وتلقوه ببعض الحاشية الكبار فى ضميمة إليهم من الأتراك ولم يستصحبوا من الديلم واحدا ودخلوا به إلى الملك ، وسلم ما كان فى صحبته من الهدية المشتملة على ثياب السقلاطون الرفيعة والاستعمالات البغدادية ، وتماثيل الكافور الحسنة – على ما بلغنى – الطائلة ، فأنزلوه على طلبة نجيحة ، وحاجات من قبل دخوله مقضية إلا ما اقترحه من تسليمى فى يده ، فان الله تعالى بفضله أحسن الدفاع فى ذلك . ولما كان ذات يوم جاءنى رسول من عند ابن المسلمة صاحب الخليفة وذكر أنه يتعرف خبرك ، ويتغم(و) لما جرى عليك ، ويذكر أنه استقر فى نفسى ذكرُ فضلك فى نفسك وعلمك ورجاحتك ، غير أن تجاهرك بأمر تستنفر به العالم على نفسك ، وتقيمهم على ساق فى معاداتك ، وتستخصم معه الخليفة ، لانسان بمصر لا يضرك ولا ينفعك ، مما ليس له مدخل فى العقل ، ولا يليق صدور مثله من العقلاء الفهماء ، وينبغى أن تنزع عن هذا

(ا) فى د : الحدوثات . – (ب) سقطت فى د . – (ج) فى د : وان تصدر سؤال الخليفة .
(د) فى د : ما اسوأ . – (ﻫ) فى د : التماس . – (و) فى د : يتغم .

الرأى وتعدل عنه ، لأكاتب مجلس الخلافة فى بابك وأترضاه ، وأستدعى كتابه إلى حضرة الملك بما يصلح شأنك ، ويردك إلى المعهود من قربه وخدمته . فأجبت وقلت : إنك المشكور على حسن هذا الاهتمام ، غير أن الأمر الذى أنا بصدده أمر دعانى إليه التدين به ، واعتقاد اكتساب مرضاة الله فيه ، وليس اعتقادى فى هذا الانسان الذى هو بمصر وقلت إنه لا يضرنى ولا ينفعنى ، كاعتقادك فى مرسلك ، ولست بالذى يقف موقف المعتذر إليه ، ولو قتلت ألف قتلة ، ولم يكن لى فى خدمة الملك فائدة فيصبو قلبى إلى الرجوع إلى تلك الفائدة . ثم أن ابن المسلمة سار ، وكنت إلى حين انصرافه لا أعد نفسى فى غمار الأحياء خوفاً من تسليمى فى يده ، ومن بعد مسيره أيضا ما كنت آمن المكائد والمناصيب التى لم يزل المارق المقدم ذكره والخصوم عاكفين عليها بحضرة الملك ، فكنت إذا أصبحت لأرجو أن أمسى ، وإذا أمسيت لأرجو أن أصبح ، لما(ا) كنت بصدده من قصد العوام وبغتاتهم وكبساتهم(ب) فى الليالى والأوقات الغامضة ، لا سيما وقد ثبت فى نفوسهم أن السلطان خصمى ، وإنما تنكف عوادى العامة عن أمثالى مخيفة السلطان ، فاذا كان السلطان سالكا فى شعبهم فى المضادة والمشارة (ج) فما الذى يمنعهم ، لولا تفضل الله سبحانه ، وأخذه بالنواصى والأقدام منهم ، وكان يبلغنى كل يوم من البلاغات فيما يقع من التظاهر علىّ والاغراء بى ما ترجف الأرض من بعضه .

واتفق فى أثناء ما كنت بصدده من هذا الروع والفزع ومهاجرة الدعة والطمأنينة أن إنساناً من الحاشية — لا خلطة بينى وبينه ولا معرفة إلا طرفية — رأى فى منامه كما يرى النائم كأن أهل شيراز يسعون إلى مصلاهم على سنة الأعياد ، وأنه سأل عن موجب سعيهم وليس بيوم عيد ، فقال قائل إن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب (عليه السلام) هو فى المصلى يخطب الناس . قال الرجل : فأسرعت فى جملة المسرعين ، فاذا هو عليه السلام على كثيب من الرمل ، وهو يخطب خطبة معروفة عند من رأى الرؤيا على ما قاله ، فلما استتمها بسط يديه ورفعهما إلى السماء ، وبسط الناس أيديهم ببسطه لها ، وقال : اللهم اهلك من يؤذى فلاناً — يعنينى به — إلا أنه اشتبه(د) عليه نص حكايته عنه عليه السلام لفظة أهلك بعينها ، أو لفظة تشبهها فى معنى الهلاك ، قال الرجل : فانتبهت وأنا مذعور من هذه الرؤيا خائف ، وقلت فى نفسى إن القوم لعلى ضلال فى قصد هذا الانسان بالسوء ،

(ا) فى د : غير ما . — (ب) فى د : بياتهم . — (ج) فى ك : المساره .
(د) فى ك : اشتبه عليه على نص .

وتناوله بالمكروه وأن فلانا – عنى واحداً سماه – الذى هو من خلطاء الملك والمقربين (ا) منه هو صديقى ، والنصح له يتعين على ليكف بأسه عن هذا الانسان ، ويعتزل الظالمين له والواقعين فيه ، ولئلا يصطلى بنارهم ؛ فمضى الرجل إليه وأفرشه القصة فيما رأى فى منامه ، فتوجه ذلك الانسان إلى حضرة الملك وقص عليه رؤيا الرجل ، فملىء الملك رعباً منها (ب) وقال : لعل ذلك اختلاق ومواضعه ؛ فاستحضره ولم يبق من الايمان المغلظة بالله سبحانه ورسوله وملائكته وكتبه ورسله والطلاق والعتاق ما لم يستحلف به ، حتى ود الرجل لو ترك الكلام فى سر نفسه ، ولم يخرجه إليهم ناصحاً لهم بزعمه .

وكانت حالى واقفة على هيأتها نحو سبعة أشهر ، أبل بالدم ريقى ولا أعقل شيئاً من أسرى ، وأنا قاعد فى كن (ح) بيتى ، والباب مردود على وجهى . فبينما أنا جالس ذات يوم إذ قرع على الباب بهول فقيل : من على الباب ؟ قالوا فلان بن فلان أحد أصحاب الملك من الاضداد المبائنين بالشقاق الداخلين مع المارق المقدم ذكره مدخل كل بلية ، فدخل وقمت له وأكرمته فقال : أين (د) الكتاب الذى أحضره إليك كاتب فلان ، الفراش دار (ه) يحتاج أن ترده إلى حضرته . فسمعت (و) شيئاً نكرا لا علم لى به ، فقلت : أى كتاب ؟ قال ذلك النذل : كأنك لست تعرفه، وتشككنى فى عرفانك به مع ما صح لى من احضاره إياه بين يديك استراقا من صاحبه ، وتقرباً به إليك ، وقالوا إنك أحرقته . قلت له : فمطالبتك لى برد شئ أحرقته تكليف ما لا يطاق ؛ قال : فان الملك تقدم باحضار الكاتب المذكور وحبسه فى الخلاء فى شر موضع ، وهو متوعد بقطع يده الساعة إن لم ترده ؛ وقال الملك : إنى أعرف أنك تتحوب (ز) من أن ينال إنسان ضرراً تكون أنت سببه ، فجد على هذا البائس بيمينه ، وحام عليه من قطعها برد الكتاب ؛ قلت : إن شاء فليقطع يده ، وإن شاء فليقطع رأسه ، فما على حوب فيما يفعله به ، والكتاب المشار إليه لم أره ، ولم يقع بصرى عليه ، ولو قلت لى أى كتاب هو لعلى كنت أقع على مثله فأحمله إليه إن كان له بحضرته هذا النفاق العظيم ؛ قال : هو كتاب مصنوع فى إبطال أنساب أئمتكم (ح) الذين بمصر والابانة عن كونهم موهين مدلسين ، ونشر مطاوى مثالبهم ومعائبهم ، وإن هذا الكتاب أحضره العلوى الذى ناظرك ، فلما استتمت قراءته أسلمه الملك إلى فلان الفراش دار ليحتفظ به ، فحمله الفراش دار إلى بيته وأذكى كاتبه عينه على المكان الذى أودعه إياه ، فأخذه وجاء به إليك ؛ ولما كان هذا اليوم حضر وأرسل العلوى يطلبه

(ا) فى د : القريبة . – (ب) فى د : منه . – (ج) فى د : ركن . – (د) فى د : ان .
(ه) فى د : الفلاشلار . – (و) فى د : فسمعته . – (ز) فى د : تحوب . – (ح) فى د : أئمتك .

وقال : « إن كنتم غنيتم عنه فردوه إلى » فنسى الملك لمن أعطاه وإلى من سلمه ففكر فيه ملياً فتذكر ، وقال للفراش دار رده فقال : حتى أطلبه فى بيتى ، فذهب وعكس داره وخزائنه (ا) فلم يجده فيه ، فعرفوا أن كاتبه سلبه منه ، وأحضره عندك ؛ وتقرب به إلى قلبك ، بكونه من أهل مذهبك ؛ فقلت : والله ما وقع طرفى على هذا الكتاب ، ولا حضر بين يدى ، ومالى منه علم جملة ، وإن كان عندكم هذا الفرح به وبمثله فليس هو بالكبريت الأحمر ، إن أشباه ذلك وما هو فى معناه كثيرة ، والمواضع مشحونة منها بما صنعته أيدى السفلة وأعداء آل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنا أحصل لكم مثله إن شئتم ، وأفرح قلوبكم به . فخرج الرجل من عندى بعد مكاشفات جرت بينى وبينه ، وأحوال لم أعتمد فيها رفقاً ولا هوادة ، بل جردت لسانى عليه وعلى مرسله ؛ وقلت : إنى قاعد متهدف للموت ، وإننى ليعجبنى أن أكون مستشهداً بأيديكم ، فاقض يافرعون ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . وكان الكاتب البائس المتهم بسرقة الكتاب وحمله إلىّ باقياً على جملته فى الاعتقال ، إلى أن قضى الله من سواد وجوههم ما قضى ، وذلك أنه رجع الفراش دار إلى داره مهموماً لما يرى حلوله بكاتبه من البلاء ؛ فقالت جارية من جواريه : إنك كنت سلمت إلىّ دفتراً يوماً من الأيام فخبأته عندى فى مقرى ، ولعله هو المطلوب المحبوس كاتبك من أجله ، فقال الفراش دار هو المطلوب وليس المطلوب غيره ، فأخذه ورده إلى الملك فسقط فى يده ، وزاده ذلك خجلا على خجل .

فرار المؤيد من شيراز

ثم إن الملك هم بالمسير إلى الأهواز فى عامة العسكر ، ورأيت أننى إذا بقيت (ب) مكانى بشيراز لم آمن ما يتم على بغيتهم من حيلة ومكيدة ، فقلت الأحوط أن أكون فى الجملة ، ولا أفارق الجماعة ، فاستأذنت فى المسير معهم فمنعت ، واستحكم علىّ بالمنع سوء الظن ، وواصلت الرقاع بالسؤال فى الفسحة فيه فما صادفت إجابة ولا فى التشدد إلا زيادة ، فحملت نفسى على مركب صعب فى التملص ، ما هجس فى خاطرى ولا فى (حـ) خاطر أحد أننى أقدر على مثله ، وأشعرت أقوامى ومن يتعلق بى بشيراز أنه قد وقعت الاجابة إلى ما سألت فيه من التوجه وأننى سائر فى الصحبة متنكراً ، وأشعرت المتوجهين فى الصحبة أننى مقيم بشيراز على جملتى مستتراً ، وأننى أحمل معهم

(ا) فى د : خزانته . — (ب) فى ك : استبقيت . — (ج) سقطت فى د .

شيئاً من رحلى ودوابى وغلمانا(ا) لى ، وعملت على تنكير الزى والهيأة والدخول فى أطمار رثة ، واستبعت غلامين مجهولين ، وسلكت فى بعض المجاهل من الطرق ، أكترى من سرحلة إلى سرحلة حماراً أركبه ، أو جملا أو ثوراً على حسب ما يتفق ، وأتحمل فى خلال ذلك من مشقة المشى وخوض الأودية والوحول(ب) ، والصبر على مضض البرد والنزول على المواضع القذرة ما يكون الموت عند دائه شافياً . ومن أشد ما كان علىّ أننى كلما اكتريت حماراً أركبه رمت قطع الطريق به على الوحدة لئلا يرانى أحد ورام صاحبه أن يكون مع الرفقة اختلاط لبهيمته(ج) ، وكان يخلف مرادنا فى الوسط ، فكان يسألنى عما يوجب إيثار الوحدة التى جرت العادة بين المسافرين بضدها من طلب الرفقة ، فكنت معقول اللسان عن القيام بوجه العذر فيه . وكنت أحل(د) فى صوب الطريق بأقوام من الرّيافة وأهل السواد فاسمعهم يذكروننى من القبيح بما أعلم أنهم لو شعروا بى لكانوا يتطهرون بدمى ويصلون ، وحسبك بمن يقطع طرقات هذه سبيلها ويسمع بنفسه فى نفسه مثل تلك العظائم .

المؤيد فى جنابة

ومن المواضع التى أردت أن لا أوجد بها وأوخذ وكانت سلامتى منها من خفى ألطاف الله تعالى ، موضع يقال له جَنَّابة[1] وهو المكان الذى نبع(ه) منه أبو طاهر الجنابى[2] صاحب اللاحساء ، لأننى دخلته فى يوم مطير وانتبذ بى طلب الكن الذى أتوارى فيه من المطر إلى المسجد الجامع ، وكان سوق البليدة إلى جانبه ، فدخل واحد للصلاة يعرفنى باسمى ونسبى وجملة ما أنا عليه ، ولما وقع بصره علىّ دنا منى وتقرب إلى بما يتقرب به إلى من كان له فى الدنيا قدم ، ثم نظر إلى هيأتى وحالى وزيى وما أنا عليه فعلم أننى

(ا) فى ك : وغلمانى . — (ب) فى ك : الدخول . — (ج) فى د : لبهيمة .
(د) فى د : احد . — (ه) فى ك : نبغ .

---

(١) فى معجم ياقوت جنابه من قرى بحر فارس وفى النجوم ج ٣ ص ١٢٠ أنها من قرى الأهواز وقيل من قرى البحرين .

(٢) هو أبو طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابى ولى أمر قرامطة البحرين بعد أبيه فى خلافة المقتدر العباسى وهاجم البصرة سنة ٣١٠ ه وانتهب الكوفة واستولى على الرحبة والرقة وهو الذى أغار على مكة وانتزع الحجر الأسود وتوفى سنة ٣١٧ (راجع ابن الاثير وصلة تاريخ الطبرى والنجوم الزاهرة).

هارب ، وعرض علىّ نفسه وماله وقال : عسى أن يكون لك حاجة فأقضيها ، أو تريد ما يكون معك من فضل نفقة وعندى ما لا أدخر به ذخرا أجل منك . فقلت : بارك الله تعالى لك فى نفسك ومالك ، لا حاجة لى إليك أسس من أنك ما رأيتنى وأننى ما رأيتك . وجاءنى إنسان آخر علوى وسأل أحد غلامىّ عنى فقال إنه شريف وارد من كرمان ومتوجه إلى بغداد ، فقيل ما هكذا قيل عنه(ا) ، فتقدم إلىَّ وسلم علىّ وأكرمته وأحفيت به ، وقال : كأننى أعرف الشريف حرسه الله تعالى ؛ فقلت : يجوز أن يكون ذلك . قال : لقيته بالأهواز ، قلت : قد كنت بها لعمرى . قال فى الموضع المعروف بقصر المأمون وعهدى بالشريف وهو يبنى هناك بناء ، وأشار إلى المشهد (ب) الذى هو أصل البلية النازلة بى ، فقلت : ما أعرف هذه المحلة ولم أدخل الأهواز إلا جوازا ، ومن أين لى ما يتسع للبناء وأنا فى شغل عنه بنفسى . قال : مالى(ج) أساترك ، قالوا إنك فلان بتعظيم وتفخيم فى الذكر ، فقلت : قد سمعت باسم هذا الرجل ، إنه إنسان كبير (د) الشأن ، متملك لقادة الديلم عظيم المنزلة ، إلا أنى ما رأيته ، وقد يشبه الناس الناس ، وربما يشبهنى به المشبه قال : فقد قال قوم للعامل إن الوجه أن تحتاط عليه ، فربما كان هارباً من السلطان ، وإذا أخذته حصلت لك بحضرته مكانة فهمّ بتعويقك ، فأشرت عليه بأن يضرب عن هذا الحديث فى الذكر صفحاً وقلت لست بمأمور بذلك ولا مطالب به ، وليس يخلو الأمر من كون هذا الانسان هو المشار إليه أو غيره ، فان كان هو المشار إليه لم يف تجردك لعداوته وعداوة الديلم قاطبة فيه بالثواب الذى يتحصل لك فى أخذه ، وإن كان غيره فقد أوحشت رجلا غريباً وعوقته عن موضع قصده وحصلت على خجل من أمره ، فقال الصواب معك ، وقبل(ه) مشورتى فى أمرك ، والآن فأريد أن تأخذ منى ما شئت من مال وتجعله عدة فى طريقك ، وتكرمنى وتشرفنى بذلك ، فجزيته خيرا . ودخل إلى ثالث غير نصبة من تقدم وسلم وتقرب وقال : إنه كثر الخوض فيك فى هذه البليدة ، فبين قائل يقول : إنك ظهير الدين[1] الذى هو صاحب البصرة قد أفلت من محبسه وهو

(ا) فى د : فيه . — (ب) فى ك : المسجد . — (ج) فى د : لم لى .
(د) فى د : كثير . — (ه) فى د : اقبل .

---

(١) هو ظهير الدين أبو القاسم استولى على ملك البصرة بعد وفاة بختيار متوليها سنة ٤٢٤ ﻫ وقد عصى على أبى كاليجار مرة وصار فى طاعة جلال الدولة ثم فارق طاعته وعاد إلى طاعة أبى كاليجار حتى اتفق أن تعرض ظهير الدين إلى أملاك ابن مكرم صاحب عمان فاستنجد هذا بأبى كاليجار فأرسلت الجيوش إلى البصرة واستولت عليها سنة ٤٣١. وأسر ظهير الدين وحبس فى الأهواز (ابن الأثير ج ٩ ص ٢٩٢ و ص ٣١٨) .

راجع إلى البصرة ، وقائل يقول : إنك فلان وسماني بتسمية(ا) المشتاق الواله المحب المظهر من نفسه أنه من ذوى التحرق فى الولاء والتشيع ، فقلت : يا إنسان ما أنا من الرجلين المذكورين بشئ ، وإنما أنا رجل علوى عابر سبيل ، قال الرجل : فلى إليك حاجة . قلت : وما هى ؟ قال : أن تكتب لى بخط يدك دعاء أتبرك به ، قلت : أما كتب الدعاء فما يقعدنى عنه شئ ، وأما أخذك له على سبيل التبرك بكونه خط الرجل الذى أشرت إليه فما أنا هو ولا تبرك بخطى ولا بخطه على رأيى ومذهبى ؛ قال الرجل : رضيت بذلك فاكتبه ، قلت له : فلى إليك إيضاً حاجة فاقضها لتكون حاجة بحاجة ؛ فقال : وما هى ؟ قلت : أريد حمارا لتكتريه لأنصرف من هذا الموضع ؛ قال : سمعاً وطاعة . فانصرف الرجل فى طلب(ب) اكتراء الحمار ، وتشاغلت بكتب ما طلبه ، فجاءنى بعد ساعة بمكار وكان اكترى منه ووافقه على الكرى ، فوزن له قلت : فأين الحمار لأركبه ونرتحل ؟ قال : آتيك به الساعة فهو فى بعض القرى ، فانصرف عنى صبيحة ، وجاء وقت الأولى ولم يعد ، وقارب العصر ولم يعد ، وما شككت فى كونى معوقاً من جهة العامل مأخوذاً ، وأنه نهى المكارى عن العودة إلىّ وأذكى علىّ العيون إن برحت من الموضع أن يلزمونى ؛ وما كنت بالذى يقدر على المشى فأفوت طالبى لو رمت هربا ، وقامت علىّ القيامة من هذه الجهة ، فوجهت فى طلب الرجل الذى أتى بالمكارى ، وقلت له : إن الرجل تقاعد بى ولم يعد وكان تقرر بينى وبينه أن يعود من ساعته ، ولو تفضلت وتوجهت على أثره وجئت به مع الحمار لكان براً لا أنهض لحق شكره فقال : السمع والطاعة . وتوجه لوقته وإذا هو مقبل ومعه المكارى والحمار قبيل الغياب ، فسرنا وأنا لا أصدق أننى ناج من تلك الخطة ؛ وأنظر إلى ورائى هل تبعنى أحد ؛ فسرنا وبتنا فى قصر خراب على شاطئ البحر ، هو بالحقيقة أحد ملاعب الجِنة وكنت عند دخوله كمن زحزح عن النار وأدخل الجَنّة . فلما أصبحنا سرنا إلى حيث يسر الله تعالى وكان هذا دأبى مدة شهر كامل سفراً فى مقاسات شظف العيش ، واشتمالا على ملبس الروع ، واستكمالا من كل أذى ومحنة للجنس والنوع ، حتى دخلت منزلى بالأهواز عشياً سابقاً لدخول الملك إياها ، إذ كان الملك أقام فى الطريق ما بين شيراز والأهواز برهة تعريجاً على المتنزهات والمتفرجات ، حتى أقام فى بلد يسمى سابور — على ثلاثة مراحل من شيراز — شهراً وكان فى تضاعيف مقامه به نفذ إليه كتاب الترتيب بكونى مغيب الشخص وأننى مذ سار ركابه خافى العين والأثر ، وأنه وقعت الاشاعة بمسيرى فى صحبته متنكرا ، فأخذه الوسواس من هذه البلاغة ، وسمعت أنه أقام العيون والجواسيس فى خيام الديلم

(ا) فى د : اتمنى بتنميه . — (ب) سقطت فى د .

ورحالاتهم ليستصح فى أى موضع أنا ، ثم أنه كان يتقدم بضم أطراف المضائق وتأمل الخيالة والرجالة واحداً بعد واحد وكشف وجوه من كان فيهم متلثما فى عدة مواضع ، وكان ذلك كله سعيا فى ضياع ، لكونى مختبطا فى المجهلة التى قدمت ذكرها لا فى جملتهم ؛ فلما سلم الله برحمته .

المؤيد فى الاهواز

وحصلت بالأهواز ألفيت(١) الوزير بها والعسكر قد تحملوا عنها منذ أيام مستقبلين للملك ، ولم يبق فى الموضع إلا من لا قدرة له على المسير ، فلما كان صبيحة غد من عشية دخولى جلست للناس ظاهراً مكشوفاً ، وازدحم علىّ الزوار من بقايا القوم ، وانتهى الخبر بورودى إلى قاضى القضاة ابن المشترى الذى كان الأساس فى مكاتبة الخليفة واستنفاره واستدعاء كتابه ورسوله وهديته ، فلم يدر من الأرض خرجت أو من السماء نزلت ، فما شعرت إلا وقد جاء الاذن بكونه على باب الدار يستأذن فى الدخول ، فدخل وهنأنى بالسلامة وأظهر التغم لما جرى علىّ من الحالة ، شبه الولى الحميم . فقلت : ما كان بحمد الله إلا خيراً وانصرف . ونفذت كتب الترتيب على انفراد والسعاة على انفراد إلى الملك بذكر حصولى بالأهواز ودخول الناس إلىّ غير مفكر ولا مكترث ؛ فامتلأ غيظاً وحنقاً من ذلك ؛ ووجد المارق لعنه الله ومن كان من شيعته الطريق إلى القول ، فقالوا إنه عصى أمرك فى مفارقة شيراز ، وكنت حتمت عليه ألا يفارقها وسابقك إلى الأهواز ليثير الفتنة ويشغب ويغرى الديلم بعصيانك والخروج عليك ، حتى صار يفور من غيظه وغضبه ، ويحلف بالله ليفعلن بى وليصنعن إيعاداً كنت شيبت ناصيتى فى سماع مثله ، ووثقت بحسن كفاية الله تعالى وكفانيه ، ولم يزل يتراكم هذا التواعد منه على اسماع قوم يحبوننى ويكرموننى فيضعف منتهم ، ويخمد نفوسهم ، وهم يكاتبوننى ويرعبوننى ويستحلفوننى بالايمان المغلظة أن أتخلى عن الأهواز وأحصل فى حلة منصور بن الحسين(١) أحد أمراء

---

(١) فى ط : لا من لاقيت .

---

(١) هو منصور بن الحسين الأسدى الذى ملك الجزيرة الدبيسية بجوار خوزستان سنة ٤١٨ وقطع خطبة جلال الدولة البويهى وخطب للملك أبى كاليجار (ابن الاثير ج ٩ ص ٢٦٠) ومن هنا نفهم الدالة التى كانت لمنصور على أبى كاليجار .

البوادى ، ريثما تنطفى وقدة النائرة ، فاحتجت بحكم الاحتشام منهم أن أستجيب لهم ، ولو خلونى ورأيى لاستقررت فى موضعى ، وما زلت ولاعبأت بوعيده ثقة بالله سبحانه كما لم أعبأ بكثير من أمثاله . فقمت ونهضت إلى حلة الأمير المذكور جزاه الله خيراً — للأمر المقدور لزيالى عن تلك الديار ، فقرب ورحب ، ولم يقصر فى الجميل ، وسألنى عن مجرى الحال ، فقصصت عليه القصص ؛ فقال : أبشر بما يسرك(ا) ؛ فما هو إلا أن يحصل الملك بالأهواز وأسير إليه وأسعى فى استصلاح شأنك معه . فلما حصل الملك بالأهواز سار إليه وخاطبه فى أمرى فأفضى إليه الملك بجميع السرائر فيما احتالوا علىّ ، ونصبوا المناصيب ، فيما يتأدى به الضرر إلىّ ، وإذا جميعه على السكة التى كنت أوردتها على منصور مما أودعته الآن بطن هذه الصحيفة لم يخلف منها شئ ، وقال منصور عند عوده : إنه اعترف بجميع ما قلته ، فكأنكما بلسان واحد نطقتما ، وسأل فى رجوعى إلى مستقرى بالأهواز ، فكأنه لان فيه لينا ما ، سوى أنه أراد أن لا يكون ذلك على الفور بمفارقتى تلك الديار ، فانه اتفق فى غضون ما نحن فيه موت ملك بغداد الذى هو أبو طاهر[1] وتأكدت رغبة أبى كاليجار فى تملكها(ب) وكان ذلك شيئاً لايكاد يبلغه إلا بنصرة الخليفة ورضائه وأمره ، فصار هذا الباب غلقاً فى أمرى وسداً فى وجه مرادى وأقمت فى الحلة المذكورة نحو سبعة أشهر لايتوجه لى عود إلى منزلى ، ولا قصد لموضع آخر وأخذنى ضيق الصدر بحقه ، وجعلت فى نفسى أن أقوم وجهاً واحداً وأرجع إلى الأهواز رجوع مستسلم للقضاء ، وأشعرت منصور ابن الحسين بما عقدت عليه عزمى ، فلا أدرى أهو الذى طالع به أم غيره ، فاذا أنا بكتاب بعد كتاب يرد من الملك ويعرض علىّ ، مترجم به إلى منصور بن الحسين مضمونه ؛ إنك من الشفقة على ملكنا ودولتنا بحيث لا تعتمد لأحد هوادة فيه ، وترى مراعاة زمامنا فى هذا الباب أمس مراعاة زمام كل نزيل عليك ، ومستند إليك ، وقد عرفت صورة أبى فلان أحسن الله توفيقه وأننا كل يوم فى صداع من جهة الديلم باحتجاجات باطلة يتشبثون بها ظاهراً وهو مغزاهم وغرضهم منها باطناً ، ثم أنه قامت رغبتنا فى بغداد وامتلاكها وليس يكاد يتم الغرض فيه إلا بالمجلس الخليفى الامامى ، وإذا استقر به العلم أن

(ا) فى د : سرك . — (ب) فى د : تملكهما .

---

(١) الأمير جلال الدولة بن بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة بويه بن ركن الدين الحسن ولد سنة ٣٨٣ ومات فى شعبان سنة ٤٣٥ (ابن الاثير ج ٩ ص ٣٥٢ ومختصر الدولة ص ٣٢٠ ولكن الذى فى النجوم ج ٥ ص ٣٧ أنه توفى فى شعبان سنة ٤٣٦) .

هذا الانسان مقيم بفناء حضرتنا على جملته كان ذلك ردماً فى وجه ما نؤثر بلوغه ، وحاجزاً بيننا وبينه ، وقد انتهى إلينا أنه على معاودة الأهواز ، فالله الله أن توجده سبيلا إلى ذلك فانه إن عاود وقعت فتنة نصلى بنارها صليا .

المؤيد فى طريقه الى مصر

وكنت مترجحاً بين أن لا أحفل بهذه الكتب وأعود ظاهراً أو خفياً ، إذ ورد الخبر بما كان حمل من الحضرة العالية النبوية من الخلع والألقاب إلى قرواش[1] فكان سبق ذلك بسنة أو سنتين من حشو أقوال المنجمين أن القران العظيم الكائن فى تلك السنتين يقتضى أن تزول دولة بنى العباس وتنتقل إلى آل أبى طالب كتنقلها من بنى أمية إلى بنى العباس ، ما قامت فى نفسى أمارته لمصدوقة قولهم بخبر قرواش وخلعه ، وقلت لم لا أنهض وأزور المشهدين بالكوفة والحيرة صلوات الله على ساكنيهما ، فأتعجل سعادة بذلك وأبلغ إلى قرواش وأشاهد الحال عنده ، فلئن كان مأموراً بشئ يفعله فاننى أقع منه موقع المرهم من الجرح ، فبنيت على المسير أمرى واستدعيت من الأمير منصور من الفرسان الجياد من وصل جناحى إلى أن حصلت فى حلة ابن مزيد[2] وأخذت منها(ا) صوب الزيارة وشفيت صدرى منها ثم تقربت إلى قرواش فرأيته منحوساً مطموساً لا يسلك فى شعب مما كنت أرجوه فيه من الخير وكان يتصل إلى الخليفة من اشتماله على تلك الخلع وتقذ إليه من عنده من سود(ب) الشعار التى هى كصحيفته(ج) ما جعله كفارة لذنوبه ، ولما حصلت هناك وجدتنى منعت(د) عن ديارى ، وبقيت بين الباب والدار ولم أجد وجها دون التبلغ إلى الحضرة النبوية ، ولو سهل الله جل اسمه وصبرت بالموصل تمام سنة لكان رجوعى إلى مستقرى متيسراً ممكناً بما جاءت به المقادير التى أجاب الله تعالى فيها دعوة أمير المؤمنين على بن أبى طالب

(ا) فى د : منه . — (ب) فى د : سواد .
(ج) فى د : كصحيفه . — (د) فى د : امعنت .

(١) هو أبو المنيع قرواش بن المقلد أمير بنى عقيل وكان الخليفة الحاكم الفاطمى أول من استماله فخطب له ببلاده ثم رجع عن ذلك ولقبه الخليفة القادر العباسى بمعتمد الدولة ثم عاد فدعا للفاطميين وتوفى سنة ٤٤٢ هـ (النجوم ج ٥ ص ٤٩ . تاريخ مختصر الدول ص ٣١١) .
(٢) فى معجم البلدان : حلة دبيس بن مزيد فى أرض بابل .

بهلاك من ظلمنى وقصدنى ، وذلك أننى بعد الاستقرار بالحضرة النبوية بمديدة قريبة سمعت من شرح ما رساهم الله سبحانه وله الحمد به من سهم الخوف والحتوف مما هو عبرة لذوى الأبصار ، وعظة لمن سار سيرتهم من الأشرار ، وهو أن أبا كاليجار أتى من مأمنه ومكان أنسه وسكونه فقام عليه أقرب الناس إليه وأجلهم منزلة لديه أستاذ كان يسمى «سعاده(ا)» باتفاق من بعض حرم الرجل الذى هو أبو كاليجار وحظاياه ومشاورة لندمائه المختلطين (ب) به أن يسقوه سقية ليستريحوا من مقاساته ويجلسوا أحد أولاده الصغار ممن لا يجرح بناب ولا ظفر ليكون اسم الملك له وجسمه لهؤلاء ويعيشوا (ج) كيف أحبوا ، وكنت فى مقامى بين ظهرانيهم أتلوح (د) مما هم عليه لائحة وأشم منه رائحة ، وكان تمام الأمر بعد خروجى ، لأنه ما كان استنفد أكله وبقيت له بقية يسيرة من العمر فنم عليهم بما هم فيه صبى أستاذ أبيض اسمه « مشرق » إن القوم يأتمرون بك ليقتلوك فارتجف من هذا ، وفتح عينيه لأخذ البرئ بالسقيم والغث بالسمين حتى كشف الغطاء ، فأخذ سعادة المقدم ذكره الذى كان روحه كروحه ، فقتله قتلا لم يسمع بأصعب منه ، فيوما قطع أنفه ، ويوما قلع عينه . ويوما كوى جسده بالمكاوى حتى تبرم المعاقب بكثرة ما كان يعاقبه فضلا عن المعاقب ، وبلغنى أنه صلب على جذع خنقا ، فحين أدنى من الجذع كان كمن لاقى الفرج ، فجر الحبل بيده مسرعاً ورماه فى حلقومه حتى اختنق ، وألحقه الله تعالى بعمله فلقد كان عدة الظالمين فيما بلغوه من ظلمى ، وعكف على الباقين فمنهم من أخذ لنفسه وهرب ، ومنهم من أخذته نقمته وغلبت عليهم جميعاً الشقوة بحمد الله ومنه حتى لم يبق أحد خدشنى منهم خدشة بقول أو فعل إلا وقد نكل الله به ، وأذاقه وبال أمره فضلا منه ورحمة ، وإجابة لدعوة أمير المؤمنين علىّ عليه السلام مما كان رآه الرائى فى منامه ، وما كنت استغثت به لدى الحصول على شفير قبره[1] وتمريغى الخد فى ضريحه عليه السلام ، فقام بذلك علم معجز له عليه السلام ، يتحدث به إلى آخر الدهر فى ديار فارس ، فلما بلغنى خبر هذه الحوادث علمت أننى لو كنت بالقرب لما عدمت عودة جميلة تسر الولى وتكبت العدو ، ولكن السهم مرق وحصلت بالعدوة القصوى ، فعند ذلك كتبت إلى حضرة الملك كتابا بالدعاء والثناء حسب ما يكتب إلى الموالى

(ا) فى د : سقادة . — (ب) فى د : المخلطين .
(ج) فى د : يعيشوا . — (د) فى د : الوح .

---

(١) انظر القصيدة الخامسة والأربعين من ديوان المؤيد داعى الدعاة التى استغاث فيها بقبر على ابن أبى طالب ودعا على أعدائه الذين أخرجوه من دياره .

والأصحاب ، وعرفت من فحوى الجواب وغيره من البلاغات الصادقة أنه كان على أن يبدأني (ا) بالمكاتبة ويرسل إلى رسولا قاصداً ، فلما ورد كتابي عليه كان كمن نشد ضالته رحمه الله فاستحضر رسولى وكلمه من الكلام الجميل بما ذكرنى به عهد مودته وعفى موقع حسنته معه على أثر سيئته وأجاب عن كتابي بما هذه نسخته :

خطاب أبي كاليجار الى المؤيد

العنوان «لشيخنا وظهيرنا ومعتمدنا ، المؤيد فى الدين عصمة أمير المؤمنين أبي نصر (ب) أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده وسعادته وكفايته» وتمهيده «من شاهنشاه المعظم ملك الملوك محيي دين الله ، وغياث عباد الله ، وقسيم خليفة الله ، أبي كاليجار سلطان الدولة معز أمير المؤمنين» قدكان لقبه الخليفة شاهنشاه المعظم عماد دين الله وغياث عباد الله ويمين خليفة الله فلما كانت منه الكائنة فى أسرى قُربة إليه جعله محيي دين الله وأخواته مما هو مكتوب فى العنوان — مضمون الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم . أطال الله بقاءك يا شيخنا وظهيرنا ومعتمدنا المؤيد فى الدين عصمة أمير المؤمنين ، وأدام عزك وتأييدك وسعادتك وأتم نعمته عليك ، وزاد فى إحسانه إليك ، وفضله عندك وجميل مواهبه وسنى فوائده وجزيل منحه وقسمه لديك . كتابنا إليك أدام الله تمهيدك من شيراز يوم الجمعة رابع شوال عن سلامة ومزيد عز وقدرة ، والحمد لله وحده وصلواته على النبي محمد وعترته الطاهرين . ووصل كتابك وفهمناه واستوعبنا مودعه وتصورناه ، وعرفنا ما ذكرته من أنك مع تقلب الأحوال بك ، وتنقلها على الاخلاص المألوف منك فى خدمتنا مستقيم وللدعاء لأيامنا مقيم ، ووثقنا به ، ولم يتخالجنا شك فيه ، وتبركنا بما أوردته من الأدعية ، وتحققنا صدوره عن خلوص العقيدة والنية ، ووجدنا بمعرفة خبرك فى وصولك سالما إلى مقصدك أنساً يقتضيه جميل رأينا فيك ، ورعايتنا لأواصرك (ج) ودواعيك ؛ فأما ما كتبت به من أنك لما مثلت بتلك الحضرة الشريفة حرس الله عزها ، وبدأت بوصف ما عرفته من خلوص سريرتنا فى محبتها ، وتمسكنا بشرائط مودتها ، وثنيت (د) بذكر ما شملك من حسن ملاحظاتنا فى أثناء تلك الأسباب التى جرت فاحتجت فى دفع غائلتها والتوقى من عاديتها إلى مفارقة مكانك ، والتنائى عن أوطانك فقد

(ا) فى د : يسديني . — (ب) فى ك : أبي النصر .
(ج) فى د : أواسرك . — (د) فى د : تثنيت .

علمناه ، ووجدنا ما أتيته فى اطلاع تلك الحضرة الشريفة على كنه اعتقادنا فى مصافاتها مصدقاً لحسن المخيلة فيك ، وجميل الظن بك ، واعتددنا بهذه القربة الطارفة(ا) التى أكدت بها زلفك السالفة ، وازددنا استبصاراً برجاحتك ، وتمثلا بجزالتك ، وحرصا على اختصاصك بصنوف الأنعام الغمر وتوفير قسمك من الاحسان الدثر ، ولاشك فى أنك تتذكر ما كنت تبذله عند كونك بحضرتنا من التوصل إلى تمهيد المودة بيننا وبين تلك الجهة المحروسة والتطريق إلى أن تأتينا منها فى الفينة بعد الفينة الكتب والرسائل التى بها يستحكم الوداد ، وبمكانها يبدو خلوص الاعتقاد ، ومع ما اتفق من حصولك بذلك المكان وابتدائك بما ابتدأت به فى هذا الباب ، فيجب أن تحقق ما كنت تبذله ، وتصور لتلك الحضرة الشريفة ، دامت بالعز مكنوفة ، ما اطلعت عليه من شواهد صفاء عقيدتنا فى مخالصتها ، وإيثارنا انتظام شمل سعاداتها واستقامة أمور مملكتها ، وتعلمها أن هؤلاء التركمان المسئولين على أعمال خراسان والرى لا يقصر خطاهم عن بلادها المحروسة إلا ثبات عساكرنا المنصورة فى وجوههم ، وانصراف هممنا إلى قمعهم وفل غربهم ، وبذلنا الأموال فى كف عاديتهم ، وانتداب جيوشنا الموفورة لمقارعتهم ، أين نجحوا وأين نبغوا ، ولولا أننا ضربنا بينهم وبين تلك المملكة المحروسة بالاسداد ، وتجردنا لممانعتهم التى هى أكثر جهادنا لما سلمت أكنافها من عوادى طغيانهم ، ولأضرمت فيها نيران غيهم وعدوانهم ، وأنهم لا يتجسرون إلا على حصولنا كالسد بينهم وبينها ، ولا يتمنون إلا أن يتسهل لهم السبيل إلى قصدها ، ولن يتم لهم باذن الله هذا المرام ، ولا تسعفهم به الأيام ، فاننا متجردون للانقضاض عليهم متى تجاوزوا حدود أعمالهم قيس شبر ، وعازمون على تلقيهم إن ساقهم حينهم إلى حيث تلى ممالكنا بقاصمة الظهر ، ولتتيقن — حرس الله نعمتها — أن لها من الانتفاع بمودتنا الحظ الأوفى والقسم الأوفر الأسنى ؛ ومع ذلك فقد حدّث هؤلاء الأشرار نفوسهم بقصد الموصل على طريق أذربيجان ، وإن تم لهم ذلك لم يؤمن من استعارة نيران الفتن من جهتهم فى أكناف تلك المملكة ؛ وأما ما أنهيته من شرح ما صادفته هناك من الانعام وضروب الافضال والاحسان ، فقد علمناه وكل ما تخص به من حبأ (١) وتخويل ، ونزل إليك من بر جزيل ، فانه دون ما تستوجبه ، وقاصر عما تستحقه ، ولقد أنسنا بمعرفة هذه الجملة عن خبرك ، وحمدناك على انهائك إياها ونريد

(ا) فى د : المطروقة .

---

(١) الحبأ : جليس الملك وخاصته .

أن تزيد فى شرح حالك وصورتك ، ومجارى أمرك ، فاننا نؤثر معرفة ذلك (وبعد) فأنت تعلم وفور أنسنا كان يقربك ، وأننا ما أخليناك عند جرى تلك الأسباب من الملاحظة الجميلة التى كفتك غوائل من كانوا يقصدونك ، ولولا أن الصلاح لك كان فى ذلك مفارقة هذه البلاد ، لما قنعنا منك بهذا البعاد ، ونحن الآن مؤثرون اقترابك ، ومترقبون إيابك ، إلا أنه لا يجوز أن تفارق تلك الحضرة الشريفة بعد تحملك فى التبلغ إليها المشقة الكثيرة التى حصلت لك بازائها من مثولك بها ، وتمكينك من أحكام مبانى(ا) المودة بيننا وبينها أكثر فائدة وأسنى غنيمة إلا بعد أن تقرر معها قاعدة لائقة بمودتنا ، وتتوصل إلى أن ينفذ منها إلينا قبل مجيئك كتاب نستدل به على ما سعيت فيه من هذا الباب ، وكنا نؤثر منذ زمان طويل مكاتبتك بهذه الجملة ، ولما ورد من جهتك موصل هذا الجواب وعلمنا أنه ثقة مسكون إليه ، أصحبناه هذه المخاطبة ، وحرصنا على أن نشفعها بكتاب إلى تلك الحضرة الشريفة — حرس الله عزها — إلا أننا توقفنا عن إمضاء الرأى فى إصداره إيثارا لأن يكون ذلك بعد أن تشير(ب)به ، وإذا فرغت من هذا المهم الذى عولنا فيه عليك ، وعدت إلى هذه الديار صادفت عندنا من الاتحاف والانعام أفضل ما تريده ، واسنى ما تبتغيه وتريفه ، فرأيك أدام الله تمهيدك فى الوقوف على ما كتبناه ، وتصوره واعتماد ما حددناه ، ومكاتبة حضرتنا فى الجواب بكتابك فيه وباخبارك وأحوالك وما تراعيه من تلقائك موفقا إن شاء الله تعالى » .

ثم أنه مكث غير بعيد حتى توجه إلى بلاد كرمان لمال يحوزه من جانب خليفة[١] كان له بها ذكر أنه تمانع عليه . واعتصم بقلعة يقال لها قلعة «يزدشير»(ج) عنه فقطع مصانعته وحاسر من جهته ما أمكنه ، وقام يرجع إلى بلاد فارس فقيل إنه عرض له فى طريقه عارض الخناق فجأة فقضى عليه ، وقيل بل كانت السقية على جملتها معدودة له فاسقيها(د) فتراكضت خيل المنية إليه[٢] والله تعالى أعلم بما كان منه رحمه الله . فهذه قصته وقصتى وحديثى معه .

(ا) سقطت فى ك . — (ب) فى د : تسير .
(ج) فى ك : يزد شيراز وفى (ابن الأثير ج ٩ ص ٣٧٣) [برد سير] . — (د) فى د : فاسقاها .

---

(١) ذلك الخليفة الذى ذكره المؤيد هنا هو بهرام بن لشكرستان الديلمى (ابن الاثير ج٩ ص٣٧٣).
(٢) رواية ابن الاثير ان بى كاليجار لما سار لقتال بهرام بن لشكرستان بلغ قصر مجاشع فوجد فى حلقه خشونه فلم يبال بها وشرب وتصيد وأكل من كبد غزال شوى واشتدت علته ولحقه حمى وضعف عن الركوب ولم يمكنه المقام لعدم الميرة بذلك المنزل فحمل فى محفته على أعناق الرجال إلى مدينة جناب فتوفى بها سنة ٤٤٠ ﻫ (ابن الأثير ج ٩ ص ٣٧٣) .

ولما حصلت بالحضرة الشريفة على النصبة المقدم ذكرها كنت استصحبت إليها من البضاعة ما كانت تحدثنى نفسى أننى به أفلح ، وبه يكون توجهى وتقدمى ، ومنه أطأ فوق النجوم بقدمى لكون متجرى فيها ربيحاً ، وسعيى نجيحا ، وكونى بالفضل معها مبرزا ، وعن كل قرن متميزا ، فكشف لى الزمان عن كون البضاعة التى كان رجائى فيها هذا الرجاء بائرة كاسدة مسترذلة مستذلة ، فسقط فى يدى وعمى علىّ طريق رشدى ، وقلت الآن ضل السعى وخاب الأمل ، وبطل المعتمد عليه والمتكل ، وألجأتنى الضرورة إلى غيرها من بضاعة مزجاة ما كنت أعتدتها طول دهرى ، إذ كان حظى منها كحظ غيرى ، فلولا أنها تقوم بى وتريش قليلا سهمى ، لما قامت لى راية فى مجامع الناس ، ولتلاعبت بى أيدى الأوضاع منهم والخساس ، فأنا أسأل الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وآله جميل(١) العقبى والتوفيق بخير الآخرة والأولى برحمته ، ونختم القول بالحمد لله رب العالمين والصلاة على صفوته من خلقه محمد وآله الطاهرين وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) ك : حميد .

المؤيد فى مصر

بسم الله الرحمن الرحيم (وبه نستعين) . وصل كتابك يا أخى أطال الله بقاءك تترثى لى عن محن تشرق معى إن شرقت ، وتغرب إن غربت ، وتصعد بصحبتى إن صعدت ، وتصوب إن صوبت ، فأنا أينما استقر بى القرار أمارس منها ما لا قرار على قليل من كثيره ، ولا اصطبار على جزء من أجزائه ، وتذكر ما بلغك(ا) من دفع الزمان لى فى البقعة التى خلتها مثابتى وأمنى ، إلى ما ذاب فيه جسمى(ب) ووهن عظمى ، وأنا متحمل على الفؤاد من الألم ثقلا ثقيلا ، من شر أقسامه كون لسان الشكوى عنه معقولا .

وتسأل (عن شرح أحوالى لك ما أجد به خفاً عن قلبى وتنفيساً لبعض(ج) كربى ، إذ كنت من أوفر الناس بى براً ، وأصونهم لى سراً ، ولك فى المروة المقام المشهود الذى لا ينكر ، فلا أخاف منك انتشار الحديث وحظك فى ستره أوفر ؛ فأعلمك يا أخى — روح الله سرك ولقاك فى الدارين ما سرك — أننى بعد مقاسات الأهوال التى رأيتها عيانا ، واستوفت قراءتك لكتابها مضموناً وعنوانا ، بلغت بشق النفس الباب الطاهر ، مترجحاً بين أمل ويأس ، ومتعقباً(د) لملتقى ما يلقانى من طرفَىْ إيحاش وإيناس ، فأما الأمل فمن جهة خدمة ما خدم مثلها غيرى ، حدانى فى حاديها ، ونادانى بالأهل والمرحب مناديها ؛ وأما اليأس فمن حيث علمت أن المقصود شمس توارت بالحجاب ، ووجه نهار(ه) تبرقع بالسحاب[1] وأن المسافة لعلها تقذفنى من الاضاعة فى يم ، وتؤدينى من حيث أردت غنما إلى غرم ، فكنت أناجى طول الطريق صحبى وقومى ، وأقول لهم : يا قومنا تعلمون أننا فى برية من الأمل لا نعلم أتفضى بنا إلى عمارة التحقيق أم خراب اليأس ، فان حصلنا على العمارة عشنا وعشتم (و) ، وإن حصلنا على الخراب فليتخذ كل منكم للخلاص بنفسه بوجه من وجوه المكاسب مطيا ، وليأخذ فى طلب معيشته صراطاً سويا ، فلست بالرجل الذى يقف لصلاح

(ا) فى ك : بلغت . — (ب) فى د : جشمى (والجشم : السمن) .
(ج) سقطت هذه الجملة من : د . — (د) فى د : متعبيا لملقى .
(ه) فى د : نهارها . — (و) فى ك : عشتم وعشنا .

---

(١) يقصد بذلك أن السلطة الفعلية فى البلاد لم تكن فى يد إمامه المستنصر بالله ، إنما كان محجوراً عليه من أمه ورجالها الذين كان إليهم الأمر كله فسلبوا من المستنصر كل شئ سوى الخطبة ، ولم يشأ المؤيد أن يصرح بذلك تأدباً منه فى حديثه عن إمامه .

حالكم على الأبواب ، ولا من يلبس لبوس الطمع فيكنى عن العبدان بالأرباب . حتى إذا (ا) كشفت عن مقصدنا ستور القفار ، وأنخنا به فألقينا عصا التسيار ، أدخلونى من باب القاهرة المعزية إلى قصر الخلافة — عمره الله تعالى — فاستلمت على جارى العادة فى مثله الأبواب (ولحت الثريا ترابا تحت قدمى) (ب) إذ ترشفت ذاك التراب ، وأجلسونى هنيهة لأفيق من غشية الهيبة التى ملأت جوانحى لما غشيت المسرة بمشاهدة ذلك المقام قلبى وجوارحى ، ثم أدخلونى إلى الوزير المعروف كان بالفلاحى[1] رحمه الله فرأيت شيخاً عليه من الوقار مسحة ، ومن الانسانية سمة ، فأدنى وقرب وأكرم ورحب ، وخرجت فأخذونى إلى دويرة كانت فرشت لى هى من الكرامة فى الدرجة الوسطى من الحال ، لابالاكثار ولابالاقلال .

المؤيد والتسترى

وقيل إن ها هنا يهودياً يكنى أبا سعد التسترى[2] — يحل منه الوزير الذى دخلت عليه محل اللفظ من المعنى ، وهو لأمور هذه المملكة كلها الأساس والمبنى — فاجعل غداة غد نوبة لقائه ؛ فتوجهت إليه فى غد على ما مثل لى ، فرأيت منه اهتزازاً لرؤيتى واهتشاشاً ، واحتاشنى وفور قبوله وحفاوته احتياشاً ، وخرجت من عنده بثياب ودنانير خرجت لى من خزانة السلطان — خلد الله ملكه — على يده . وتوجهت بعد ذلك إلى الموسوم بالقضاء والدعوة ، الذى كان باب حطتنا[3] ونحن بالبعد ، والواسطة بيننا وبين

(ا) فى د : اذن . — (ب) فى ك : لحت المتريا تحت ترات قدمى .

---

(١) هو الوزير فخر الملك صدقة بن يوسف الفلاحى قتل سنة ٤٤٠ هـ ، وكان أول أمره يهوديا فأسلم واتصل بالدزبرى قائد الفاطميين بالشام وخدمه ثم خافه فعاد إلى مصر وخدم الجرجرائى فلما توفى هذا استوزر المستنصر الفلاحى ثم قتله (راجع النجوم الزاهرة ج ٥ فى مواضع متفرقة) .

(٢) أبو سعد سهل بن هرون التسترى كان تاجراً يهودياً وكان مولى ام المستنصر الفاطمى ، وهى أمة سوداء اشتراها الظاهر واستولدها المستنصر ، فلما أفضت الخلافة إليه استدنت أمه أبا سعدورقته إلى درجة علية وصار هو المتصرف فى شئون البلاد وأصبح الوزير الفلاحى يأتمر بأمره (خطط المقريزى ج ٢ ص ١٧٠) ثم قتله الفلاحى سنة ٤٣٩ هـ .

(٣) باب حطة اصطلاح فاطمى أخذ من قوله تعالى : « وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة » (سورة ٧/١٦١) ، والتأويل الباطن فى باب حطة أنه باب الدعوة أى باب الأبواب أو داعى الدعاة .

مجلس الامامة ، وهو يومئذ القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان[١] رحمه الله وإيانا ، فرأيته رجلا يصول بلسان نسبه فى الصناعة التى وسم بها دون لسان سببه ، فارغاً مثل فؤاد أم موسى عليه السلام ، وفيه جنون يلوح من حركاته وسكناته ، وهو مع ذلك موتور منى بما أوحى إليه بعض شياطين الانس من أننى ربما زاحمته فى مكانته ، بما لى من تنبه فى الأمر الذى هو فى غمرة منه مع توسمه وانتحاله له . ولما كان فى يوم تأديه ، وقد حضر القصر الشريف ، ورأيته استوى على كرسيه لقراءة ما يقرأه على المؤمنين ، ذكرت قول الله تعالى حكاية عن الهدهد «إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم[٢]» وكان له خليفة يدعى ابن عبدون أشقر أزرق ، وكلاهما مثقل من مغرم العداوة لى والايثار لنفضى من ذلك المكان ، وأعانهما قوم آخرون ممن جمعتنى وإياهم البليدة وصحبة الآباء فكفروا النعمة ، وتظاهروا علىّ ، فلم يغن عنهم شيئاً ، ولم يجدوا إلى إبعادى طريقاً .

وكان اليهودى المكنى أبا سعد يلقانى بكل يوم ببشر وجهه ، ويخاطبنى بكل خير لسانه ، ويعدنى أنه يصطنعنى لسلطانه — خلد الله ملكه — ويجعلنى برسم خدمته ومصاحبته ومكانته ، ويمنعنى أن أتعقب باب أحد من المصطنعة والأكابر ، فيكون ذلك وكسا علىّ فيما يريدنى له ، ويشوقنى (ا) إليه من المنزلة الجليلة ؛ فلما استفاض هذا الذكر من جهته ، وملأ الأسماع (ب) من لفظه ، قامت الحسدة من الشياطين المردة ، فدخلوا فى عقل اليهودى وقالوا : كيف تطوع لك نفسك أن تأخذ بهذا (ج) الرجل العجمى الدخيل (د) إلى المقام الذى أنت مخصوص به ومرتب له ، وما يؤمنك أنك إذا أدخلته أخرجك ، وإذا قدمته أخرك ، وهو أبسط منك لسانا ، وأقوى جنانا ، وهو يدل بعزة (ه) الاسلام والتخصيص بالدعوة والخدمة ، وفيك على العلات كلها خمول اليهودية . ولم يزل هذا الحديث يتوارد على سمعه حتى تشربه قلبه ، واستولى على حواسه سكره ،

(ا) فى ك : يسوقنى . — (ب) فى د : وملأ الأسماع سماعة من لفظه . — (ج) فى ك : هذا .
(د) سقطت فى ك . — (ه) فى د : بعزم .

---

(١) هو أبو محمد القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن أبى حنيفة النعمان أحد أفراد أسرة النعمان بن محمد قاضى قضاة المعز لدين الله الفاطمى وأكثر أفراد هذه الأسرة من الذين تولوا القضاء أو الدعوة كما كان لهم شأن عظيم فى الحركة الفكرية فى مصر لما ألفه أفراد هذه الأسرة من الكتب فى المذهب الفاطمى (راجع : كتاب الأدب فى مصر الفاطمية ، وكتاب القضاة للكندى ، ومقدمة كتاب الهمة) .
(٢) سورة النمل ٢٧/٢٣ .

فرأيت الرجل منقلبا عينه ، مغموضة عن حسن الملاحظة عينه ، ملفتا دونى وجهه ، مغلولة إلى عنقه يده ؛ ووجدتنى حصلت على رزق مقتر ، وعيش بنقصان الجاه مكدر .

فلم أزل أحمل (ا) على قلبى من الهم ما حدث من نتيجته ، أننى أحسست ليلة من ليالى شهر رمضان كنت أفطر فيها عند الفلاحى رحمه الله ، كأن قلبى قامت منه نار ففارت على أم رأسى ، وأصابتنى غشية ، فقطعت على الجماعة الأكل ، وشغلت منهم القلوب ؛ ولما كانت الصورة هذه توجهت إلى اليهودى ، وقلت : قد تشرفت بالمهاجرة ، وفزت بحظ سعادتى الدنيا والآخرة ، وما بقى فىّ محتمل لمقام ، وما لى غير اعتزام المسير من اعتزام ؛ فظن اليهودى أننى أقول ذلك وجهاً من وجوه المجاز ، التى ينفق فيها الناس المستزيدون نفوسهم ويستصلحون معها شئونهم ، دون الرجل الذى إذا هَمَّ بالشئ كان تبعاً (ب) لما همه ، وملقياً بين عينيه عزمه ، فقال متداهياً علىّ ما يزيد به كَسْرِى ، وإظهار الغنى عنى : « إذا كان المسير قد قام فى نفسك ، وتعلق عليه قلبك ، فما هاهنا من يصدك عما تريده ، ويردك عما ترتاده ، والمكاتبات تصدر إلى آخر الأعمال بتنفيذك وإحسان إجارتك » ، فقابلت هذا الكلام بشكر وقوة وعزم فى التوجه حرم على دون التصميم عليه المراضع من أكل وشرب وهدوء ونوم ، وجردت لهذا الباب ، فلما رآنى شاداً فيه على خيل الجد والاجتهاد ، وجامعاً لاشتات الاعداد والاحتشاد ، عاد من طريق المياسرة إلى المعاسرة وقال : لعلك تظن أن طريقاً أوردك يصدرك ، أو كفاً قبضت عليك تنبسط عنك ، ذلك رجع بعيد . فما ردنى الكلام عن أن أدقه بالرقاع على المغيب دقا ، وأسحقه باللزاز فى المشهد سحقاً ، أطلب المفالتة ، فطال الشوط فى هذا الباب حتى أبرمته ، وكان من جملة ماجرى فى هذا الميدان من المحاملة ، التى تكاد تخرق ستر المجاملة ، أنه ركب إلى البستان بالقاهرة — يعرف بالسقاية البيضاء — وكنت فى جملة من كان فى موكبه وكنت من ليلة صبيحة يوم ركوبه كتبت إليه رقعة أسعطته فيها بثقيف الخل ، ودسست إليه فيها نقيع السم ، فحين دخل البستان أمر برد الناس كلهم ، ونفضهم عن بابه غيرى ، ووقفت إلى أن أذن لى فدخلت فقال : أيها الرجل قد سددت فى وجهى دون تدبير قصتك الطرائق ، وأوطأتنى مداحض التخبيط والمزالق ، فما هذا اللجاج الذى استويت على عرشه ، واستوطأت لفرشه . فقلت : أيها الشيخ ، إعلم أنه ما مجتنى ديارى من فمها إلا تكشفا بخدمة هذه الدولة العلوية ، وتخوفاً من الجهة العباسية ، وتسللا من فتنة كاد شرها يهلكنى ، وغرقها يدركنى ، لا أننى لسعت بجمم الاملاق ، فأويت إلى درياق الانتفاع

(ا) فى د : احمد . — (ب) فى د : متبعا .

والارتفاق ، فما الداعي إلى قصدي هذا غير داعي الايمان ، وما المقصود إلا صاحب القصر(ا) الذي هو إمام الزمان ، دون الوزراء والوسائط والأعوان ، فان كان هذا المقصود يعلم أنني أنا الرجل الذي فيه أخرجنا من ديارنا وأبنائنا كما قال الله تعالى وهو يأنف(ب) عليّ من لقائه بلحظه ، ومن خطابه فيما يشرح الصدر بلفظه ، فبختنصر أولى بأن يقام في خدمته على ساق ، وأوقع منه من مواقع استحقاق ، وإن كان لوجهه إليّ التفاتة غير أن عنده وجها عني يلفته ، وللسانه معي مخاطبة سوى أن له مسكتا عن خطابي يسكته ، فلا خير في المقام على باب من يكون محجوراً عليه ، ويكون مقاليد أموره بيدي غيره لا بيديه . فلما سمع اليهودي القول ، وأنني كشفت من الأمور مستوراً ، هاج كما يهيج الجمل نفوراً ؛ ثم لم يزل دأبي ودأبه المحاككة والمعاركة والاحراق به في مجالسه ومواكبه ، والخفض في الأندية والمحافل من مناكبه زماناً طويلاً ، حتى اتفق من قتله على أيدي طائفة من الأتراك ما اتفق ، وقالوا — والله أعلم بصدقه — إن الفلاحي رحمه الله دس من قتله [1] إذ كان مسيطراً عليه ليسومه أن يكون ما أصاب الناس من حسنة فمنه ، وما أصابهم من سيئة فعلى يديه . وظن المسكين أن في فنائه بقاءه ، فأخلف ظنه (ج) ، وكان أول من ألحق به ، وذلك أن بعض الجهات الجليلة التي كان اليهودي مرتسما بخدمتها [2] في الظاهر ، وإن كان مستولياً على المملكة كلها في الباطن ، نقمت هذه الرخصة فيه من الفلاحي ، وثبتت على أن تقتاد منه ، وكان للمقتول نساء يدخلن إليها فيذكين نار الحرارة ، وينمين زرع الحقد والضغينة ، وتلك الجهة الجليلة تقدم رجلا وتؤخر أخرى فيما تريد فعله .

المؤيد والوزير الفلاحي

والفلاحي مضروب على أذنه ، متغافل عن أمره ، ليس يحسب حساب ما هو واقع به ، بل هو يظن أن الزمان سلس انقياده ، وأوتي منه مراده ؛ فلما رأيت — وأنا في خلال هذه الأحوال —

(ا) في د : العصر . — (ب) في د : يأسف . — (ج) سقطت في ك .

---

(١) في نهاية الأرب للنويري (مخطوط رقم ١٥٧٧ بالمكتبة الأهلية بباريس ورقة ٥٦) أن التستري قتل في جمادى الأولى سنة ٤٣٧ هـ ، بينما أجمع المؤرخون على أنه قتل في سنة ٤٣٩ هـ ، والمؤيد في الدين يؤيد أنه قتل سنة ٤٣٩ .

(٢) كان التستري يتولى ديوان والدة المستنصر فالمؤيد هنا يشير إليها بقوله : بعض الجهات الجليلة .

الظلمة اليهودية تجلت ، والأرض من عكرها وكدرها تخلت ، مددت باع طابى إلى لقاء السلطان خلد الله ملكه والتشفى بمشاهدة شريف طلعته ، والتشرف بتقبيل يده المباركة ، ووجدت من الفلاحى رحمة الله عليه مسعداً ومساعداً ، ونحو مقصد بلوغ أملى منه قاصداً ، فلم تزل الرسل تتردد على هذا الباب حتى فتح الله تعالى غلقه وكشف غسقه ، فدخلت إلى مجلس الخلافة فى آخر يوم من شعبان سنة تسع وثلاثين وأربعمائة .

المؤيد بحضرة المستنصر

وكنت فى مسافة ما بين السقيفة الشريفة ، والمكان الذى ألمح فيه أنوار الطلعة الشريفة(ا) النبوية ، كما قال المتنبى عن رسول الروم عند دخوله إلى ابن حمدان ، وإن كان بين الجهتين فرق ما بين التراب إلى السحاب :

وأقبل يمشى فى البساط فما درى   إلى البحر يمشى أم إلى البدر يرتقى

فلم تقع عينى عليه إلا وقد أخذتنى الروعة ، وغلبتنى العبرة ، وتمثل فى نفسى أننى بين رسول الله وأمير المؤمنين صلى الله عليهما ماثل ، وبوجهى إلى وجهيهما مقابل ، واجتهدت عند وقوعى إلى الأرض ساجداً لولى السجود ومستحقه ، أن يشفعه لسانى بشفاعة حسنة بنطقه ، فوجدته(ب) بعجمة المهابة معقولا ، وعن مزية الخطابة معزولا ، ولما رفعت رأسى من السجود ، وجمعت علىّ أثوابى للقعود ، رأيت بنانا يشير إلىّ بالقيام لبعض الحاضرين فى ذلك المقام ، فقطب أمير المؤمنين — خلد الله ملكه — وجهه عليه زجرا ، على أننى ما رفعت به رأساً ولا جعلت له قدراً ، ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ، ولا يهتدى لقول ، وكلما استطرد الحاضرون منى كلاماً ازددت إعجاما ، ولعقبة العى اقتحاما وهو — خلد الله ملكه — يقول : « دعوه حتى يهدأ ويستأنس » ؛ ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عينى وصدرى وودعت وخرجت . فهذه قصتى فى أول يوم. وعند خروجى من ذلك الموضع توجهت إلى الفلاحى رحمه الله فأفرشت له القصة وأوضحت له الصورة ، فى لسان خاننى عند الحاجة إليه ، وشقتى بعدت علىّ من حيث نزلت عن دابتى إلى حيث(ج) وردت عليه ، فقال : أما بعد الشقة فسيكفيكه ما أرتبه لك فى هذه النوبة من القعود بباب المجلس الذى يكون منه المدخل إلى حضرة الخلافة حتى تأخذ

(ا) سقطت فى د . — (ب) فى د : فوجدت . — (ج) ك : حين .

بحقك من الاستراحة قبل الدخول ، وأما الحشمة فتحل عقدها المكاثرة والمباسطة ، ففعل رحمه الله ورضى عنه ما وعد به ، وأمننى على موضع لا يأمن بعده الوالد ولده ، والأخ أخاه ، والله يحسن عن حسن الثقة بى جزاءه .

وما زال الدخول مستمراً والأمر على النظام جاريا ، حتى انشقت الأرض عمن قام سببا لبواره ، وسلما إلى خمود ناره ، وهو الوزير اليازورى[1] فابتدأنى بالدفع عن ذلك المقام ، وجعل الحجة فيه اختصاصى به ، وأن المختص به غير مأمون جانبه والواجب أن تقطع سوقه (ا) ، ويمنع دخوله وخروجه لئلا يكون له فى فساد ذات البين مضرب ، وفى سوقه مضطرب ، فتشربت(ب) ماء سحره أفئدة ،وتمت فيما أراده مكيدة

ولما كان بعد شهيرات قريبة قبض على الفلاحى[2] قبضا ، قبض فيه بعد يومين بالسيف روحه ، فقررت شقاشقه وذهبت ريحه ، فياضعف الطالب والمطلوب ، ويا ذل الغالب والمغلوب .

المؤيد والوزير الجرجرائى

وولى الأمر المكنى أبا البركات[3] الذى كان عمه على بن أحمد الجرجرائى (ج) [4] ،

(ا) فى ك : السوق . — (ب) فى ك : فشربت . — (ج) فى د و ك : الجرجائى .

(١) هو أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازورى بن على عبد الرحمن عهد إليه بالوزارة فى السابع من المحرم سنة ٤٤٢ هـ وقبض عليه المستنصر فى أول المحرم سنة ٤٥٠ هـ بتهمة مراسلته لطغرلبك السلجوقى (ابن منجب) ؛ وفى ابن الاثير أن ذلك كان فى ذى الحجة سنة ٤٤٩ هـ وكان حنفى المذهب وابتدأ أمره بالشهادة والقضاء وولى قضاء الرملة كما ذكر فى السيرة بعد ذلك .

(٢) قتل الفلاحى فى المحرم سنة ٤٤٠ هـ (ابن منجب ص ٣٧ و ٣٨) ، وفى خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٨٠ أنه اعتقل فى خزانة البنود ودفن فيها .

(٣) هو أبو البركات الحسين بن محمد بن أحمد الجرجرائى .

(٤) أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى وزير الظاهر وكان أقطع اليدين من المرفقين قطعهما الحاكم فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٤ هـ على باب القصر البحرى وحمل إلى داره ، وكان يتولى بعض الدواوين فظهرت عليه خيانة قطع بسببها ، ثم ولى بعد ذلك ديوان النفقات سنة ٤٠٩ هـ ثم وزر للظاهر سنة ٤١٨ هـ بعد أن تنقل فى الخدم بالأرياف والصعيد ، وكان يكتب عنه العلامة القاضى أبو عبد الله القضاعى ، وهو الذى يقول فيه الشاعر جاسوس الفلك :

يا أحمقا اسمع وقل ودع الرقاعة والتحامق
أأقمت نفسك فى الثقا ت وهبك فيما قلت صادق
فمن الأمانة والتقى قطعت يداك من المرافق

وتوفى سنة ٤٣٦ هـ بعد أن ظل فى الوزارة سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوما [ابن خلكان ج ١ ص ٣٦٧] .

واليازورى الذى هو الوزير اليوم ولىّ اختياره ، وهو إذ ذاك فى منصب أبى سعد اليهودى ، ومقر خدمته ، وقد كان من قصته أنه كان قاضى الرملة فعزله عنها ابن النعمان رضى الله عنه المقدم ذكره ، وورد مصر متضربا فى حال عوده إلى عمله الذى به ثباته فى نيابته ووطنه ، فاتفق فى أثناء وروده على أبى سعد ما اتفق ، فوجلت قلوب الكتاب المصريين أن يطلبوا العمل الذى كان إليه خيفة أن يجرى عليهم مثل ما جرى عليه ، وركب هو فى سفينة الغرر بخطبة المكان ، لكونه مصروفاً عن عمله متزلزل الأركان ، فأسعده من ريح السعادة ما أقلع به ، فانتهى إلى حيث لم يترك وهمه لتأميله فضلا عن طلبه .

ونعود إلى حديث أبى البركات فكانت نصبة الوزير اليازورى مع أبى البركات نصبة اليهودى مع الفلاحى ، وكان ذلك أضيق عطناً من أن يصبر صبر الفلاحى ، فما لبس خلع الوزارة حتى دب بينهما دبيب الشر ، وانفسدت الحال بينهما فتجاوزت إلى الجهر من بعد الستر ، ولم تزل الأيام تتعاهد مزارع العداوة بينهما بالسقى ، حتى صار حبها حصيداً ، وسببها وكيداً ، وكانت عين أبى البركات لا تكاد تنفتح على عداوة لى لو لم يمحضنى الفلاحى صداقته ، فكنت إذا حضرت مجلسه ألمح منه ظاهراً بفساد باطنه يخبر ، كما قال الله تعالى : « قد بدت لبغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر »(١). ولما رأيت جانب القبول منه ممنوعا ، غدوت لجانب الدخول إليه والسلام عليه إلا فى السواد مانعا ، فحين رآنى أعارضه كيلاً بكيل ووزناً بوزن ، صار مجاز عداوته تحقيقا ، وهزلها جدًّا ، حتى كان يوم من الأيام اعترض بأصحاب لأبى على(٢) ابن ملك بغداد كاد ليقبض عليهم ، عن سبب اتخذه الحجة فى مد باعه إليهم ، ففزع أبو على إلىّ فى كفاية الخطب ، وكشف الملم به من الكرب ، فلم أجد مخطى طرف ومسمى طرف فيما يحل العقدة غير أن قصدت بعض المصطنعة اسمه صابر ويلقب بوجيه الدولة وقلت له : إنك قد عودت هذا الصبى الذى هو من نسل الملوك الصيد حفاوة ، تقضى بها فروض الانسانية وتقوم معها بأدب المروة ، وهذا الغلام ومن فى جملته هاجروا إلى هذا الباب الطاهر لارتضاع إحسانه الغامر ، ولأنهم لم يجدوا مكاناً غيره يستحق أن يلموا به إلماماً ، ويشدوا على أوساطهم فيه حزاماً ، وقد شملهم من الانعام والاكرام ما ليس عليه مزيد ، ومن تمامه أن لا يشوبه شائب نقص فيكون إنضاج وترميد ، ودهاهم من الوزير ما أتانى به صارخهم ففزعت به إليك من كشف ضرهم وإجمال النظر فى أمرهم فقال : وما الذى تشير بفعله ؛ فقلت : مخاطبة الستر الرفيع أعنى (والدة أمير المؤمنين خلد

---

(١) سورة آل عمران ٣/١١٧ . — (٢) أبو على بن الملك أبى طاهر بن بويه فر إلى مصر واحتمى بها هو وأصحابه ، بعد أن دخل أبو كاليجار بغداد (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤) .

الله سلكها) فى هذا الباب ليخرج أمرها إلى الوزير بما يسفر معه وجه المجاب (ا) فقال : ما كنت بالذى يمكننى أن أقول هذا القول من تلقاء نفسى اللهم إلا أن يكون رسالة عنك . فقلت : اجعله رسالة عنى . فذهب وأنا واقف مكانى حتى رجع واستتبعنى إلى دار أبى البركات فوجدنى متثاقلا عنها ، ومتباطياً دونها ، فخاطبنى على صلة جناحه إليها(ب) ؛ فقلت : ليس ذلك مما يخف على قلبى ؛ قال : كذا أمرت . فصرت بحكم غيرى وتوجهت معه وسابقنى هو إلى الدخول ، ولعله أورد ما كان معه من التحميل ، ثم دعيت بعده وقال لى أبو البركات : هات وقل ما أنت قائل . فقلت : ما عندى قول أقوله لك إنما توجهت إلى هذا الأمير — أعنى وجيه الدولة — بقول قلته له وتحميل حملته إياه فانتظرته حتى عاد وأخذنى معه إلى هذا الموضع ، ثم لا أدرى ما قيل لك ولا ما لعلك روسلت به ، فقال : روسلت بأن أسمع كلامك فى معنى ابن ملك بغداد ، وأفعل ما تشير به . فقلت : إذا كان كذلك فأشير بأن لا تعرض لأصحابه ولا تغير فى وجه إحسان الدولة إليه ؛ وكلام نحو هذا فيما يتعلق بصلاح القوم . وكان دأبى ودأبه مطاردة فى السر ، ومزاحمة للوجه بالوجه . وكنت قد مللت بأسرى وتحيرت فى شأنى لا أفتح عيناً إلا على عدو ، ولا أرى فى جهة من الجهات إلا ضمير سوء ، والسلطان خلد الله ملكه الذى كان وصولى إليه الغرض الأقصى فدخلت إليه من باب ، والفلاحى الذى كنت متماسكا بعناية معه قد أفضى من ظهر تراب إلى بطن تراب ، فعدت لتطرية ملبس الاستيذان فى المسير ، وقمت فيه مقام الجد والتشمير ، وكشفت فى الاستقصاء فيه المحاب ، وأبرمت بالالحاح والسؤال الأصحاب ؛ حتى أجابوا وهم كارهون ؛ فبينما أنا فى شغل أنجزه وأمر للمسير أرتبه ، ومكاتبات أتنجزها إذ سمعت بأن ابن النعمان عزل عن القضاء والدعوة[١] وأن الذى هو الوزير اليوم[٢] يُولى فقلت يجوز أن يولى القضاء الذى كان عليه فيركب به طبقاً عن طبق من دون إلى فوق فأما الدعوة التى هو فيها نكرة فلا يجوز أن يقلد منها قلادة فيكون بدعة من البدع ، وشنعة من الشنع ، وشيئا ما شوهد مثله ولا سمع ، فما أصبح صبح اليوم الثانى من هذا الحديث إلا وقرئ سجله بهما ، وفوض إليه كلاهما[٣] ، وكان ذلك من الغرائب التى تحظرها العقول وتمجها الأسماع ، والسبب فى سوق هذه الأعمال إليه أن أبا البركات

(ا) فى ك : المحاب . — (ب) سقطت فى ك .

(١) كان ذلك عام ٤٤١ (رفع الاصر عن قضاة مصر) «نسخة خطية بدار الكتب المصرية» والكندى ص ٦١٢ . — (٢) يقصد اليازورى الذى كان وزيراً وقت كتابة هذا القسم من السيرة .
(٣) كان ذلك يوم الاثنين ثانى المحرم سنة ٤٤١ (الكندى ص ٦١٣) .

أراد به كيداً وكان من الأسفلين ، وذلك أنه أراد أن يورده من بسطة العمل ميداناً وسيعاً (ا) ، يأخذه به عن خدمة الجهة الجليلة التى كان منها هبوب ريح سعادته ، فكان هذا أقوى محنة فى دهاه وجلادته من أن ينفذ فيها مرسل سهام كيده الضعيف ومكره ؛ فلما ندب لهاتين الخدمتين العظيمتين ، لم يتثاقل عنهما بل سارع إليهما ، فجعلهما فرعا على الأصل الذى بيده من دون أن ينقض بناءه أو أوهن شيئا من قواه .

المؤيد واليازورى

ولما استقر له من الأمرين ما استقر ، وكنت على أوفاز[١] من سيرى ، وعجلة من أمرى ، استخلانى به فخلوت معه وخاطبنى على تفتير العزم الذى عزمته ، وبذل لى من نفسه جميلا كثيراً إن أقمت ، وقال : المسير بين يديك تشد على مطيته أى وقت أردت ، وتبلغ مرامى همتك فيه مهما رأيت ، غير أن هذا الوقت وقت مضطرب وقد جرى فيه من الأستاذ المنفذ إلى حلب ما جرى[٢] ، والنافذ على ذلك الطريق فى حميا هذه الحالة مغرر بنفسه ملقم بها فم الخطار . فأذعنت لقوله ، وسكنت إلى بذله ، واستحببت للمقام ، وفصمت فى التوجه عرى الاعتزام ، وما شككت أن الكلام كلام غيره وكونه عارية على لسانه ، فلم أوثر أن أمد رسن المخالفة فيه أكثر مما مددته ، وقلت فى نفسى إذا كانت الصورة هذه وقد لزمتنى ملازم المقام ، وولى هذا الرجل من الخدمة فى الدعوة ما يخبط منه فى حندس من الظلام ، من حيث لا هو فى محل كر من حلبتها ولا إقدام ، ولا إسراج فى ميدانها ولا إلجام ، وجب أن آتيه بشهاب قبس يهتدى بأنواره ، وأنهج له من الابانة نهجاً واضحاً يجرى فى مضماره ، واجتهد أن يكون على كثير ممن سبقه إلى هذا المكان مبرزاً ، وأن يكون ما يلفظ به من فوق هذا المنبر معجزاً ، ليعلم أنى قد أمحضته ودى ، وأجهدت فى تجميله وتحسينه جهدى ، ولا يخدشنى بظفر الحسد كيف هو فى هذا الأمر دخيل وأنا فيه أصيل ؛ فجعلت أحوك له وشياً من الألفاظ يقرؤها فى الأندية ، ولولا توقيعاته فيها بزيادة

(ا) فى د : وسعيا .

---

(١) أوفاز جمع وفز بمعنى العجلة .

(٢) يخيل إلى أن المراد بذلك هو خروج أمير الأمراء رفق الخادم على عسكر تبلغ عدته ثلاثين الف وبلغت النفقة عليه أربعمائة ألف دينار يريد الشام ومحاربة بنى مرداس الذين تملكوا حلب ولكنه أسر ومات بقلعة حلب سنة ٤٤١ ﻫ (خطط المقريزى ج ٢ ص ١٧٠) .

من عنده هى النقص بعينه ، ذلك فى مبدأ الأمر ، وغرضه فيما يفعل الا يوجد مستسلما(ا) لى بكليته ، وعاطلا عن صنع يكون له فيما هو بصدده . وكانت الأمور جارية على هذه المثالة سنة وزيادة ، وكنت منقطعاً إليه مشتبكا به ، ولى فى خلالها دخول إلى أبى البركات ثقيل لما كان يلوح لى من بغضائه ؛ واتفق أننى دخلت إليه يوماً من الأيام بدخول من تقدم ذكره ، فجلست إلىجانبه وبجنب(ب) أكتافه(1) ، فرأى أبو البركات منه ومنى شخصين مبغضين إلى قلبه ، ثقيلين فى عينه ، فرأى أن يضرب بعضنا ببعض ويصدم أحدنا بالآخر ، كما يفعله الدهاة الذين ليس هو منهم ، فأوحى إلى بعض شياطينه القائمين بين يديه أن يسارنى فى التناحى عنه قليلا لئلا أكون متصدراً معه وملزقاً كتفى إلى كتفه ، فأهوى رأسه إلىّ يزمزم بهذا القول ، فدخلت أخماسى فى أسداسى ، وملأنى منه غيظاً سد علىّ موالج أنفاسى ، فقلت : أيها الوزير مالك لا تقول لأصحابك أن يكونوا عقلاء ، قال : وما صنعوا ؟ قال قائلهم : أشرنا عليه بأن لا يكون لقاضى القضاة مكاتفا ، وأن يجعل بينه وبينه فى التصدر فسحاً . فقال أبو البركات : إذ كان هذا قولهم فما لهم ، فما قالوا إلا صوابا ، والوجه أن لا يكاتف قاضى القضاة فانه من حاله وقصته كذا وكذا وأخذ يثنى عليه بالقرب والاختصاص بالسلطان ، وتقدم المقدمة وارتفاع المنزلة ، فقلت : ما قالوا صواباً والوجه أن أكاتفه ، وأكاتفه إلى ما لا يتناهى ، قال : قد طولت لسانك فى هذا المجلس الذى هو مجلس أمير المؤمنين ، قلت : قد طولت لسانى فى مجلس هو أخص بأمير المؤمنين من هذا المجلس الذى أنت حاضره ، والذى أراه منك فهو تطاول بلا تطول ، ولكننى أوتى الأمر من قبل نفسى حين أحضر مثل هذا الموضع الذى أغنانى الله عن حضوره بغنى نفسى ، فقال : أيها المؤيد أين كانت هذه النفس الأبية حين ضرب غلمان البابلى ليلة من ليالى شهر رمضان غلمانك فى سقيفة الفلاحى ، قلت : أيها الوزير وماذا(ج) على من غلمان تخاصموا وتضاربوا ، وما هذه الحجة من الحجج التى تودع صحيفة الذكر والفكر حتى تنشر يوماً من الأيام فى مقامات التجنى علىّ . وقمت وقد كلت إليه بالمكيال الذى اكتلت به ماهو أزيد فى ألمه وأشد وقعا بوصبه ، ولم ألقه بوجه مسلما بقية أيام سلامته وبقائه فى وزارته . ولم يمكث إلا قليلا حتى انقض عليه عقاب المحنة كالليل الدامس ، فأخذه

(ا) فى د : مستسل . — (ب) فى ك : بجنبى . — (ج) فى ك : وما على .

---

(1) أى جلس بجانب اليازورى وبجنب أكتافه .

بمخالبه من عز المجالس إلى ذل المحابس[١] ، وبقى قاضى القضاة الذى هو الوزير اليوم متحيراً فى أمره بين أن يستولى على العمل بنفسه ، فلا يدرى كيف يكون الصدور من بعد وروده ، أو يولى غيره فلا يأمن أن يصلى نار كيده ، فقال يحتاج إلى وزير مأمون الغوائل مرة ، وقال لا حاجة إلى وزير مرة ، إنما ينصب من لا نسميه وزيراً بل واسطة ، فاختار أبا الفضل[٢] وهو يسير الحال ويخفف ويثقل ويقدم ويحجم . وفى خلال ذلك لا ينقطع عن قراءة المجالس فى أيامها والقيام بأحكامها ، فلو علم أن الأيام لا تكاد تخرج له جنة يتجنن بها ، ويكون هو الرامى من خلفها ، فيكون ذلك الاسم وهو الجسم أو اللفظ وهو المعنى دعته الضرورة إلى أن يلبس حلل الوزارة ويتحلى (ا) بحلاها[٣] ، ويركب فى فلكها ويقول : « اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها » .

ولما كان معلوماً أن المنصب الذى حصل فيه يقطعه عن حضور الأندية لقراءة مجالس الدعوة ، ظن الناس أنه لا يرى العدول بهذه الخدمة عنى ، ولا يقصد بها أحداً دونى ، فبينما هم فى ظن من هذا الباب كالتحقيق ، إذ ندب لها ابن النعمان ، فجاء وصعد المنبر وقرأ على الناس فلم تكن له نفس تنهاه عن تقمص العار والذلة بالنيابة فيها وحدها بعد أن كان فى القضاء والدعوة أصلا ، وبعد كون المستنيب له من جملة فروعه فرعا ، ولم يزو هذه الخدمة عنى من زواها إلا كراهية أن يسمع السلطان خلد الله ملكه ومن فى جملته من ألفاظى مايسوءه ، ويتطرى فى أمرى ما أخلق الزمان جدته وكسر حدته . ولما عاتبته على فعله وقلت له : جعلتنى شرابا فى قدرك ، فحين طيبته رميتنى ؛ فكان من جوابه أن السبب فى توليته ابن النعمان عجائز قدم فى القصر حاكميات وعزيزيات يرين النعمان (ب) أنه بنى هذا الأمر ، وأن أحق الناس بمكانه أبناؤه وذريته ، فتجردن فى بابه تجرداً صرت به مغلوباً على أمرى ، مصروفاً عن مكان عنايتى وهمتى ، فقلت له : وأين كانت هؤلاء العجائز لما مزقته كل ممزق فلا قضاء (ج) أبقيت عليه ، ولا دعوة ولا لقباً ولا مرتبة ، وأين كانت المرهفات من

(ا) فى د : يتحلل . — (ب) فى د : للنعمان . — (ج) فى د : قضاءه .

---

(١) قبض على الجرجرائى عام ٤٤٢ ﻫ وزج به فى السجن ، ثم نفى إلى الشام (المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٧٠) .

(٢) وفى خطط المقريزى أبو المفضل صاعد بن مسعود الذى تولى واسطة لاوزيرا (ج ٢ ص ١٧٠) .

(٣) يقول ابن الأثير إن المستنصر استوزر اليازورى فى ذى القعدة سنة ٤٤٢ (ج ٩ ص ٣٧٧) ، ولكن ابن منجب الصيرفى يقول إن ذلك فى ٧ محرم سنة ٤٤٢ .

سيوف عصبيتهن فى ذلك المقام ، أهذه البحار كلها فى نوبتى جاشت ، وعلى رأسى ظهرت واحتاشت ، فما عند الله خير وأبقى .

وكانت أيامى تنقضى معه على تمريث من العيش وتكدير فى العمر مدة فكنا إن اتفقنا على بعض الأوقات نتحدث وأقول له بما يملؤه العتب والاستزادة ، فيملؤنى قولا جميلا ووعداً حسنا لا يقرن بهما وفاء بل يكونان «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء» ؛ فلما كان فى بعض الأيام ولم يبق لى متسع فى خلدى وفى جلدى ، كاتبته برقعة أشكو فيها قلة الانصاف وإخلاف الميعاد وأقول إنك فى ثلاث رتب يستحيل المين معها ، ويمنع وجود الافك بوجودها ، فاحداها الوزارة التى هى منتهى درج أرباب الأقلام ، والقضاء الذى سناده صدق اللهجة فى القول وترك الميل فى الأحكام ، والثالثة الدعوة التى معناها عند من ينتحلها تقويم النفوس المعوجة ، والذى يقوم النفوس المعوجة تبين عنه أن يكون كاذباً . ثم سقت القول إلى الغرض الذى كانت المعاتبة والمكاتبة من أجله ، فاستشاط غضباً من قراءة الرقعة وراسلنى بجوابها مراسلة على لسان ناشية له وعلى يده وهو فى أول عهده بثوب نظيف لبسه ، ومركوب ركبه ، يذكر أنك بسطت إلى لسانك كنت قديماً تبسطه إلى أبى سعد اليهودى وسقتنى مساقه فيه ، ولست ممن يصبر عنك على مثله ، وما يجرى هذا المجرى من إرعاد(ا) وإبراق فأجبت وقلت : إن لسانى لعمرو الله ذلك اللسان بعينه ، ومنتى تلك المنة ، ونصبتى فى الاستغناء بالله تعالى عنه وعنك تلك النصبة ، ولم يقدمك على أبى سعد إلا إسلامك ويهوديته ، فأما من حيث البسطة فى الأمر والنهى فصورتك صورته . وعادالرسول إليه بالجواب وجمعت نفسى عنه سبعة أشهر أو زيادة لا أدنو له بابا ، ولا أتلو فى السلام عليه كتابا ، فلما انقضت المدة المذكورة وجرى من الكسرة (ب) على بنى قرة[1]

(ا) فى د : ايعاد . — (ب) فى د : الكسر .

---

(١) فى سنة ٤٤٢ﻫ ثار عرب بنى قرة الذين كانوا بالبحيرة ، ولكن جيوش الدولة استطاعت أن تقمع الثورة سنة ٤٤٣ﻫ وأن تخرج بنى قرة من أماكنهم وتقطعها لبنى سبنس (بطن من بطون طىء) (النجوم الزاهرة ج ٥) .

(وفى ابن الأثير ج ٩ ص ٣٩٦) وفى شعبان سنة ٤٤٢ﻫ عصى بنو قرة بمصر على المستنصر بالله وكان سبب ذلك أنه أمر عليهم رجلا منهم يقال له المقرب فنفروا من ذلك واستعفوا منه فلم يعزله فكاشفوا بالخلاف والعصيان وأقاموا بالجيزة وتظاهروا بالفساد ، فعبر إليهم المستنصر بالله جيشاً يقاتلهم فانهزم الجيش وكثر القتل فيهم ، وانتقل بنو قرة إلى طرف البر وعظم الأمر على المستنصر فجمع العرب من طىء وكلب وسيرهم فى أثر بنى قرة فأدركوهم بالبحيرة فواقعوهم فى ذى القعدة ، واشتد القتال وكثر القتل فى بنى قرة وانهزموا .

ما جرى وأفيضت عليه الخلع السنية موفورة ، وصارت داره كعبة للتهانى مزورة ، اجتمع علىّ أصحابى ومن كان يلم بى ، وحشمونى من فرط الشفاعة إلى حتى أتيته وهنيته ، فمكث غير بعيد فولانى النصفة (ا) من ديوان الانشاء ، وزادنى فى رزقى زيادة ظهر تأثيرها فى حالى .

وكانت أيامى تقتضى معه فيما بين الرضا والغضب ، وابن النعمان على رسمه فى النيابة والقراءة يجره إليهما حركة من حرصه طبيعية ، وحركة من ينهضه قسرية ، حتى وقف به أعضاؤه ، وخانته جوارحه ، وجعل الناس يقولون لى إن الضرورة تحوج إليك ، ولا يوجد مذهبا عنك ، فقلت إنهم يجرونه إلى هذا المكان ما داموا يجدون فيه مجرا ، فاذا عدموا ذلك فيه حملوه فى المحفة حملا ، وان الرجل ما بين ذا وذلك يسبر(ب) فكوك ولديه وأشداقهما ، فان آنس من أحدهما رشداً ندبه لهذا الأمر فاستغنى (ج) عن البعيد بالقريب ، وعن الأجنبى بالنسيب ، فكان الأمر على ما قلته ، وكان ابن النعمان محمولا على السرج مادام يحمله السرج ، فلما قعد به السرج عدل به إلى المحفة ، فلما حف به العجز عن المحفة ندب الرجل ولده ، فاستمر إلى يومنا على مايؤثر أمره(د) ، وألقى على كرسيه جسداً مما يحبه ويعزه ، وعلم أنى يئست من خيره ، وجعل يقطع الزمان معى تقطيع المتجمل ، المعطى بلسانه حلوا ، والمعتقد فى سر نفسه مرًّا ، من الوسيع جلده فى هذه الصناعة المبنية على من كان له فيها قدم صدق ، وله أولاد وضميمة(ه) وأصحاب يحلون عقدة ركامه فيها ، ويخرقون ستر ناموسه بها ، من إذا اعترض منهم سبب بقول أو (و)فعل كان له من قلبى وقع الزناد فى استخراج مكمن النار من متون الحديد والأحجار وكان داعية إلى إنطاق صامت اللسان بحرارة الجنان ، فعند ذلك تهب ريح المخاصمة ويعقد عجاج المنافرة ، وقد جرى بينى وبينه فى عدة دفعات مقارصات(ز) ومحاملات ، فمنها ما كان مشافهة ، ومنها ما كان مراسلة، وما كان راسلنى به وقتاً من الأوقات على لسان قريب له : إننى أخذتك من ثلثمائة دينار رزقا إلى ألف وزيادة(١) فلم لا تعرف الحق على نفسك ؟ فقلت له فى الجواب : لو علمت فحوى قولك هذا الذى قلته لقيدت لسانك عنه ، فأنت هجوت السلطان خلد الله ملكه به أقبح هجو ، أن جعلت

(ا) فى ك : النطفة . — (ب) فى د : يشبر . — (ج) فى د : فاستغنى عنى عن العبيد .
(د) فى د : يؤثره أمر . — (ه) فى د هميمه . (و) فى د : أم .
(ز) فى ك : مفاوضات .

---

(١) ذكر المقريزى فى خططه أن داعى الدعاة وقاضى القضاة كان يتناول كل منهما مائة دينار رزقا بينما يذكر المؤيد هنا أنه كان يتناول ألف دينار وزيادة وهو لم يبلغ بعد مرتبة داعى الدعاة أو قاضى القضاة .

استحقاق بحضرته ثلثمائة دينار ، وفى دولته من لا يوازى ظفراً من أظفارى فى خدمته من جنس المشرقى والمغربى ، وله المال الممدود فى خزانته رزقاً ، وما أنكر أنك أخذتنى من قلة إلى كثرة ، ومن عطلة إلى عمل ، ولكنك إذا ذكرت ذلك فاذكر بذكره عن أى مكان قطعتنى ، فلقد قطعتنى عن آفاق(ا) صرت منها فى آفاق من يعطى ويمنع ويخفض ويرفع ، فلا تمن على بما أعطيت ، فالذى منعت أكبر .

وقلت له فى مجلس آخر وقد جرى ذكر كتاب الانشاء فقلت : معلوم ما كان لمتولى هذا الديوان من الجاه الوسيع والرزق السنى الكثير(ب) ، ولئن كانت أشخاصهم مفقودة ، فان آثارهم فى صناعتهم حاضرة موجودة ، وأنت كاتب تفرق بين الجيد والردىء ، والضعيف فى الصناعة والقوى ، وأريد أن تعتبر من انتصب هذا المنصب من خمسين سنة إلى اليوم مقايسة إلىّ ، فان كنت ممن يجرى فى حلبتهم فرسه ، ويطول نحو أمرهم باعه ، فأنزلنى منزلتهم من الجاه والمال ، وإلا فقل لى ما أنت مثلهم ولا فى آفاقهم ، فقد رضيتك حكما ، وجئت لحكمك مستسلما . ففتح أبواب الثناء وبسط منه ما قبض فى معنى العطاء . وأعلمنى بعض أهله أنه جرى بينهما حديثى فقال له : أراك مستكرها لهذا الرجل ومتبرما به ، فهل لك أن تجعل حبله على غاربه فيما لا يزال يلتمسه من عودة إلى بلاده فتكون قد أرحت عليه ، وكفيت أمره . فكان جوابه : إنه لا قبل له باظهار الرغبة فى بعده عن هذه المملكة والحرص عليه ، ولكنه إذا تراكم عليه المرس باليد واللذع باللسان أبت مرارته(ج) حمل الضيم ، وهجمت من(د) التسلل عن صحيح العزم .

بدء النزاع بين الفاطميين والتركمانية

ولما قوى أمر التركمانية — خذلهم الله — وحصلت بالرى[1] وصار القريب والبعيد من أهل البلدان يتقلبون من الخوف على مثل حسك السعدان ، وكانت الدولة العلوية — حرسها الله تعالى — فى السابق من نغماتها التى بها تتنغم ، وتأخذ فيها مأخذ من أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ، وورد من حيز الروم نسخة كتابها إليها بحملها على التجرد

(ا) فى د : آفاق منها صرت منها . — (ب) فى د : الأكثر . — (ج) فى د : مرته .
(د) فى د : عن .

(١) دخل طغرلبك التركمانى مدينة الرى سنة ٤٤٦ هـ (ابن الأثير ج ٩ ص ٤١١) .

معها لأخذ المملكة العلوية لأولئك الأنجاس الأقذار فيجعلون الشام من جملتها نصيب إخوانهم من شياطين الروم الكفار (١) ؛ ففتحت باب المشاورة على هذا القول(ا) المهول من الأمر الذى هو على بعد الشقة يرمى (ب) بشرر كالقصر ، وقلت إن ابن المسلمة اللعين مغناطيس هذا الشر فانه استطعم طعم الرياسة بملابسة أمثاله ، واستولى منها على غارب آماله ، وإن تدبيره اليوم أمثل من تدبيره غداً [والتنبه له (ج)] ولما طغى الماء أقرب الأمور رشداً ، وقلت إن الوجه أن أكاتب الكندرى(د)(٢) الذى هو وزير الطاغية بكتاب بالعجمية ، أو أكاتب نفراً من العارفين فطنت حصولهم فى جملة القوم ، واجتهد فى أن أميل إلى الدولة العلوية أدامها الله رءوسهم ، وأسقى ماء محبتها بالحكمة والموعظة

(ا) فى ك : الهول . — (ب) فى د : ترمى . — (ج) سقطت فى ك .
(د) فى ك و د : الكيدى .

---

(١) لم يرد فى كتب التاريخ أى إشارة عن مثل هذا الاتفاق الذى ذكره المؤيد بين الروم وطغرلبك ، ولكن المقريزى [الخطط ج ٢ ص ١٣١٧] يذكر أنه فى سنة ست وأربعين وأربعمائة هـ ارتفع السعر بمصر وتبع الغلاء وباء ، فبعث المستنصر بالله إلى ملك الروم — وهو كونستانتين العاشر الذى كان يحكم مع زوجه زوا Zoé بنت كونستانتين الثامن ، وقد حكما من سنة ١٠٤٢ إلى ١٠٥٤ — أن يحمل الغلال إلى مصر ، فأطلق أربعمائة ألف أردب وعزم على حملها إلى مصر ، ولكن أدرك ملك الروم أجله قبل أن يرسل الغلال ، وتولى أمر الروم بعده ثيودورا بنت كونستانتين الثامن التى حكمت من سنة ١٠٥٤ م — سنة ١٠٥٦ م فكتبت إلى المستنصر أن يكون عونا لها ويمدها بعساكر مصر إذا ثار عليها أحد ، فأبى أن يسعفها فعاقت الغلال عن المسير إلى مصر ، فحنق المستنصر ، وجهز العساكر وعليها مكين الدولة الحسن بن ملهم وسارت إلى اللاذقية ومنها إلى فاميه ، وجال ابن ملهم فى أعمال انطاكية فسبى ونهب ، فأخرجت صاحبة الروم الجيوش لمحاربته فكانت الدائرة على ابن ملهم وأسر هو وجماعة كثيرة ، وبعث المستنصر سنة ٤٤٧ هـ أبا عبد الله القضاعى برسالة إلى القسطنطينية فوافى إليها رسول طغرلبك السلجوقى من العراق بكتاب يأمر متملك الروم بأن يمكن الرسول من الصلاة فى جامع القسطنطينية فأذن له فى ذلك وخطب الرسول فيه للخليفة القائم العباسى ، فبعث القضاعى بذلك إلى مصر ، فأرسل المستنصر إلى كنيسة قمامة بيت المقدس وقبض على جميع ما فيها ، ففسد من حينئذ ما بين الروم والمصريين .

وجاء فى ابن الأثير [ج ٩ ص ٤١٨] أن طغرلبك لما فرغ من الرى وعاد إلى همذان فى المحرم سنة ٤٤٧ هـ أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوى صاحبها . ولا ندرى شيئا أكثر من ذلك عن هذا الاتفاق الذى ذكره المؤيد ، ومن يدرى لعل طغرلبك عقد اتفاقا سريا مع الروم لم يصل علمه إلى المؤرخين بينما عرفه المؤيد لمعاصرته لهذه الأحداث وبحكم عمله بديوان الانشاء .

(٢) هو عميد الملك أبو نصر منصور بن محمد الكندرى (انظر ابن خلكان ج ٢ ص ٧ ، ودمية القصر ص ١٤٠ ، والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥ ، وابن الأثير فى مواضع متفرقة) .

الحسنة نفوسهم ، فان ذلك لا يخلو من أحد قسمين : إما أن يصيب السهم الغرض وهو الغرض ، وإما أن يتسامع العباسى بذكر المكاتبة بيننا وبينهم فلا يدرى على أى صفة هى فيتجعد من جهته وينقبض ، فأذن فيه ، وكتبت الكتب على أحسن صيغة فيما يكتب فى مثله ، فكسر المرسل بها لتخلفه لحاجة فى الصدور ، وانتظم فى سلك من قال الله تعالى : «أينما يوجهه لا يأت بخير» [١] فدنا القوم ؟ زيادة دنوا ، وزاد الأمر فيما يحدث عنهم من فساد فى الأرض وعتو بسطاً للأيدى فى الأموال والحريم ، واستنانا بسنة من لا يؤمن بالله العظيم ، وحصلت العراق بمجاورتهم مرتجفة ، وصدور أهلها بالروع منهم منخسفة ، ووقع التشاور على مكاتبة أبى الحارث[٢] والعسكر البغدادى واشعارهم بكوننا لهم سناداً ، ولهم فى الارفاد والانجاد عماداً ، وكتبت الكتب ونفذ بها من تحيف ريشه ريب المنون من قبل وصوله بها وإيصاله لها(ا) ، وضاعت الكتب ، وتوجهت بتوجهه إلى الحجاز حاجًّا ، ولما أبت استأنفت المكاتبة بما أنفذت به أحمد بن الحسن(ب) فسابق حصوله بنواحى العراق دخول التركمانية بغداد[٣] وتملكهم لها وحصول أبى الحارث والعسكر على نشز من أرضها بحيلة عملها ابن المسلمة فيما يفرق شملهم ويقطع حبلهم ، فما كان كتابى عندهم إلا صحيفة نزلت من السماء ، واهتزوا له اهتزاز الأرض الهامدة لنزول الماء ، وأجابوا يدعون ويشكرون ، ويقولون ما أوتينا عن ذلة ولا عن قلة ، ولكنا عن قوس المكر رمينا ، ولماء السحر سقينا ، فان أخذتم بأيدينا أخذنا لكم البلاد ، وإن قلدتمونا نجاد نصركم وإنجادكم ، فتحنا من جهتكم الأغوار والأنجاد ، والتمسوا من المال والخيل والسلاح ما يريش السهم ، ويمضى فى النهضة إلى عدوهم العزم ، ذاكرين أن الدرهم إذا تكلف لهم فيما يمضى من سيف عزمهم غراراً عوضوا عنه ديناراً ، وبأنه لا يرد (ج) ثانياً كتابهم جوابا (د) لهذا الكتاب إلا من الرحبة وقد تدبروها ، يفزعون من حرور خوف البطشة التركمانية إلى ظل أسنة الدولة العلوية ، وينسمون نسيم نعيمها الفائح الريا ، ويلمحون وجه قبولها وإقبال الكريم المحيا ؛ فوقع الاهتمام باعداد المال والخيل والسلاح لتحمل إليهم .

(ا) فى ك : بها . — (ب) فى د : الحسين . — (ج) فى ى : إن لم . — (د) سقطت فى د .

---

(١) سورة النحل ١٦/٧٦ . — (٢) أبو الحارث أرسلان البساسيرى التركى الملقب بالمظفر كان مقدماً على الأتراك خصيصاً عند القائم بأمر العباس ، لا يقطع القائم أمراً دونه فتجبر وطغى ، فجفاه القائم واستنصر عليه بطغرلبك السلجوقى (وقد تقدم ذكره فى المقدمة) .

(٣) دخلت جيوش طغرلبك بغداد ، وخطب له على منابرها سنة ٤٤٧ ﻫ (ابن الأثير ج ٩ ص٤١٨ وما بعدها) .

فلما ترتب الأمر ، قال الوزير متداهيا علىّ — وقد أوجد له الزمان فى قلعى حجة ، وأراه إلى حاجة فى نفسه قديمة يقضيها به محجة — : يافلان قد ترتب الأمر فى المحمول ، فمن يكون الحامل ، والقائم بهذا الخطب العظيم والكافل ، يجب أن يفكر فى هذا الباب فانه المركز الذى يدور عليه الدائر ، وإليه يفضى الأول والآخر . وكنت قد سمعت قبل هذه المكاتبة بنحو شهرين أنه يدبر الرأى على أن يقلعنى بمقلاع هذه الحجة ، ويرمينى من بحر غمراتها فى اللجة ، فقلت مجيباً من أسمعنى ذلك : ومن الذى يشد على خيل طاعته فى ذلك حزاما ، ويحل لقبول إرادته حلالاً ويحرم حراماً . فلما فاتحنى بقوله : من الذى يتوجه لهذا الباب المهم . قلت ، ها هو قد طلع رأسه وجاءت أوائله ، وقلت : الوزير أعرف بخدامه ومن يصلح لهذا الأمر ومن لا يصلح ، وبيان المعرفة بحضرته بالمقصر والمجتهد أوضح ، ولسان نطقه بمدح الممدوح فيهم وذم المذموم أفصح . وجعل يعاودنى فكرر فى هذا الباب دفعة وتكرارا ، وأنا لاأزيده على الجواب شيئاً ، حتى قال لما امتد الشوط : مالى أكلمك من وراء الحجاب ، وأن مولانا خلد الله ملكه قال : ولم لا يكون فلان —يعنيك— المنتدب لهذا الأمر ، والمنتصب له والمتوجه فيه ، وله الوجاهة والخبرة . فقلت : ومولانا خلد الله ملكه عنده خبر منى أو مختبر لأحوال صلاحى وفسادى ، لقد فرحتنى أيها الوزير بهذا القول ، فما ظننتنى قبل هذا اليوم أخطر منه ببال ، ولا أن ذكرى مما يجرى على لسانه فى حال ، ومما باله إلى اليوم(١) لم يذكرنى فى الذاكرين ، ولم ينظر إلىّ فى الناظرين ، فحين دهم هذا الأمر تنغص لى بعنقود حصرمه الحامض ، ووقع الاهتمام بتأديتى إلى معاناة يومه الرافع الخافض ، ومقاساة قومه الذين طالما رأيت الكفاة من الوزراء الذين يكل حد المشرفيات دون شبا أقلامهم يستقيلون من مقاساتهم ومقاساة أيامهم . فقال : أغرب عنك هذا القول ، فما يركب غيرك صعب هذا الأمر وذلوله ، ولا يذرع سوى ذراعك عرضه وطوله ، فقلت : ليس ذلك مما أعيره طرفا ولا الكلام فيه مما أرعيه سمعا ، فما هو من شغلى ولا صناعتى .

وتقضت أيام على هذا بين اجتهاده وإبائى ، وشفاعته وردى ، فاتفق يوم ركوب والسقيفة بتزاحم الناس عليها تنشق ، والدواب على الباب بعضها على بعض تندق ، وقد تعلق بذيلى وهو يقول : افتقرنا إليك وافتقرت الدولة والاسلام والمسلمون ، وديانتك تقتضى أن تصرخ صريخهم ، وتجير مستجيرهم . فقلت : سبحانى سبحانى إن كنت بهذه المثابة ومحلا لهذه المخاطبة . فقال : الأمر على ذلك وفوقه ، ولن أبرح الأرض حتى تنعم بلسانك .

---

(١) فى ك : الآن .

فقلت : أيها الانسان إننى إن قلت نعم بحكم تحشيمك لى مشافهة أردفته بألف لا مكاتبة ، فقال : قل أنت نعم واكتب ما شئت بعده ، فانك إذا قلت نعم لم يعقبه نقض . فوجدت نفسى فى خناق لا ينفس عنه شئ ، وأخلدت فى تغليظ القول وتخشين اللفظ رجاء أن أفقأ بهما عين التلطف وأخدش معهما جسم التواضع والتخضع ، وأزكى بهما النائرة الغضبية التى تحيل حلو الألفاظ مرًّا ، ولين الطبع خشناً ، وسهل الخلق حزناً ، وكان سحره(ا) الغالب وسهم كيده الصائب ، بقولى نعم ، ودخولى فيما كرهته .

وكتبت إلى السلطان — خلد الله ملكه — رقعة ذكرت فيها أننى إلى ما كرهته من هذه الجهة (ب) مجلوب مجبور (ج) على ضعف منتى وقصور حركتى ، وكون الأمر عسيراً خطيراً ، وأن علىّ أن أجتهد وأسعى وأكدح ، فما أصبت فيه فبها رحمة من الله وإقبال الدولة أدامها الله تعالى ، وما أخطأت فيه فلا يتوجهن علىّ عتب ولائمة ولا تعرضن(د) لى فيما أحل وأعقد يد معترضة . فوقع على ظهرها بالامضاء . ولما فرغ هذا دعيت إلى تغيير النصبة(ه) ، وتقمص قميص الوزارة والأخذ بما يشابهها (و) من الرتبة ؛ فقلت : معاذ الله أن أغير من زيى شيئاً ، أو أتخذ من غير لبوس أهل العلم والتقوى لبوسا ، ولو كنت فى عنفوان شبابى ممن صفا إلى ذلك قلبه وصبت نحوه نفسه ، لردنى عنه مجئ النذير وإيذانه لوشيك (ز) المسير ، فكيف وكلا طرفى شبابى وشيبتى فى التدرع بدرع (ح) التنزه متساو ، وأنا فى خلالها فى زاوية التصون متزاو . ووقع الاقتصار منى على ملبوس ألبسه وحملان أحمل عليه ، فمنعت الاجابة إليه .

ولما كان فى عشية اليوم الذى استقر أمر البروز إلى ظاهر القاهرة فى غدها من بعد توديع مجلس الخلافة المقدس — زاده الله فى مجده — أشعرت بأنه أوقف السلطان — خلد الله ملكه — على أن يأمرنى مشافهة بلبس ما امتنعت عن لبسه ، فورد علىّ من الحيرة ما يأخذ الانسان عن عقله وحسه ، فكتبت إلى الوزير أستغيث من هذه الحالة ، وأقول : إننى إن خوطبت عليه فأجبت فقد فتت فى عضد إعراضى وقلبت لى أمورى ، وإن خالفت خرجت مذموماً مدحورا ، وانقلبت لا أدعو ثبوراً واحداً ، بل أدعو ثبوراً كثيراً ، وأننى متوجه إلى المخيم وجهاً واحدا من دون دخول القصر . فأجاب يؤمننى مما أحذره فيه ، ويشير علىّ بالمصير

(ا) فى د : سهره . — (ب) فى ك : الوجهة . — (ج) فى د : مجنوب .
(د) فى ك : يتعرض . (ه) فى د : النصة . — (و) فى ك : يشاكلها .
(ز) فى ك : بوشك . — (ح) فى ك . بدروع .

إليه ، فلما حضرته ، تولى النوبة بنفسه فأطالها ، ولم يبق مقالة فى مسح الأعطاف للاجابة إلى ذلك إلا قالها ، إلى أن دعيت وأخذت إلى القصر الشريف ، وألبست فيه ما ألبست من التشريف وأدخلت إلى السلطان — خلد الله ملكه — والوزير وولداه حضور ممن شاهدته العين دون من حجبته الستور ، فقبلت الأرض ودعوت وجلست وقلت للوزير : بلغنى أن خيامنا ضربت بحيث يبعد المدى بينها وبين البلد ، فبعدت الشقة(ا) على غلماننا فى قضاء الحاجات ، فقال السلطان خلد الله ملكه : أنا الذى اخترت لك ذلك المخيم وأبيت أن تنزل المنزل الذى نزله أمير الأمراء[1] حين توجه إلى حلب . فقبلت الأرض ودعوت وقلت : ما وراء هذا الاختيار اختيار فأدام الله أيام مولانا ما أظلم ليل وأشرق نهار ، ثم قلت : يامولانا خلد الله ملكك لم تجر عادة آبائك وأجدادك — قدس الله أرواحهم ، وصلى الله عليهم — أن يقطعوا لعبيدهم رسما ، ولا أن يغيروا لهم حكما ، فلم تقطع رسم عبدك فى المثول بهذا المقام الكريم ، والوقوف فى هذا الموقف العظيم ، فهذا باب أول ؛ والباب الثانى أن مثلى مثل أعرابى بلغنى أنه كان يدعو ربه سبحانه ويقول : اللهم اغفر لى فاننى لا أجد من يغفر لى غيرك ، وأنت تجد من تعذبه غيرى ، وهذه الوجهة التى أنا متوليها طاعة لك على شديد كلفتها علىّ ، وجهة كنت تصادف من ينفذ فيها ويطب داءها مثلى أو فوق أو دونى ، ولن تصادف من يجاور قصرك الشريف فيكون عنده فى كل يوم ختمة أو ختمتان للقرآن ، ودعاء لك وتمجيد لبيتك مثلى ، وأنا شيخ هذه الدعوة ويدها ولسانها ومن لا يماثلنى أحد فيها ؛ والباب الثالث أن الأمر الذى أتوجه فيه كتاب أنا عنوانه فانظروا كيف تكونون فى أمر من هذه سبيله . فكان الجواب على الفصلين الأولين بشاشة ظهرت فى أسرة الوجه الكريم ، وتبسما كشف(ب) عن در الثغر النظيم ، من دون إعمال اللسان ، والفصل الثالث فقد كان جوابه : إننا معودون من الله تعالى على أمثال هؤلاء بالنصر وهو بكرمه يجرينا فيهم على جميل عادته ، وأننا لا نألو جهدا فى الشد منك والارهاف لحدك ، إلى أن يأتى الله بالنصر من عنده ، وودعت وانصرفت . ونظرت إلى وجوه القائمين على رسم الخدمة من الأستاذين[2] والخدم فرأيتها تتلألأ بما سمعوا من كلامى ، وشقّى فيه عن صحيح المعنى وسوى المقصد والمغزى ، ورأيت فريقاً يبكون ، وآخرين يتباشرون ويضحكون ،

(ا) فى د : الثقة . — (ب) سقطت فى ك .

---

(١) أمير الأمراء رفق الخادم الذى مر ذكره .

(٢) كان الفاطميون يجمعون «أستاذ» على «أستاذين» والأستاذ عندهم هو المولى .

وصرت إلى المخيم وجمع لى من المال والخلع والخيول المسومة ما كان معدوداً للحمل[1] .

خروج المؤيد لمؤازرة البساسيرى :

وسرت فى جلبة عظيمة قد التف(ا) فيها من الوحش والركابية المقودين وسفساف الناس من البغالين والحمالين عسكر لو لم يمسنى غير عذابهم عذابا لكان فيه ما يغنى ويكفى ؛ وكان الناس يتعجبون من أمرى ، وقد كان موضع العجب لعمرى كيف أجرد لمثل هذا الوجه الخطير العظيم رقبتى من دون أن يتبعنى من شئ يسمى العسكر اثنان ، ويعول بى على عسكر غريب معلوم الشان ، يستعيذ بالله من شرهم الثقلان ، عادتهم فى الاستخفاف بملوكهم معروفة ، وأما الوزراء فهم أغنام عندهم للذبح معلوفة ، ويحكمون بأن المال المحمول فى صحبتى مال كتب الله عليه الضياع ، فهو من دون وصوله إلى حلب يتخطف ؛ وأن حامله على شفا جرف هار فهو فى أحد تقاسيم وجهته يتلف ، ويستنقصوننى فى عقلى بمنصرفى ، وكيف استجبت فى هذا الأمر لداعى تلفى ، وأنا على بصيرة بكون المقصود قديماً وحديثا نفضى عن الموضع ورفضى ، حتى قال بشهادة الله قائل : إنه لا يستغلى قلعك(ب) بتلف هذا المال ، فسبحان ربى الكافى والمسلم برحمته . "

فكان فيما مثل لى أننى أستتبع ثلاثة آلاف رجل من العرب الكلبيين أطأ بهم بلاد ابن صالح[2] ، وأبلغ (ج) بهم إلى الرحبة[3] فكنت طول المسافة ما بين مصر ودمشق أرتأى فى هذا الباب ، فحدثتنى نفسى بمنافاته للصواب ، فلما وصلت إلى «صور» واجتمعت

(ا) فى د : الغنى . — (ب) فى د : قدرك . — (ج) فى د : ابتلغ .

---

(١) الذى وصل إلى البساسيرى من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك وخمسمائة فرس وعشرة آلاف قوس ومن السيوف ألوف ، ومن الرماح والنشاب شئ كثير (راجع تاريخ الاسلام للذهبى والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢ طبعة مصر) .

(٢) هو ثمال بن صالح المرداسى تاج الأمراء صاحب حلب ، وكان أبوه صالح بن مرداس يطمع فى ملك حلب فاستولى عليها من أمراء الفاطميين ، ثم أعيدت إليهم مرة أخرى ، حتى استولى ثمال على حلب سنة ٤٣٣ عقب وفاة أنوشتكين نائب المستنصر بالشام وفى سنة ٤٤٠ حاول المصريون استرداد حلب فلم يوفقوا وأعادوا الكرة سنة ٤٤١ ففشلوا ولكن المؤيد استطاع بسياسته أن يجذب إليه ابن صالح . فأعاد الدعوة للمستنصر الفاطمى وتنازل عن حلب للفاطميين على نحو ما سيذكره المؤيد فيما بعد وتوفى ثمال سنة ٤٥٤ .

(٣) الرحبة مدينة بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات وهى البلدة التى هرب إليها البساسيرى بعد دخول طغرلبك بغداد .

مع ابن عقيل(١) وجرى بينى وبينه الحديث فى مثل ذلك ، وجدت عنده من تهجين ذلك الرأى مثل ما عندى (ا) ؛ ووجدت قصده فى التدبير ، بغير ذلك التدبير ، قصدى وبلغت إلى دمشق وعرضته على والى الموضع(٢) أخذا بفضل الاستظهار فلم يكن الرأى واقعاً منه موقع الاختيار ، فحينئذ كاتبت ابن صالح أشعره بالنصبة التى أنا مأمور بها ، وذكرت : أننى متوقف عنها تصونا من أن أوطئ أقدام خصومه بلاده ، وأستطى مطية أمر ربما ضمن فساده ، وأقول له هل لك فى خدمة سلطانك بما يكشف عن إخلاصك غاشية التهمة والظن ، ويغشى عينك وسن الأمان والأمن ، وذلك أنى أسلم نفسى وهذه الخزائن والأموال كلها إليك ، ولا أستظهر إلا بمروتك وإنسانيتك فى حفظى وحفظها عليك ؛ فان حفظت فينا الأمانة ، أمنك الله تعالى من عادية هذه الدولة — أدامها الله — ماعشت ، واستمسكت من جميل رأيها بالعروة الوثقى ، فقمت من مصرع المتهمين وانتعشت . فورد الجواب بما سكنت نفسى إليه ، وعقدت خنصر تحصيلى عليه ، وكتبت إلى الوزير أذكر توجهى إلى ابن صالح غير مستتبع من الكلبيين أحدا ، وأن العدول عن نصبة ما مُثِّل من استصحابهم أقرب إلى الصواب رشدا ، فقامت قيامته فى هذا الباب ، وكاتبنى يحذرنى من تبديل قوله وتعدى حده ورسمه ، فلم يجد كلامه منى أذنا سميعة ولا نفسا مطيعة ، ثم أنه طغى (ب) عليه طول مقامى بدمشق ، فخيل إليه أننى أمد رسن المقام لاقامة موجبة لى لكى أستدرها على تطاول الأيام ، وكتب إلىّ يعنفنى على التثاقل ، ويحثنى على التسرع فأجبت عنه (ج) بما هذه نسخة بعض فصوله :

خطاب المؤيد الى الوزير اليازورى :

« فلما كان بالأمس ورد كتاب كريم يتضمن ذكر ما ورد به كتاب أمير الجيوش من حديث السرية التركمانية — خذلهم الله تعالى — سمع أنها تسرى إليه ، وأن هذه الحالة

(ا) فى د : مثل الرأى مثل ما عندى . — (ب) فى ك : خفى . — (ج) فى د : منه .

(١) القاضى الناصح ثقة الثقات عين الدولة أبو الحسن محمد بن عبد الله بن أبى عقيل والى صور (ورد ذكره فى مرآة الزمان وفى ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ، طبع بيروت ص ٩٦) .

(٢) جاء فى ذيل تاريخ دمشق (ص ٨٥) : الأمير المؤيد عدة الأمام مصطفى الملك معين الدولة ذو الرئاستين حيدره ابن الأمير عضب الدولة بن حسين بن مفلح وصل إلى دمشق واليا عليها فى مستهل رجب سنة ٤٤١ فحمل معه سديد الدولة ذا الكفايتين أبا محمد الحسين بن حسن الماسكى ناظرا فى الشام جميعه حربه وخراجه وقرئ منشور الولاية والدعاء فتسلم الولاية فى سنة ٤٤٢ =

مقتضيه لطى المناهل نحوه ، وتقديم الوفود عليه ، ووجدت الحث على المسارعة فى هذا الموضع ضد ما جرت به العادة ، إذ كان الحث فى مثله يقع على الرجال المقاتلة أن يلحقوا النجدة والانالة ، ويسرعوا لتقوية الشوكة وسد الثلمة ، وأما استعجال مثلى بصحبة مال ليشهد معمعة ، ويصير (ا) فى فم العدو لقمة فغير معهود ، ولو كان معى (ب) عسكر لاقتضى الحزم عند التقاء الفئتين أن أجمع نفسى بحيث المأمن ، وأحوط رحلى وأسرع بالعسكر ، إلى أن أتقدم بخيط رقبتى وأترك الرجال ورائى ، فكيف ولم يأتلف (ج) معى إلى اليوم اثنان لمنعتى عن الانفاق فيهم ، وتوقعى مايشير به تاج الأمراء الذى هو ابن صالح صيانة لقلبه ، وتصونا عن فعل يكون إثمه أكبر من نفعه فى إيحاشه ؛ ثم أنه لما كان بالأمس آخر النهار ، أتتنى رسالة الأمير المؤيد يذكر ورود الأمر عليه بالاستعجال علىّ فى المسير فكان ذلك من المغائظ التى ضربت أخماسى فى أسداسى ، ومعلوم أننى إن أخلدت إلى القعود وعصيت أمر الحضرة السامية بالاسراع فأنا لهذا الأمير أعصى وعليه أحزن ، فما وجه مكاتبته بما لا أسمع منه ولا أطيع ، وكنت شرحت العذر فى قعودى وأنه لكذا وكذا . سوى هذا فان الذى يقعد بدمشق يقعد إما متفرجاً فى أزهارها وأشجارها ، وإما متكسباً فأما التفرج فاننى إلى اليوم ما رأيت المسجد الجامع المحجوج إليه من كل مكان حق رؤيته ، وأما التكسب فانى لما ندبت لهذه الخدمة [على الحال التى ندبت إليها وحمل إلى من النفقة ما حمل] (د) من أجلها لم (ه) أظننى أعبث ولا أن الأمر فى مسيرى يتم ، فلم أفض ختم كيسها تعويلا على رده كهيأته إلى الخزانة ، وأنفقت على مصالح سفرى من غيرها ، وإذ قد خرجت وقضى الله فيه ما قضى ، فذلك وجميع ما يحويه يدى مدخور لأن أرمى به فى هذا الهور (و) لا لغيره ولا رأى لى فى الادخار والسلام .

خطاب آخر من المؤيد الى اليازورى :

وورد كتاب [وكتاب وكتاب] (ز) بالصواعق فأجبت بما هذه نسخة بعض فصوله :

(ا) فى د : يصيدنى . — (ب) سقطت فى ك . — (ج) فى د : يتالف . — (د) سقطت فى د . (ه) فى د : ثم . — (و) فى د : الجور . — (ز) سقطت فى د .

= واستقامت له أمور الولاية على ما يؤثره ويهواه وأحسن السيرة فى العسكرية والرعية فحمدت طريقته وارتضيت إيالته واستمرت عليه الأيام فى الولاية إلى سنة ٤٤٨ . وفى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٥ أنه ولى دمشق سنة ٤٤٠ ﻫ وظل واليا عليها تسع سنوات . وإذن فالوالى بدمشق إذ ذاك هو هذا الأمير المؤيد .

وأما ما رسم من البناء على الأساس الذى أسس لى فى معنى الكلبيين ، والتوجه بهم إلى حلب دون ما أدَّانى إليه فكرى من الرمى بنفسى إلى ابن صالح فقد عرفته ، وكنت أقطع الطريق إلى دمشق تألفا (١) بالفكر فى هذا الأمر ، وأقلبه ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، وأقول إن ابن صالح هذا رجل أمين ينافس فى استدامة ولايته وبقائها فى عقبه وذريته ، وليس له عن التفىء بظل الدولة أدامها الله بد ولا له عن ظلها محيص ، وأن غيره شذوذ لا يعقد عليهم خنصر ، وأننى إذا أخذتهم إلى قرارة داره أرعبته وأوحشته ، ثم أنه إن جرى والعياذ بالله منه سبب غير ما يؤثر به ، كان جانبه معروفاً لا منكورا ، فكاتبته وراسلته بما كاتبته به وراسلته ، فكيف يجوز لى أن أخزى نفسى وأكذب قولى ، وكيف ينعقد بينى وبينه عقد إذا علم من أول يوم أن عقدى معه محلول ، وما استفتحت فيه من قولى منقوض ، ولست بالذى يرجع عما بذل به خطه ولفظه حقا كان أم باطلا ، كما أنى لا أرجع عن هذه الخدمة بما أخذ من اقرارى فيها بحكم التحشم والسلام .

وكانت كتبى تنفذ على هذه القاعدة ، والأجوبة ترد بآيات النكير التى كل واحدة منها أكبر من أختها ، حتى ورد بخط المعروف بالقاضى القضاعى[1] كتاب فيه بخط الوزير مثل ألفاظه بكل عظيمة يذكر : أنك خالفتنى فى النصبة ، وسرت على ما سولت لك نفسك من القضية ، أتيت على الدولة . أو كلمة جارية فى هذا المضمار . فقلت : عفا الله عنا وعنك ، نحن بعد ما تعاملنا ولا فارقت دمشق شبراً ولا فترا ، فان صلحت لك هذه الطريقة التى أنا سالكها فالمحمود الله ، وإلا فاضمم إليك جناح رجالاتك من الرهب ، ونفذها على يد من شئت وأنى شئت من المذهب ، وقصر دونى عنان النكير والغضب والسلام .

خطاب المؤيد الى تاج الامراء :

وكتبت إلى تاج الأمراء بما هذه نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم . مولاى ابن صالح

---

(١) سقطت فى د .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى المؤرخ والكاتب المصرى ، كان يكتب العلامة عن الوزير الجرجرائى ثم تولى القضاء بمصر مع أنه كان شافعى المذهب ، وتوجه رسولا من قبل المستنصر الفاطمى لملك الروم كما تولى ديوان الانشاء ، وكان عالما فاضلا له مؤلفات منها خطط مصر ، كتاب مناقب الشافعى وتواريخ الخلفاء والأنباء عن الأنبياء وغيرها وتوفى سنة ٤٥٤ هـ . (راجع ما كتبناه عنه فى كتاب أدب مصر الفاطمية) .

تاج الأمراء يعلم حق العلم أننى لو لم أكن أقوى الناس جنانا ، وأطلقهم بالبراءة من النطق لسانا ، وأعفهم نفسا وأنقاهم جيبا ، وأوفاهم ثقة بكون الدولة أدامها الله لا تتهمنى فى عبوديتها ، وحضرة الوزارة (ا) لا ترتاب بى فى خدمتها ، ولو أتيت ما أتيت لكان بعض ما أخذنى من رشقات سهام الملام فى استبدادى برأيى ، ونبذى نصبة غيرى من ورائى يهدنى ولو كنت الجبل الراسى ، ويحول بينى وبينه قلبى ، ولكننى متكل على معونة الله التى لا أزال اخترط منها سيفى ، وكفايته التى أعدها موئلى فى الشدائد وكهفى ، ومشتمل على الثقة بكرم تاج الأمراء الذى أحاشيه أن يدعنى خجلا ، وطيب أصله الذى أعيذه برب الناس ملك الناس ، أن يتركنى على ملبس الذل مشتملا ، وأزيل (ب) مع مابلغنى من احتشاده للتلقى واللقاء المحجوب المشوق . أن يلتفت إلى تجريد الرجال والاهتمام بالترحال ، حتى إذا نزلت بكريم فنائه لم تمتد أرسان المقام ، ولم تعصف علىّ فيه عاصفات الملام ، وأن يظهر من العصبية فى هذه الحالة ما يجمع له بين الحسنيين ، فى قربته إلى الله (ج) بخير ما يتقرب إليه المتقربون من المحاماة (د) عن دماء المسلمين وحريمهم والممانعة عن تليدهم من الذخر وطريفهم ، وخدمة للدولة أدامها الله لا تدع لطخة قديمة إلا تغسلها ولا علاقة من سحر من تلقاها بالسحر والنميمة فيه إلا تبطلها ، ولا بعيداً من الأمل فى إحسانها إلا تقربه ، ولا ممنوعاً من المرام من جهته إلا توجبه ، والثالثة أن تحقق فى أمرى قول المتنبى :

وماشئت إلا أن أدل عواذلى على أن رأيى فى هواك صواب
وأعلم قوماً خالفونى فشرقوا وغربت ، أنى قد ظفرت وخابوا[1]

وهو أسر نفسا ، وأنجى (ه) رأسا ، وأطيب أسا ، وأزكى غراساً من أن يوجد علىّ لقائل (و) مقالا ، أو يجعل له فى ميدان تمضغى بلسانه مجالا ، أو يحدث فى جسم أملى بمضامته حزما (ز) ، أو يعقد إلا على النفوذ معى بنفسه وصليبة قومه عزما (ح) ، أو أن يخفى عليه أنه إذا وقف عند أحسن ظنى به كان بشيراً بين يدى (ط) سعادة دنياه ودينه .

(ا) فى د : الوزراء . — (ب) فى د : أزيد . — (ج) سقطت فى د .
(د) فى د : المراعاة . — (ه) فى ك : انخى . — (و) فى د : القائل .
(ز) فى ك : خرما . — (ح) فى د : غرما . — (ط) سقطت فى ك .

---

(١) هذان البيتان من قصيدة للمتنبى فى مدح كافور الأخشيدى .

خطاب المؤيد إلى اليازورى :

ومن جملة ما كتبته إلى الوزير فى هذا المعنى وغيره ما هذه نسخته :

« ووصل كتاب الحضرة العالية فاستفدت السرور بمطلعه ، والسكون إلى علم مودعه ، من ذكر شمول السلامة والسعادة ، جعلهما الله متصلتى الأسباب ، مُنهَلتى السحاب ، وفهمته ، فأما ما ذكر جواباً عن قولى حين نهيت أن أرعى تاج الأمراء سمعى ، أن لقينى بوجه التفتير فى العزم ، أننى ما شاهدت تاج الأمراء ، ولا علم لى ما يكون منه فى ذلك ، فان خاطبنى على شئ منه خاطبنى بلسان كل الناس به ناطقون وعليه متفقون لو كان كلامهم فى ناجعاً ، ومنى موقع القبول واقعاً ، إن الحضرة العالية(ا) حرس الله عزها عارفة بمن يلقى ذلك إلىّ على جهة الاشفاق وهو غل ، والنصيحة وهو غش ، وأنها لو شاءت أن تسميهم لى أو تصدر كتبهم إلىّ لفعلت ، وذكرت ورود مكاتباتهم يبذلون الخدمة فى هذا الوجه لكنها حرس الله عزها تتجنب ما يوزع سرى ، فمن أجل ذلك تكف(ب) فقد عرفته . ومسلم للحضرة العالية حرس الله عزها ثقوب الرأى والبصيرة والألمعية والمحاسن التى توحدها الله بها ، فأماعلم الغيب فقد انتفى منه النبى صلى الله عليه وسلم ، بدليل الكتاب «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء» ؛ولعله نما إليها حرس الله عزها ذكر رجل أو رجلين تكلما بذلك هما(ج) قليل من كثير ناظرونى على ذلك وقبحوا على فعلى كيف استجبت له وأنا بالقاهرة المحروسة يومئذ ثم فى عامة الطريق . وأما من بذل الخدمة فى هذا الوجه فالحضرة العالية تعلم أنه ما يستوى الراغب فى الشئ والزاهد فيه ، والمتسارع إليه والمتثاقل عنه ، وكان يتعين على مكارمها أن تستجيب لذلك فتجمع بين الحسنيين فى أخذ الطالب إلى ما يؤثره ، وصدى عما أكرهه ، وخصوصاً إن كان الطالب أشب منى نفساً وأصح جسما وأحمل للشدائد عرضاً وأكثر منى لمعالى الأمور طلباً . فأما أنا فما أشبه نفسى إلا بالجوزة العفنة من محالفة(د) السقام ونخر العظام ، والتجافى عن لذة الشراب والطعام ، والقانع من دنياه بنصف رغيف وثوب قطن ، فما بالها — حرس الله عزها — اركستنى فى العذاب ، وحملتنى على المراكب الصعاب ، وما بالها لم تستخلصنى للخدمة بين يديها فى الصناعة التى إن لم أكن عروفاً بها من حيث الكتبة(ه) ، فلقد كنت طباً عروفاً من حيث قضايا الامامة والدعوة ، أليس ذلك خروجاً عن قضية النصفة .

(ا) فى د : السامية . — (ب) فى د : تكسف . — (ج) فى د : مما .

(د) فى د : مخالفة . — (ه) فى د : المكنة أو الكنة .

وأما القول أنها — حرس الله عزها — ما تعرف معنى هذه الرقة من الناس والشفقة ، فقد أجلها الله سبحانه عن أن لاتعرف ذلك ، فمعلوم أننى مادخلت إليها أدام الله سلطانها يوما من الأيام إلا لحاجات الناس أقضيها وأبواب أخر أقوم بها ، والناس بين رجلين : أحدهما من قضيت له حاجة فيتعين عليه أن يظهر شفقة ، والآخر من سمع بذكرى وأننى لا أوثر غير مصلحة ولا أدخل فى مساءة ففرض عليه حكم الانسانية أن يتوجع لمن هذه سبيله إذا خاف عليه أمرا . والكلام فى جميع هذه الأبواب فضل ، بعد أن عزلت عن سماعه سمعى ، وألقيت بين عينى عزمى ، ولم أرجع عما رهنت به لسانى ؛ وأما قولها — أعلى الله مقالتها — أنها تنزهنى عن القلق والفرق ، وأنا الرجل الذى تمرست فى حين الشبيبة بالآفات ، وتحككت بالفادحات المعضلات فذلك صحيح ،فها أنا مرتكس فيها وخائض لتيارها ، ولكننى ما فزعت من شرق إلى غرب ، ولا وليت ظهرى جور إخوان وصحب ، إلا ليبدلنى الله عن الخوف أمنا ، وعن القلق سكونا ، ومن جعل مساورة الخطار ، ومباشرة الأهوال الكبار ، قانونا للدهر وقرينا ، لا يبار حتى طول مدة العمر . وأما الأمر العالى بأننى لا أعير المتكلمين طرفا ، ولا أثنى نحوهم عطفا فقد قلت وأقول إننى لمقابله بالسمع والطاعة . وأما المرسوم فى معنى تاج الأمراء وترك الخروج عن المثالة الممثلة فى بابه ، فقد خدمت فى أمره خدمتين عظيمتين إن عرفت لى إحداهما : أننى تصونت عن استصحاب قوم من ذوى بغضة إلى دياره فأتركه ينفر عنى ويتجمع منى ولا يدنو لغرضى إن استدنيته وأكون بعد ذلك على فرق منه ، أو يكون أحد الأراذل والأتباع يحدث شؤمة فيلقى بأسهم بينهم فنحصل فى صداع قريب يشغلنا عن البعيد ، والأخرى ألا يذهب المال فيهم ضياعاً طول مقامهم معى بحاب إلى أن يتقرر أمر تاج الأمراء وابن وثاب[1] وهذا الباب غير مفسح لتوجه الكلبيين على الوجه المأمور به ، ولا محدث فى الأمر ما يقع الحذر منه ، فهو أمثل من المثالة المذكورة إذا نظرت إليه عين النصفة ؛ وأما وقوع الاستصابة لما يفعله صاحب الجيش من حشد الحشود وتجنيد الجنود ، فأقول أليست هذه الحشود والجنود إذا اجتمعوا تعلقوا بأطواق وقالوا هات، فأعللهم حينئذ بالوعود ، وأجردهم للسهام والأسنة بالبذول ، أفرأيت من توجه للقتال بالمواعيد ، ويقول لهم «امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون» وأن المال واصل على إثرى ، أحاشى الحضرة السامية أن تكون بهذا

---

(١) هو منيع بن شبيب النميرى صاحب حران وكان إذ ذاك فى حروب مع تاج الأمراء ثمال بن صالح صاحب حلب على امتلاك الرقة (راجع مرآة الزمان حوادث سنة ٤٤٨ نسخة خطية بدار الكتب المصرية) .

القول الاستبرية لعقلي(ا) ، ومستدرجة لما عندى ؛ وأما استتباع من أمر باستتباعهم فقد صدر جواب هذا الفصل مايغنيني (ب) عن تكريره ؛ وأما القول فى أننى لوكنت فى بروج مشيدة لأنفذ الله فى محتوم أقضيته ، ولو كنت فى عين المتالف لألبسنى إن أراد الله ملبس كفايته ، فقد انتفعت بهذه الموعظة الحسنة ، على أن عندى منها الأحمال ، و إلىّ فى مثلها تشد الرحال ، ونص القرآن يوجب ذلك على رأى قوم ، وينفيه على رأى قوم ، والمكلف مستطيع ، و إن لم يكن مستطيعاً كان التكلف باطلا والسلام» .

وتردد من المكاتبات الكثيرة والمخاطبات الطويلة بينى وبين الوزير نهياً عن المسير إلى ابن صالح على غير المثالة التى مثلها ، وإباء منى له وامتناعاً عنه قولا إننى لا أنقض ما قدمت فيه قولا ،ولا آتى غير ماشرطته فعلا ، وسرت بما صحبنى من الأموال العظيمة والسلاح والخيول ، ولقد شققت العصا بالخلاف عليه ، وأنا على تخوف مما ينتهى الحال إليه أخشى أكل لحمى ونهش عظمى فى سقيفة كلب وكلاب من قبل دخول دار ترك وتركمان ، فلا أدرى بأيهما أنا أكثر فرحاً بالسقيفة أم بالدار ، وكلاهما محيط به سرادق من نار .

وتواعدنا أنا وابن صالح على أن يلقانى إلى موضع يلى حمص يقال له الروستان على جسر نهر العاصى ، فما زلت أسير عن دمشق رحله ، وهو يسير من حلب رحله ، وسعى صليبة عسكر الشام ، ومعه جمهرة بنى كلاب إلى أن التقت الفئتان منا ومنهم فى المكان المذكور ، فضرب عسكرنا مصافهم على شاطئ الوادى من العدوة الغربية ، ووقف عسكرهم من العدوة الشرقية ، وكان الموقف موقفاً عجيباً حسناً ، والناس يظنون الظنون ، ويحسبون حساب ما كان وما يكون ، فسقت جمال الخزائن والأموال والسلاح أمامى وسرت فى أعقابها على هون وسكينة ووقار وسكون ، وأبيت أن يمشى بين يدى إلا اثنان من الشاكرية لا يحملون بأيديهم حديدة ، حتى التقيت بوجه ابن صالح بوجهى ، وألقيت إليه السلام فى نفسى ، وما يشتمل عليه صحبى ، فما سلم بعضنا على بعض إلا وشبهته بالوحش النافر ، فاقتنصته بشرك الايناس الوافر ، فاتفقت منى ومنه الضمائر ، وخلصت بحمد الله منى ومنه السرائر ، فما أشرق وجه نهار إلا زاد وجه سكونه إشراقاً ، ولسان ثقته انطلاقاً ، وأجرانى الله على جميل صنعه بنجاح المسعى و إصابة المرمى ، وكون التوفيق عذية للواء عزمى ، والصواب رائدا لمرامى همى ؛ ووفق ابن صالح بحسن خدمته توفيقاً أبان معه عن صالح عمله ، وصافى اعتقاده ، وقطع به الشقة إلى قطع ألسن أعدائه وحساده ،

(ا) فى ك : بعقلى . — (ب) فى د : يغمنى .

وأتاح الله تعالى لى وله من الخير ما يقصر دون جزء من أجزائه ألسن الشكور ، ولو أنى تدبرت برأى كنت به مدبراً ، وجمعت بين الضدين فى دار ودرت لها متدبراً ، لكانت الصيحة الواحدة إذا وقعت تعقل رجلى دون تجاوز حلب عقالا ، ولا تذر من رحلى عقالا ، ولكن الله تعالى سلم إنه عليم بذات الصدور ، وهو المحمود على نعمه المشكور .

ولما نزلنا بمعرة النعمان لحقنا نخبة وجوه العسكر البغدادى(١) متوجهين لتلقينا لما امتد بهم من شوط (ا) الانتظار لظنهم أن الذى يوعدون به من إراشة سهم تعليل بالغرور ، على ماجرت به عادة ملوكهم ووزرائهم فى تلك الديار ، غير عالمين أن الدولة العلوية أدامها الله تعالى منزهة عن التعليل بالغرور آخذة بالتأدب بآداب الله تعالى وقوله : «واجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور» . ولاحظونا متوجهين إليهم ثقالا بالمال والخيل والسلاح وهم غير مصدقين ، وعاينونا منطلقين نحوهم وهم من ربقة الارتياب ليسوا بمطلقين ، ولما نزلنا بباب حلب أفضت ما صحبنى من خلع ابن صالح عليه ، فلم يشتمل قبلها على خلعة حلت من السعادة محلها ، بأن جعلت له ملابس الأمنة والقرار ، ونزعت عنه أطمار الظنة وسوء الاستغفار ، ونقلته من حيز المؤلفة قلوبهم إلى حيز من طهرت بماء المخالصة جيوبهم ، وتمهدت على مضاجعها بعد أن كانت تتجافى عنها جنوبهم ؛ ولما دخلت حلب جددت عليه (ب) من إيمان البيعة فى خدمة الدولة ما كادت تميد الجبال لثقله ، وتنشقق السموات والأرض من حمله ، وأخذنا نعد للانحدار إلى الرحبة عدته ، ونمخض الأمر جداً واجتهاداً لنأخذ زبدته ، ففى أثناء ذلك ورد كتاب ابن مروان(٢) يذكر فيه ، ما بلغه وروى فيه من المهم المتعلق به صلاح العباد والبلاد وطموس آثار ما ظهر فى الأرض من الفساد ، وأنه كان من جملة من أجاب دعوة التركمانية الطاغية درأ لنفسه ومداراة لوقته ، وظناً أنهم من أجناس البشر الذين يرعون حرمة(ج) و يرقبون

(ا) فى د : شرط . — (ب) سقطت فى د . — (ج) فى د : عن خدمة .

---

(١) يقصد بعثة من جند البساسيرى .

(٢) هو نصر الدولة أحمد بن مروان صاحب ميافارقين وديار بكر . تولى ملك هذه الديار سنة ٤٠٢ بعد أن قتل أخوه أبو سعيد منصور ، وكان نصر عالى الهمة قد حسن فى عمارة الثغور وضبطها أثره ، كما كان مقبلا على اللذات والترف فاقتنى من الأوانى والآلات ما تزيد قيمته على مائتى ألف دينار ، وهو الذى وزر له أبو القاسم الحسين بن على المغربى الذى فر من الحاكم بأمر الله الفاطمى ، ووز له فخر الدولة بن جهير وزير العباسيين المعروف ، وفى سنة ٤٣٠ هـ . سعى بقرواش بن المقلد صاحب الموصل لقطع خطبة الفاطميين ، ولما قدم طغرلبك إلى العراق أسرع فى اهدائه أموال وهدايا عظيمة . وتوفى نصر الدولة سنة ٤٥٣ هـ .

فى مؤمن إلا وذمة ؛ فكشف الزمان له عن شرهم وغدرهم ، وظلمهم وجورهم ، وإطلاقهم الأيدى فى الأموال والحريم ، وكونهم أينما حلوا كالريح العقيم ، ما تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، ما اقتضى التخلى عنهم والبراءة إلى الله سبحانه وتعالى منهم ، وإنه سمع أن الذى وصل معى من المال يقل(١) عن أن يبلغ به غرض ، أو يقضى به لهذا الصمد الكبير مفترض ، وكان ينبغى أن يكون جزره مداً ، وهزل ما جد الأمر به جداً ، إلى غير ذلك من أقوال قالها ، ومكاتبات من حبالها ، فأجبته عنه بما هذه نسخته :

خطاب المؤيد إلى ابن مروان :

وصل كتاب حضرته أدام الله جلالتها دالا عن كون وجوه السلامة بها مستهلة ، وسحب السعادة لها منهلة ، على ما تناوله منى لسان مثن بالشكر لأنعم الله تعالى على ذلك خطيب ، وقلب إليه جل جلاله باخلاص الرغبة فى إدامته قريب ، وقرأته وفهمت مضمونه ، وسألت الله جل ثناؤه أن يقوى لها على بلوغ الغرض فيما يرضيه عزماً ، وأن يجعل بينها وبين التعرض لمساخطه ردماً ، وأن يعضد رأيها بالتوفيق ، ويهديها فى مناصبها ومساعيها لسواء الطريق ، إنه على ما يشاء قدير والعسير عليه يسير .

فأما ما تصرف عليه من الاعتذار الكريم عما بدر من فعل نافى المعتاد من فعله سداداً ورشداً بالركون إلى الظالمين واتخاذه المضلين عضداً ، وأن ذلك عن مهاداة أشهدوا بها حبه(١) ، وملاطفات ملكوا معها قلبه ، وأمور اقتضت أن تدفع السيئة بالتى هى أحسن ، ويسلك بها الطريقة التى هى أسلم من كشف الغطاء وآمن ، وأنه لم يزل يسحب على ظاهر المجاملة معهم ذيلا ، ويعلق للمداجاة والمخاتلة حبلا ، حتى فاض على قلبه — أحياه الله — بالمسار ما استفاض من شرهم فى الأقطار ، وأحاط من سرادق نارهم بجميع الديار ، فحينئذ أحجمت نفسه أن تلحظه من عيون الله سبحانه عين ، وهو لهم فى ظاهر حاله يد وعون وهم شر أمة حملتهم أرض ، واشتمل عليهم من المقايس طول وعرض ، فرأى الاقلاع عنهم بريح الثقة بالله تعالى فى كون ما هم فيه متبرا ، ووجود من يخوض ظلام ظلمهم

(ا) فى د يقيل .

---

(١) يقول ابن خلدون فى تاريخه ج ٤ ص ٣١٦ أن نصر الدولة أحمد بن مروان كان يهادى السلطان طغرلبك بالهدايا العظيمة ومنها جبل الياقوت الذى كان لبنى بويه اشتراه من أبى منصور ابن جلال الدولة وأرسل معه مائة ألف دينار فحسنت حاله عنده .

من المسلمين صبح الفرج من عند الله سبحانه مسفراً ، فقد عرفته وما ذاك إلا صنع من الله جميل له — أدام الله تمكينه — نزع عنه لباس عار وأشعره من نفى الظنة عن فضله وأدبه أحسن شعار ، وليست ألطافهم وهداياهم مما ينبغى أن يستفز ذا حنكة ، ومن يأوى من العقل إلى أدنى مسكة ، فانها سهام مسمومة وأسباب القصد فى حسن المخاطبة (ا) بها معلومة ، ولو طالت لهم يد — لا أطالها الله أبدا ، ولا فت إلا فى عضدهم عضداً — ، لاستنابوا عن الألطاف والهدايا ما يرميهم الله به من قوارع البلايا والرزايا ، وذلك أمر أوضح من النهار ، يغنى عن إقامة دليل عليه بفضل الاستظهار . وأما ما ذكره من سكونه إلى ما رأته الحضرة النبوية المقدسه خلد الله ملكها ، ومجلس الوزارة السامى حرس الله عزه ، من صرف العزم الكريم إلى هذه الجهة بما يهوى معه فى الثرى نواجمها ، ويقطع ببأس الله تعالى براجمها ، عصبية للدين وغيرة على المسلمين ، الذين أصبحت أموالهم طعمة لأهل البغى ، وحريمهم عرضة للانتهاك والسبى ، ووقوع التسيير لى إلى مستقر الأجل المظفر الذى هو لعارض هذا الداء الطب الرفيق ، وله فيه الرأى المصيب والفكر الدقيق ، وقوله إن ذلك من الأمور التى تقتضى أن يبذل فيها النفيس من كل ذخر ، ويستلان فى أثناء بلوغ الايثار فيها كل خشن ووعر ، وأنه انتهى إلى كريم سمعه أن الواصل بصحبتى قاصر دون حد الكفاية ، مقصر بالممتد من أيدى الرغبات عن بلوغ الغاية ، وأنه أدام الله تمكينه حزبه من الأمر ما يحل من جلال هذا الأمر محل الدقاق وما لا مطار له فى هذه الآفاق ، فأنفق عليه خمسمائة ألف دينار ، وهو لها مستقل حتى انقاد له زمام حزنه وهو سهل ، فقد عرفته ، وهو يعلم خاصة والعقلاء عامة أن الذى تتحمله الحضرة المقدسة خلد الله ملكها فى كل سنة من مئونة الحرمين المحروسين وحدهما فضلا عن روابط(ب) الصدقات المتصرفة فى الأقطار إلى غيرها(ج) ما يقوم بازاء مؤنة الملك المدل بنفسه المذل لأبناء جنسه ، فكيف يتعاظمها فى هذا الباب الانفاق . ولعل فى فضاء ساحة جودها تضييق(د) الآفاق ، وما هذا شئ يحرك النحيزة(ه) العلوية ، التى فى موضوع علمها أن الدنيا أضغاث أحلام ، وأن المكتسب من زبرجها متقشع تقشع ضباب وغمام ، و إن كان فيما صحبنى قل ففيما ورائى بحمد الله كثر ، وإن سال على ما يظن معى نهر فالذى يلينى بفضل الله ورحمته بحر ، وما هنالك (و) إلا سماء فتحت أبوابها فى يد

(ا) فى ك : المخالصة . — (ب) فى د : روات ، وفى ك : رواية .
(ج) فى ك : إلى غيرهما . — (د) فى د : تضييع .
(ه) فى د : الحيزة . — (و) فى د : هناك .

تجود بالاطلاق ، وأفق لا يضيق أرجاؤه من صدر منشرح بالبذل والانفاق ، وسيف لا ينبو حده عن عزيمته(ا) على ما يرضى الله تعالى فى مساطعة هؤلاء الكفار ، الذين استحلوا ما حرم الله فما أصبرهم على النار ، وحقيق على الله بعد ذلك أن ينصر عمار مساجده على الهدام ، والمتوجهين نحوه بالطاعة على المتوجهين إلى الأنصاب والأزلام[١] ، وأن ينجز لمحمد صلى الله عليه وسلم ما وعده فى أهل بيته ويجعل اليد الطولى والكلمة العليا لبنى بنته إنه أهل ذلك ووليه .

وأما رسالته المتبخطرة(ب) فى أذيال لطيف عتبه ، الدالة على راسخ ولاية الدولة أدامها الله تعالى وصافى حبه فقد وقفت عليها ، وأنا أتوكل لها فى الجواب أخذاً بأدب العبودية أولا ، وعنه فى الانهاء والسؤال فى بلوغ الأغراض قياماً بحكم المودة ثانياً ، وأما القول فى معنى الولد رضى الله عنه المستشهد[٢] بالباب الطاهر — خلد الله ملكه — الذى كان الناس على كلمة سواء فى حزن عليه وبكاء من الخليفة خلد الله ملكه الذى هو ولى النعمة إلى أدنى من كان(ج) وقعت عينه يوماً عليه من الأمة ، ووقوع الظن الذى إن لم يستغفر الله تعالى منه حق الاستغفار كان الظان مثقلا بعظم الآصار والأوزار ، إنه سنح رأى فى قتله(د) ووقع تجوز فى ارتكاب المحظور فيه وفعله ، فأنا استفتى عن المنفوع الذى قصد لنيله باكتساب هذا العار واحتقاب هذا الخزى مجموعاً إلى النار ، أطمعاً فيما ملكت يمينه ليجازى فى صوب هلكه ؟ أم فزعاً أن يستنفر(ه) الرجال بصوت ملكه ؟ وبالله أقسم يميناً برة أنه لو اجتمع بالقاهرة(و) المعزية — حرسها الله تعالى — ملوك الأرض الذين لهم القلانس والبرانس لما هجس فى صدر بشر باعتقاد الملك فى أحدهم هاجس ، ومعلوم أن بنى أبى طاهر[٣] الذى كان ملك بغداد بالأمس أحق وأولى فى مكان هذه الرهبة لو كانت رهبة ، وأجدر أن يكونوا مهلكين لو كانت فى هلاك مرهوب منه رغبة ، ولئن طلع من مطلع(ز) الخلافة الأموى والعباسى فلن يكاد

(ا) فى د : عزيمه . — (ب) فى ك : المتخطرة . — (ج) سقطت فى ك .
(د) فى د : قلبه . — (ه) فى د : يستفز .
(و) فى د : المعزية القاهرة . — (ز) فى د : طلع .

(١) الأصنام والأزلام فى اصطلاح الفاطميين هم الذين اغتصبوا حق على بن أبى طالب وأبنائه فى الخلافة فبنو أمية وبنو العباس هم المقصودون دائما بهذا الاصطلاح .

(٢) لم يرد فى كتب التاريخ ذكر هذا الولد المستشهد بالقاهرة ، فلم نستطع تحقيق هذا الحادث الذى يشير إليه المؤيد .

(٣) سبق للمؤيد أن ذكر أن أبا على بن أبى طاهر البويهى كان يعيش فى القاهرة مكرما عزيز الجانب .

يطلع منه الكردى والتركى وهذه والله حجة داحضة ، وألسن الحق بالدفع لها من كل جهة معارضة ، ولقد قام من اهتمام مجلس الوزارة العالى بذلك الشهيد رضى الله عنه فيما يريش سهمه ويصعد نجمه ويوجه كله ويقدم قدمه ، ما لو كان أبوه حرس الله مدته لما قام فيه بعض مقامه ، ولاعتزم عشير اعتزامه ، ولكنما خانه المقدور وجرت بضد التقدير الأمور . فأما القول فيما جرى فى شأن من يقوم بالتعزية من دواعى التقصير وأنه ندب لقضاء الحق فيها غير الأثير الخطير ، فلم يندب لها إلا شريفان : اسماعيلى النسب والآخر صوفى المذهب ، فكلاهما ذو قدم فى الرشاد ، وحظ فى السداد ، ولو نظر إلى الحال بعين الرضا لم يجد معترض عليها تعرضاً ، وقد صادفا من قلة الاحتفال بهما ما لو عتب عليه العاتب لاتسعت فيه الطرق(ا) والمذاهب . وأما القول فيما كان المولیان الامامان الحاكم بأمر الله والظاهر لاعزاز دين الله — قدس الله روحهما وصلى عليهما — يريانه له أدام الله تمكينه من حسن الرأى ويسوقانه إليه بالتحف والألطاف من الحسنى وما كان جعل له بتنيس ودمياط فى كل سنة من رسم الاستعمال ،ومصير جميع ذلك منبت الحبال ، منقطع الأوصال ، فقد وقع الاعتراف منه للدولة ثبتها الله تعالى بالحظ الموفور من النعمة فهل لا نص على مقام مشهود له فى الخدمة كما قال إن الألطاف هى التى أخذته إلى التركمانية فنادى بشعارهم ، وغالى فى رفع منارهم ، فان كان تهاونه بخدمة هذه الدولة العلوية من حيث أنه لم يرعب منها كما أرعب من الجهة التركمانية ، فليسا سواء : جار سليم جانبه مأمون ، وجار غدار خئون . وقبل وبعد . فاذا قد وفيت بالاجابة(ب) عن هذه الفصول من حيث لم يسعنى السكوت عنها والقعود عن فرض خدمة ولى نعمتى — صلوات الله عليه — فيها فاننى أنهى الحال فى جميعها فى أحسن المعاريض ، وأتوصل إلى نفى الشوائب منها بالتصريح من القول والتعريض ، وأبلغ فى خدمته نهاية المستطاع ، وأنزل على حكمه نزول الأشياع والأتباع ، ثم أرجع إلى ذكر هذه النائرة التى وقعت فى الأذيال وكدرت المشارب من العذب والزلال ، فأقول لم تكن نصبة المكاتبة لحضرته مشعراً لها أننى متوجه بين ظهرانى الجمهور ، المؤلفة بينهم حسائك الصدور ، الذين أجمعوا أمرهم على مواقعة المحذور ، مستسلمين فاما لهم و إما عليهم للمقدور ، إلا ليجيبنى بذكر ما استقر عليه رأيه — أعلاه الله — مساعدة ، والكون مع الجماعة حرسهم الله تعالى يداً واحدة ، ورأيته قد طوى ذلك طى الكتاب ، وقصر الجواب على لطيف العتاب ، وما أعطى المشورة المباركة فيما هو عين الصواب ، وجميع ذلك مقبول وعلى الأحداق محمول ، ولكن لابد من أن أستعلم إنْ هو أدام الله تمكينه فى الأنجاد والارفاد والمساعدة على بلوغ

(ا) فى د : الطريق . — (ب) فى ك : سقطت .

المراد ، ليقع السكون إليه ، ويعقد الخنصر عليه ، فان أنعم بالابانة عن شرح ما يعتمده ، وتفصيل ما يراه ويعتقده ، قويت(ا) المنن وزالت الظنن ، وكان كل منا لعدوه يقارع ، وعن حريمه يمانع ، ولنفسه يمهد ، وفى صلاح شأنه يجهد ، وإن أخلد مخلد إلى إظهار تعزز بهم وتعلق بسببهم كان معلوماً أنه يغالط نفسه بهذا المقال ، وأن مفضى سعيه فى مشاركتهم إلى ضلال ، وأنهم إذا أمكنت الفرصة لايرعون حرمة ، ولايرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة . فاذا كان معنا ومن جملتنا فآية ذلك أن يحذف من المنابر اسمهم ، ويغير رسمهم ، وينادى بالشعار العلوى ، ويخلق فوق المنابر بالوسم المستنصرى ، ليأتيه من الخلع والتشريفات والألوية والسمات ما يعتاض معه النور عن الظلمات ، وهذه زبدة الكلام ، وثمرته الخارجة من الأكمام ، ولحضرته السامية الرأى العالى فى الوقوف على ما كتبت به والاجابة عنه — بسار أبنائها ومتجدد مراسمها إن شاء الله — كتابى .

خطاب آخر الى ابن مروان على يد وسيط :

ولم أزل أراصد حالة تفتحنى للمواصلة وتهزنى للمخاطبة حتى ورد كتابه إلى مجلس الوزارة (ب) السامى بما ورد ، وأمرت بمكاتبته ومكاتبة مجلس الامارة ، فكأنى نشدت فى ذلك ضالة ، وأصبت غنيمة ، وكاتبتهما جميعاً بما ورد جوابه على يدى حاجب (ج) متقرب ، وأنا علم الله مسرور بما وشجه الله بيننا فى المواصلة من الحرمة ، وكشفه من رتاج الحشمة ، لما استقر علمه عندى من تعصبه وتدينه بدين الولاء لأهل البيت صلى الله عليه وسلم وحرصه على خدمة الدولة العلوية — أدامها الله تعالى — التى من لبس حلاها (د) وتفيأ ظلالها فقد اتخذ مع الرسول سبيلا ، ووجد إلى قصد النجاة دليلا .

وبعد فانى أريد الأخذ معه فى الحقائق التى لا يشوبها شئ من الادهان وذلك أن مجلس الامارة كان حدث له رأى فى مهاجرة الحضرة العلوية كمثل رأيه فى مواصلة الجهة التركمانية ، وكان التعجب من الاثنين يكثر ، والقلب عن مصدر مثلهما عن معدن الفضل والرأى والقيام فى الرياسة ينفر ، فلما كان فى هذه المدة القريبة ورد كتابه بما هو بمثله أخلق وبفضله أليق ، مظهراً للعتبى قائلا للحسنى ، ومشيراً بما يشير به الألمعى والمكين

(ا) فى د : قرت . — (ب) فى د : الوزير . — (ج) فى د : الحاجب .
(د) فى د : جمالها .

فى مشورته ورأيه القوى ، فعلم أن الذى فاء به إلى الحق بعد أن ثنى عنه عطفه جانباً ، وكساه كسوة الرضا عقيب أن ذهب بلا سبب مغاضباً ، فهو الوسيط(ا) المبارك الأستاذ الجليل الجامع فى ذلك بين قضاء حق صحبته وخدمة الدولة العلوية أدامها الله تعالى من لبس جميلها(ب) فى صميمته .

ثم أننى كوتبت من مجلس الوزارة بمكاتبته متشكراً لذلك على حميد الرجعى وله فيه على مشكور المسعى . وأسوق(ج) الكلام إلى ما أنا متوجه فيه من الأمر الذى أستعين بالله تعالى فيه وأتوكل عليه ، وكون ذلك متعلقاً بالصغير والكبير ، والحاضروالبادى ، «ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» فى خلوص الضرر إليه إن قعد عن النصرة ، وسلك فى وادى الغفلة والغرة ، فورد الكتاب بما نكب فيه عن القصد الذى أردته ، والمعنى الذى قصدته ، وهل له معنا يد تطول إلى مكاشفة القوم ومناجزتهم ، ومساعدة على ما لعل الله يتعس جدهم ، ويفل معه حدهم ، أم لا ؟ وعدل فى الجواب إلى معاتبات ومشاورات وأمور قد ضاق الأمر عنها واختنق الزمان فيما نحن بصدده دون الاعادة والابداء فيها . ولما كانت الصورة هذه ، ووجدتنى لم أحصل على بيان من جهته مع عجلة حفزتنى ومسير لزنى وأمر يكاد ينكشف عنه الغطاء ، من دون شهر عظم الله للاسلام والمسلمين عائدته ، وصرف إلى المفسدين فى الأرض عاديته ، أجبت عن كتاب حضرته بما هو واصل بوصول هذه المخاطبة ، فتقدم الأستاذ الجليل بشرح مضمونه له ، والذى أقول له فى هذا الجواب إن مجلس الامارة إن قبض(د) عن مملأة الجماعة فى هذا الوقت يد نصرته ، وهم قوم حركتهم القرائح والنحائز لملابسة هذا الخطر(ه) وممارسته ، وبعيد أن يجمع الزمان أمثالهم ويؤلف بين المتفرقين منهم ، كان على عين الغلط .

ثم أقول فى هذا الفصل قولا يجلوه برهان العقل ، هب أن التركمانية لكم على ما يظهرون سلم ، والتواصل بينكم وبينهم حق وصدق ، فما هنالك عدو يقصد غيرنا ولا مملكة تطلب سوى مملكتنا ، ألستم فى مدرجة طريقهم إلينا ، وعبورهم عليكم إذا أرادوا قصدنا ، وأنتم بين أمرين : إما أن تلقوهم تلقى الخادم لمخدومه والصديق لصديقه ، وتمكنوهم أن يجوسوا خلالكم ، أو لا تأمنوهم فتعتصموا بحصونكم عنهم وتتمنعوا منهم ، فان كانت العزيمة الخدمة والتلقى فقد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ، ومعلوم

(ا) فى د : الوسط . — (ب) فى د : جملها . — (ج) فى د : وأن . — (د) فى د : قصر .
(ه) فى د : الخطير .

ما جرى بالأسس على ابن الملك أبى كاليجار الملقب بالرحيم[١] عند تلقيه لهم واحفائه بهم وقصده لخدمتهم ، من بعد توثق مدعى(ا) الخلافة[٢] له بالايمان المغلظة والمواثيق المؤكدة فحين دخل مخيمهم نشب فى الشبكة من فوره ، فما رعى فيه دين ولا يمين ، ولا عرف للخليفة الذى توسط الحال قدرا ، مع المعلوم من حال الرحيم — المرحوم اليوم — خلصه الله فى كونه لا يأوى إلى سبد ولا لبد ، وإنما له قوت(ب) لا يميته ولا يحييه ، فكيف من يؤذن بالأموال والخزائن ووراءه الحصون التى هى من أسهات الحصون والبلاد المعمورة المأهولة ؛ فهذا باب ؛ وإن كانت العزيمة الباب الثانى فى الاعتصام منه فقد دمر الله تعالى إذن على المهاداة والمشابكة تدميراً ، وصارت كما قال الله تعالى «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا»[٣] وإذا كان مفضى الحال إلى ذلك فمالكم لا تستقبلون من الأمر ما توجب الضرورة أن تستدبروه فتكونوا كما قال القائل :

رأى الأمر يفضى إلى آخر   فصير آخره أولا

ولم لا تستغنمون هذا الوقت والأيدى معكم مجتمعة ، ولكم فى الأرض من أهل الموافقة والمرافقة مراغم كثيرة وسعة ، ووراءكم من الدولة العلوية — أدامها الله تعالى — ردء عظيم وقد قيل :

انتهز الفرصة اما مرت   فربما طلبتها فأعيت.

وهذا مما لا خفاء به على عاقل ووجه العقل الذى لا يحجبه حجاب باطل والسلام . وأما نحن فنعتقد أننا إلى أن نرث ديار الظالمين أقرب منهم إلى أن يرثوا ديارنا ، بحجة من قوله «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون»[٤] وما أرى

(ا) فى د : يدعى . — (ب) فى د : موت .

---

(١) بعد أن دخل طغرلبك بغداد قامت فتنة فى المدينة بين العامة وبين عسكره فقبض طغرلبك على الملك الرحيم ورجاله ، وأمر باقى عسكره بالسعى فى أرزاقهم بعد أن كان الملك الرحيم ممن شايع طغرلبك ورحب بدخوله بغداد (راجع ابن الأثير ج ٩ ص ٤٢٥ ومرآة الزمان حوادث سنة ٤٤٧) .

(٢) لا يعترف الاسماعيلية بخلافة أبى بكر وعمر وعثمان ولا بخلافة الأمويين ولا العباسيين ويقولون إن هؤلاء جميعاً كانوا مدعى الخلافة ، والذى يقصده المؤيد هنا هو الخليفة العباسى القائم بأمر الله .

(٣) سورة الفرقان آية ٢٣ .

(٤) سورة الأنبياء آية ١٠٥ .

وسم الصالحين أليق(ا) بأحد ممن جده محمد صلى الله عليه وسلم ، وأبوه على عليه السلام ، ودياره روضة العدل والأمن والحرمات متماسكات به ، وصدقاته فائضة على الكبير والصغير ، فاذا كانت النصبة هذه فلا خلاف لوعد الله سبحانه ، فهذا باب من حيث الثقة باللهوالتصديق لقوله وتجنب الشك فى وعده ووعيده ، فأما من حيث الرأى : فان الذى أقدره الله سبحانه وله الحمد على أن يلبى دعوة الأجل أبى الحارث ومن صحبه لقبض المال والعدد والخيل بلا حساب ولا كتاب ، أقدر إن ضغطه والعياذ بالله أمر ، ودنا من تلقائه شر ، أن يفتح من خزائنه وخزائن آبائه عليهم السلام خلجان الأموال ويستجر بها من الخيل والرجال مايذر فضاء البرارى بالقنا مشجراً ، وينشى سحاب السيوف للدماء ممطراً ؛ وأسأل الأستاذ تأمل ما ذكرته بعين بصيرته وتصور الأمر فيه بصورته ، فان علم تزييداً منى فيما أوردته أو عدولا عن حد نصفة فيما سردته فنَّدنى فيه ، وإن تكن الأخرى أشار فيه بالواجب الذى يتقرب إلى الله تعالى بصلاح المسلمين فيه أولا(ب) وصلاح صاحبه ثانياً والاستحاد(ج) إلى الدولة أدامها الله ثالثاً والانتداب فى ذلك لاعلاء بنيان ما أسسه ، واستثمار ماغرسه إن شاء الله تعالى .

خطاب المؤيد الى جماعة الاتراك الذين مع البساسيرى :

وخوطب الواردون من العسكر البغدادى على العودة إلى الرحبة ليبلغ شاهدهم الغائب باكتشاف ستور الشك عن وجه مايرتقبون ، واقتراب حصولنا بين ظهرانيهم ، فعادوا بعد أن جعلنا بيننا وبينهم موعداً فى اللحاق بهم محصوراً ، وقدراً من الأيام مقدورا ، وكاتبت جماعة الأتراك بما نفذ صحبتهم وهذه نسخته :

كتبت أطال الله بقاء الاخوان الاصفهلارية (د) والحجاب وما يزيدنى دنو الدار منهم إلاشوقاً إلى لقائهم ومشاهدتهم ، وصبابة إلى محادثتهم ومفاكهتهم ، والله تعالى ييسر(ه) من الاجتماع أجمعه لخير الدارين والفوز العظيم بحظ الحسنيين إنه على ما يشاء قدير ، وغير خاف عنهم ما كان من إنعام مولانا الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين بالاحفاء(و) بهم والتلفت بوجه المراعاة إليهم رغبة

(ا) فى د : أليق بأحد وأليق بمن جده محمد . — (ب) فى د : سقطت. — (ج) فى د : الاستجاء.
(د) فى د ، ك : الاطفهلازيه . — (ه) فى د : يسير . — (و) فى د : بالاخفاء .

فما يردهم إلى إهلهم وديارهم أولا ، وحرصاً على أن يدخر منهم خير ذخيرة من الأنجاب والأنجاد الذين هم من أرباب(ا) الملوك ثانياً ، وتعرضاً لما عند الله الذى هو خير وأبقى فى انتزاع دماء المسلمين وحريمهم من نشب الهلكة والهتكة ثالثاً وهو أهم الأبواب ، ولتجرد(ب) عزيمته قرنها الله بالسعادة أقوى الأسباب ، وما قام له وزيره من العصبية فيما يرد كهام سيوفهم محدداً ، وملبس عزهم بعد الاخلاق مجدداً ، وأن ما هناك بحمد الله ومنه ضرورة تجعل المسنون فى هذا الفعل مفروضاً ، ومجهوله معروفاً ، إذ كانت الطاغية التركمانية من حيث أخذت عصا التسيار ، وإلى حيث انتهت من الديار لم تنازل ملكا ممولا ولاسلطاناً معما بعز الاتساع فى العساكر والجيوش مخولا ، ولم تنزل من غير منازل الغدر والخديعة منزلا ، وها هى بغداد لم يذهب ريحها إلا بأن فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، فدب فيما بينكم فى(ج) تفريق الشمل دبيب المكر ، وكتلها تسلطهم على ما تسلطوا عليه من مملكة ملك أبى كاليجار فانه نتيجة (د) الخلف بين أولاده والشجار ، وقد هموا خذلهم الله بشيراز غير دفعة أن يأخذوها(هـ) فبلوا من عامتها بكسر النواجذ والأنياب[1]، وأفرشوا فى القاع طعمة

(ا) فى ك : ارب . — (ب) فى د : وأتجرد . — (ج) سقطت فى د . — (د) فى د : يتجه .
(هـ) فى هامش ك : أن يأخذوها وكما هو أن يأخذوها .

---

(١) بعد وفاة الملك أبى كاليجار البويهى انقسمت مملكته بين أبنائه فقد تولى الملك الرحيم أبو نصر خرة (وقيل خسره) ملك العراق واستولى أبو منصور فلاستون على اقليم فارس وكانت البصرة من نصيب أبى على ، ولكن طمع الملك الرحيم فى أملاك إخوته ، فسير أخاه أبا سعد لانتزاع فارس من أبى منصور فانهزم أبو منصور والتجأ إلى اصطخر وجمع جيشاً هاجم به قوات الملك الرحيم فى الأهواز وذلك فى ذى القعدة من سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، فانهزم الملك الرحيم وسار مع أخويه أبى سعد وأبى طالب إلى واسط ، واستولى عسكر فارس على الأهواز ، وفى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة عادت عساكر فارس التى مع أبى منصور عن الأهواز فدخلها الملك الرحيم ثم سار أخوه أبو سعد فملك فارس فى شهر رمضان ، فاستعان أبو منصور بطغرلبك فأرسل إليه مدداً هزم به الملك الرحيم فى الأهواز ، وفى سنة أربع وأربعين وأربعمائة وصل أصحاب السلطان طغرلبك إلى فارس وبلغوا إلى شيراز ولكن أبا سعد ابن أبى كاليجار هزمهم كما استرد الشيرازيون مدينة بسا وأعاد الدعوة إلى الملك الرحيم ، وفى هذه السنة سار الملك الرحيم إلى البصرة وانتزعها من يد أخيه أبى على الذى التجأ إلى طغرلبك بأصبهان ، كما استولى الملك الرحيم على ارجان وتستر ، وفى السنة التالية استطاع أن ينتزع أبو منصور شيراز من يد أخيه أبى سعد وخطب لطغرلبك ، وفى سنة سبع وأربعين وأربعمائة سار فولاذ الديلمى صاحب قلعة اصطخر إلى شيراز وأعاد الدعوة إلى الملك الرحيم ولكن خشيه أبو سعد فاتفق مع أخيه أبى منصور على انتزاع شيراز منه باسم الملك الرحيم ، وظل الأخوة فى شقاق إلى أن تم أمر البلاد كلها لطغرلبك وقضى على الدولة البويهية [راجع ابن الأثير ومرآة الزمان وابن خلدون فى مواضع مختلفة] فالمؤيد يشير هنا إلى هذه الاختلافات التى كانت بين أبناء أبى كاليجار والتى سببت زوال ملكهم .

للذئاب والكلاب ، وإذا كانت البلاد المصاقبة لمحط رحالهم ومعترك خيلهم ورجالهم باقية في وجوههم كهيئاتهم اقفالا ، وإذا وردوها خفافاً صدروا بالقتل والاثخان ثقالا . فأنى لهم بالبلد البعيد الذى دونه مجرى العوالى ، ومجرى السوابق ومقط السيوف بكل قاطع للهام فالق ، فهذا أمر جلى برهانه عقلى ، وسوى هذا فممتنع فى عدل الله سبحانه أن يورث الظالمين الأرض بأسرها ولا تخلص زاوية يأوى إليها مظلوم ويأمن فيها مذعور ، وما يكاد يعرف ما هذه سبيله غير هذه المملكة المحروسة ثبتها الله تعالى لمالكها ، ويمتنع أيضاً فى عدله أن تكون زاوية من الأرض هى جزاء(ا) النبى صلى الله عليه وسلم من ملكها ومكان التسمية لعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام على منابرها تبتزها والعياذ بالله أيدى الظالمين ، ويغلب عليها شرار العالمين ، ويمتنع أيضاً أن تكون مملكة عمارة الحرمين الشريفين من أموالها وحياة أهلها والمجاورين فيهما متماسكة بصلاتها وميراثها ، وفريضة الحج مؤداة تحت حمى مالها وسيفها ، يفضى الله بها إلى قوم هم من أبناء الشياطين ، لا أقول من العشائر ، يعتاضون عن التكبير بالكبائر ، إن الله سبحانه أغير على بيته وأشفق على حرمه من أن يمكن معاولهم بالنقض ، ويبسط أيديهم فيه بالنسف والنفض ، وإذا كانت هذه الأسباب ثابتة الأصول داخلة فى حكم المعقول علم أن قصد الحضرة المقدسة فيما فعلته ما تحمى به الاسلام والمسلمين ، وترد عنهم بيأس الله تعالى بأس القوم المجرمين ، وما ينهض السادة حرسهم الله تعالى من صرعة البطوح فى التربة(ب) ، ويقر عيوناً تطمح إلى جهتهم بالأوبة ، فيرجعون وقد أيدهم الله سبحانه بنصره ، وجعل لهم معقبات من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم(ج) من أمره .

ومعلوم أن ممالك مولانا أمير المؤمنين عليه السلام إنما شرفت على الممالك باشراق نور العدل فيها ، وامتداد ظله على حواضر الرعية وبواديها ، وأن غرضه فيما يرجو أن الله يفتحه على أيديهم أن يكون داخلا فى حيازه ، مطرزاً بطرازه ، مغسولة من درن الظلم أثوابه ، مقطوعة من سببه أسبابه ، وهذا باب يتعلق بالسادة — حرسهم الله — أمره ، ومنسوب إليهم خيره وشره ، أنهم إذا بسطوا أيدى الاشتطاط التى لم يزالوا باسطيها عند طلبة الأقساط ، ولم يأخذوا فيها سبيل القصد وسنن الرشد ، حملوا النظار فى التحميل(د) على المركب الصعب ، واضطروا من ظلم الرعية إلى فادح الخطب ، ثم لم ينتج ذلك إلا زلة أقدام النظار وشمول خراب الديار ، فحينئذ والعياذ بالله نكون قد ضللنا سعياً وغيرنا

(ا) د : جنب . — (ب) فى ك : القربة . — (ج) فى ك : يحفظون . — (د) فى د : التخييل .

من حال الرعية شيئاً فلا يقع فرقان بين المملكة الغزية والدولة العلوية ، وينبغى لهم حرسهم الله تعالى أن ينذروا لله سبحانه نذرا ، ويعهدوا له ولوليه عليه السلام فى أرضه عهداً ، إنهم إذا ردهم الله إلى ديارهم جانبوا طريق الاسراف ، وسلكوا فى طاب واجباتهم مسلك الانصاف ، لتثبت قدم الناظر فى أمرهم إذا طاب منه ما يمكن عليه الثبات ، ولم يستنهض لظلم الرعية فيملك شملهم الشتات ، ويعرض لحبل العمارة بتفرقهم البتات ، وأن يكتبوا بذلك مواضعة يضعون خطوطهم فيها ليلقانى أبو الفوارس الحسن بن عبد الرحمن فى الطريق بها فاجعلها تحفة لحضرة الامامة (ا) —خلد الله ملكها— من جهتهم وفاتحة لكتاب خدمتهم ، ولتفرح حرس الله مجدها بذلك حين تعلم وصول طرف الحبل من معدلتها إلى ديار العراق من بعد(ب) ما تجافت المعدلة عنها ونبت ، وأنه ستهتز أرضها كما قال الله سبحانه «وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت»(١) ويتصوروا أنهم إذا عقدوا على ذلك ضمائرهم ، وصفوا فيه سرائرهم ، كان حقيقاً على الله أن يكون لهم فى متوجههم معيناً ولنصرهم على عدوهم ضميناً إن شاء الله تعالى .

المؤيد وابن وثاب(٢) :

وتوجهت بعد ذلك إلى ابن وثاب لأخذه إلى مساعدة الجماعة على ما هم فيه وإفاضة الخلع عليه وطويت إليه ثلاث رحالات ، وطوى هو مثلها من بلده ليكون الملتقى على شاطئ الفرات ، فلما حصلت على شاطئ الفرات مغرباً وهو على مثله مشرقاً ، وقعت المماسكة فى حال عبور أحدنا إلى الآخر ،فرمت منه العبور إلىّ بحجة خدمة السلطان — خلد الله ملكه — وأن خلفاءه محل القصد ومكان الورد ، وعلى أن يكون التقرير والتحرير معه فى مضربه ، والخروج يكون منه ، وهو مشتمل على خلعه ؛ وتوقف توقفاً خشيت أن داعيته الفرق من خيل من كان يصحبنى من جهة ابن صالح ، فراسلته أقول له :

(ا) فى د : الأئمة . — (ب) فى د : ومن بعد .

---

(١) سورة الحج آية ٥ .

(٢) شبيب بن وثاب النميرى صاحب حران وكان يدعو للفاطميين هو وقرواش بن المقلد صاحب الموصل ولكنهما قطعا خطبة المستنصر سنة ٤٣٠ هـ وخطبا للقائم العباسى ولكنهما أعادا الخطبة للمستنصر فى ذى الحجة من هذه السنة ، وقد ذكرنا أنه كان فى حروب مع ثمال بن صالح على الرقة ولعل هذا هو سبب تخاذل ابن وثاب عن مساعدة المؤيد فى أول الأمر .

«إن توقفك هذا إن كان أنفة من أن تطأ بساط السلطان —خلد الله ملكه— فهو غلط إذ لم يزل بساطه(ا) لأقدام الملوك موقفاً ، ولأفواههم مترشفاً ، وإن كان خيفة من الخيل الذين هم معى لكونهم خيل من بينك وبينه عداوة ، فاعبر إلىّ مستظهراً بثلاثة من خيلك تأخذهم معك مكان كل واحد من خيل غيرك» .

فامتنع عن ذلك بسوء رأى منه ومن أهل مشورته خبطه ، وكره الله انبعاثه لخير ما دعى إليه فثبطه ، ونكلت عن العبور بحكم تجهزى فى الأسر العظيم الذى أنا مندوب له ، والحذر من مكيدة تتم علىّ فيه لا اعتصاماً بعصم السلطنة ولا احتجازاً بحاجز(ب) الاعجاب والنخوة .

وكاتبت الوزير بما جرى منه فكان جوابه التفنيد لى (ج) فى رأى القعود عنه ، والتذكير بمدافعتى فى معنى ابن صالح مشورة تخفض الجناح له ، والقول إنك دخلت فيما كنت لغيرك عليه لوّاما ، والتمثيل فيه بقول الله تعالى : «يحلونه عاماً ويحرمونه عاما»(١) ولم يأو من النصفة إلى ركن شديد يميز(د) له بين ابن صالح وابن وثاب ، وأن ابن صالح بأذيال الدولة متذيل ، وبسربال الرهبة منها بحكم صقب المجاورة متسربل ، لكونه بالعدوة الدنيا ، وابن وثاب بالعدوة القصوى ، وأن هنالك أسباباً كثيرة من العقل والغبطة والأبهة والأنفة مجموعة إلى الحدة والمكنة تقبض عن موضع الخيانة(ه) عنانه ، وتضم دونه أطرافه ، وأننى ما استرسلت إليه بعد هذه الأحوال كلها إلا بمقدمات من الكتب وتوثقات وتقريرات حصل الجأش منها على موطئ قدم من السكينة وموطن من الأمن والطمأنينة ، وأن ابن وثاب بالضد من جميع هذه الوجوه لكونه فى سكرة الغرة وغمرة الشبيبة واشتماله على لباس تكبر الصعلكة ، وكونه وثاباً كاسم جده ، لا يفكر بما يأتى ويذر فى طلب وجده ، وأن العقل لايقتضى استنامتى إليه بالبديهة دون خبر لأحواله ولا سبر لأفعاله، وأن لا أهدى نفسى لشركه صيداً ، أو أصلح لرجلى من تمسكه بى قيداً ، فلا آمن أن يتحف التركمانى خذله الله منى بأجل التحف ، ويأتيه بأسنى الطرف ، ويضرب من الرحى التى(و) نهضت لادارتها على القطب ، ويرسل سهمه فى جسم ماتوجهت لصلاحه نحو القلب ، إذ لم تزل عين البغضاء تريك الحسن بصورة القبيح ، وعين الرضا تريك المكسور فى زى الصحيح .

(ا) فى د : بساطا . — (ب) فى ك : بحجاز . — (ج) سقطت فى د . — (د) فى د : بمنزلة .
(ه) فى د : الحياة . — (و) فى ك : إلتى .

(١) سورة التوبة آية ٣٧ .

المؤيد فى الرحبة :

ولما رجعت عن ابن وثاب على الصفة التى أوردتها سرت إلى الرحبة وابن صالح وبنو كلاب جمعاً سعى فى الصحبة ، وهو يخدم الخدمة التى لا مستزاد عليها ولامستضاف إليها ، فى حفظ الخزائن والأموال ، وتيسيرها مسوراً عليها مخندقاً بأبطال الرجال ، إلى أن لقينا أبو الحارث والعسكر البغدادى على مرحلتين من «الرحبة» وإذا هم قد ضربوا مصافهم ، وضرب خيلنا مصافهم ، فرأيت العسكر تلاحق ميمنته نحو الجبل وميسرته طرف الفرات ، وسمعت الأبواق تخرق الحجب بالأصوات ، ورأيت أقطار الهواء كأنها صبغت حمراً وصفراً من أصباغ خوافق الرايات ، ودخلنا الرحبة دخولا عليه من آثار السعادة وسم ، ولله تعالى فى ضمنه مشيئة يمضيها فى صلاح عباده حكم ، وتجاوزناها إلى شاطئ الفرات فنصبنا الخيام ، وحللنا عنده من خيلنا الحزام ، ووسطت جمعاً جمع كل قاطع زقاق ، وكل جلال من الناس ودقاق ، تراموا إلى تلك البقعة من كل آفاق ، كردياً وتركياً وعجمياً على اختلاف الجنس ، وعربيا من كل طامع ذى ناب من الطمع حديد ، ومقامع فى الطلب من جديد ، فأخذت أخلع على أمراء الأعراب والأكراد الخلعة التى تبهر عيون نظارها ، من حيث لم يسبق لهم عهد بمشاهدة نظائرها وأمثالها ، إذ كانت الخلع العراقيـة لا تتجاوز أطمارا لا تجرى فى مضمارها ، فكلما تجلى للأبصار شئ منها تجلى العروس من خدرها ، ارتفعت ضجة الوحش من الركابية والسابية (ا) والحواشى العراقية بالدعاء للدولة العلوية ، والفحشاء من الشتيمة للجنابة (ب) العباسية . ونصبت فى خلال ذلك ديوان التفرقة على الأتراك ، وجعلت ما لهم فى الصرر مصررا (ج) ولصناديق بين يدى مودعا ، وفتحت صحيفة الاستحلاف لهم بايمان البيعة جوقة على أن كل طائفة إذا استوفت عليها يمينها ، وفىّ حقها من المال ؛ وكان منهم من يحلف ويأخذ الذى يأخذه بالشكر ويضعه على الرأس والعين على ما جرت به عادة أخيار الناس ، ومنهم من يستقل القدر الذى يعطاه ويرده ، ظانا أن الذى يصير إليه من بعد استحلافه فهو كالجزاء عن يمينه التى أقسم بها وهو محقوق بأضعاف ما عرض عليه معها ، فلم تزل عادة السوء فى هذا الباب تدب من قليل فى كثير وتنتشر من صغير فى كبير ، حتى قويت شوكة هـذه الضلالة ، وتفرعت أصول هـذه المقالة ، فحينئذ نصبت فى القوم خطابة أصاب سهمى

(ا) فى د : الساسة . — (ب) فى د : للزنابة . — (ج) فى د : فى الصدر مصورا .

فيها(ا) إصابة ، وقلت : عفى الله عنكم ، اعلموا أنه ما قبضت الأكف منكم قط على مال هو أجل من هذا المال الذى تأخذونه ، لأنكم ما استفدتم ديناراً من دياركم إلا ماطرقته مطارق كسر الكعاب ، وضرب الفكوك وقلع الأنياب ، وهذا المال مال ابن رسول الله —صلى الله عليه وسلم — ووصيه عليه السلام ، وجبايته من أجل الوجوه والأراضى ، فالدينار منها عوذة يشتفى بها المرضى ، وهذا باب ينبغى أن تعلموه أولا ، والباب الثانى أن فريقا منكم قد خيل إليهم أن هذه الميرة التى أنعم بها السلطان خلد الله ملكه عليهم متى قابلوها بتقليد بيعته ، والدخول فى زمرة أوليائه وشيعته ، فقد وفوا بحكم مجازاته عنها ، وخلعوا عن رقابهم ربقة المنة له فيها ، والسلطان خلد الله ملكه يريد أن يؤثر فى حالكم بحسن النظر تأثيرا لايريد منكم جزاء ولا شكورا ، وقد رأيت من الرأى مسامحتكم باليمين ليكون طوق منة السلطان —خلد الله ملكه— فى رقابكم باقيا ، ولتمسكوا عليكم فعلكم الذى يقوم لفعله مكافياً .

ثم أنى أغربت عن تحليفهم جملة فسقط مافى أيديهم وعادوا للشفاعة والضراعة فى استحلافهم، وكان قد قام فى نفوسهم أنهم قد وجدوا علىّ مضربا بقولهم إن المبذول لهم(ب) من رسم البيعة يقل عما يستوفى عليهم من أجله إيمان البيعة ، وأنهم يأخذوننى به إلى أن انتهى معهم إلى آخر سومهم خيفة من وقوف الأمر فى المبايعة ، فأكون بصورة من ضيع مالا ولم يصطنع رجالا ، وما ظنونى أسلك فى شعب المسامحة باليمين وأبسط إلى جسم الممنون علينا به من يمينهم بمنن (ج) تقطع الوتين ، ولما فرغت من شغل ذلك خلعت (د) على أبى الحارث أرسلان فى يوم مشهود وقرأت عهده على الناس وهذه نسخته :

عهد البساسيرى :

من عبد الله ووليه معد أبى تميم الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى صاحب الجيش : سلام عليك ، فان أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأل أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وعلى آله الطاهرين وسلم تسليما (أما بعد) فالحمد لله الذى حببنا ذوى قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قوم يبتغون بمحبتنا إليه القربى ، ويؤتون بها أجر رسالته ليوفيهم الله أجورهم ويزيدهم من فضله فى العقبى ، منهتين إلى أمره سبحانه إذ قال : «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى»(١) فهم الواصلون بسبب

(ا) فى د : بها . — (ب) سقطت فى ك . — (ج) فى ك : يمينا . — (د) فى د : خليت .

(١) سورة الشورى آية ٢٣ .

ونسب لا ينقطعان أسبابا وأنسابا ، المتخذون جناب المتقين فى جنات عدن جناباً « إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا » يحمده أمير المؤمنين أن جعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، ونفذ فى أقاصى البلاد مجردة بولائها عليهم(ا) ويسأله أن يصلى على محمد جده خير علم للنجاة أقامه الله تعالى لهداية المهتدين ، وقطع بسيفه دابر الظالمين المعتدين ، وعلى وصيه على بن أبى طالب وزيره فى مغيبه ومحضره ، ونكاس الفوارس فى بدره وخيبره ، الناطق بالحكم على منبره ، وعلى الأئمة من ذريته العالمين العابدين ذرية المناجى(ب) بقوله : « وتوكل على العزيز الرحيم ، الذى يراك حين تقوم ، وتقلبك فى الساجدين »[1] .

ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره فى ديار العراق ، والمبرزين بفضيلة السبق على أوليائه فى فضاء الآفاق ، المشمرين عن ساق الجد فيما يجعل عرصاتها بفيض عدله مشرقة بأنجم السعود ، ويعيد أعواد منابرها بذكر آل الرسول صلى الله عليه وسلم ناضرة العود ، مغسولة درجها من وطىء أقدام الأنجاس بماء الايمان ، مقصورة فروقها على الثناء منها على أهل العدل والاحسان ، رأى أمير المؤمنين — وبالله توفيقه — أن يطوقك طوق ولاية رجالها ، ويقيم على رأسك لمزية التقدمة راية جمالها ، وينوط بك أمورها كلها ، ويكل إليك عقدها وحلها ، وهو يوصيك بتقوى الله التى بها يفوز المرء فى مآبه ، وبجنتها يحتمى من أليم عذابه ، والنظر إلى الدنيا بالعين التى بها نظر أولياء الله الذين هم فى جناته يتنافسون ، تشبيها لها بالجيفة المؤذية روائحها والكلاب عليها يتكابسون . فاجمع نفسك تحفظاً من ضررها ، وشمر ثوبك تصوناً من وضرها، واتخذ من شريعة جدنا محمد صلى الله عليه وسلم عوذة تعيذك من شرها ، وفلكا تمتنع بركوبها من الغرق فى بحرها . والصلاة الصلاة فكن فى إقامة فرائضها وسننها جاهداً، وللشيطان فى الوفاء بحقوقها مجاهداً ، قال النبى صلى الله عليه وسلم «أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً» واعلم أن شريعة الاسلام هى سلم إلى دار السلام ، مراقيها أركانها فالزم المراقى ، تنج من هول المطلع إذا بلغت النفوس التراقى ، واجتنب ضلة المحارم ، وعقلة المظالم ، وانظر إلى أبناء الجنس الذين تسوسهم وتروسهم(ج)، المضمومة إليك جسومهم ونفوسهم ، أن تثلم بغير ما كسبوا مالا منهم أو عرضاً ، أو تحدث فى ما ضمنك الله تعالى من عهدتهم نقضاً ؛ إن المؤمن فى دنياه لفى نومة محصولها اليقظة ، فليخش من سوء صنيع تحفظ

(ا) فى ك : وتغرى من أقاصى البلاد بحرة بولائها . — (ب) فى د : الناجى .
(ج) فى د : تسوسهم توقتيهم المضمونة .

---

(١) سورة الشعراء آية ٢١٧ و ٢١٨ و ٢١٩ .

عليه الحفظة ، والله تعالى يسددك لخير ما يحفظه الحافظون على عباده العاملين (ا) الخير لخير ما يؤملون ، المتوجه إليهم فحوى قوله سبحانه : «و إن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ماتفعلون»[١] . هذا عهد أمير المؤمنين إليك بولاية الرجال بشيراً بين يدى مايتلوه عند مايأذن الله سبحانه به من فتح الأعمال ، ودليلا على(ب) نصر من الله جل جلاله تجرداً لحسامه ، وعنواناً لكتاب من يد اصطناع وليه تفض ختامه ، تأذن(ج) به إليك عاجلا ، وأرسله طلا من سماء إنعامه يتبعه وابلا(د) إلى أن يأتيك من تقليده ماتلقى به إليك المساعد تقليدها وتصدق معه لك الأمانى مواعيدها ، فالمدرج به إلى ذروة المجد أمكن مكاناً ، وأثبت أركاناً ، وأقوى أساساً ، وأزكى غرساً ؛ فاعلم جمل وصايا أمير المؤمنين إليك و إقامة حجة الله تعالى عليك ، واعمل بها عمل الموفقين فى المقال والفعال ، والمشفقين من خشية ربهم مالك عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، والسلام عليك ورحمة الله و بركاته . وكتب فى صفر سنة ثمان وأربعين وأربعمائة .

المؤيد ودبيس بن مزيد :

وكان ابن مزيد[٢] وقريش بن بدران[٣] انحدرا إلى باب بغداد لاصلاح شأنهما مع

(ا) فى ك : العالمين . — (ب) فى د : على نصرا . — (ج) فى د : فأذن . — (د) فى د : دليل .

(١) سورة الانفطار آية ١٠ و ١١ و ١٢ .

(٢) نور الدولة دبيس بن مزيد الأسدى صاحب الحلة (حلة بنى مزيد) وهى مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد وكانت تسمى الجامعين ، وعاش نور الدولة ثمانين سنة ، كان فيها أميراً نيفاً وستين سنة ، تولى الامارة فى ذى القعدة سنة ثمان وأربعمائة عقب وفاة والده أبى الحسن بن مزيد ، ولكن اختلفت العشيرة على دبيس وطلب أخوه المقلد بن أبى الحسن على الامارة وسار إلى بغداد وبذل للأتراك ليعاضدوه فساروا معه وهاجموا دبيساً بالنعانية ونهبوا حلته فانهزم إلى نواحى واسط ، ثم عاد إلى حلته وثبت قدمه فى إمارته ، وفى سنة ٤٤١ أقطعه الملك الرحيم حماية نهر الصلة ونهر الفضل وهى من اقطاع جند واسط فسخطوا لذلك وبعثوا إليه بالتهديد فقصدهم وهزمهم فاستنجدوا بالبساسيرى وبذلوا له أن يأخذ نهر الصلة على أن يدفع عنهم نور الدولة ، واشترك نور الدولة مع الملك الرحيم فى حروبه فى فارس ، وصاهر البساسيرى ، ولما دخل طغرلبك بغداد هرب البساسيرى إلى حلة بن مزيد ، فأرسل طغرلبك إلى ابن مزيد بابعاد البساسيرى من بلده فاضطر البساسيرى إلى الالتجاء إلى الرحبة ، ودعا ابن مزيد لطغرلبك فى ممتلكاته ، وكان ابن مزيد يعد من حماة الشيعة ، ومن أكبر امراء العرب فى عصره .

(٣) علم الدين أبو المعالى قريش بن بدران العقيلى صاحب الموصل ، أجمع أصحابه على تأميره بعد =

التركمانى ، فوجداه خشن الملمس منهما ، صعب الذرى ممتنع الأركان فما قصداه من أجله ، يلتمس منهما أولادهما رهينة ، ويسومهما نقدة من المال ثقيلة ، فحين استقر بى القرار «بالرحبة» كاتبت ابن مزيد اهجن عليه قصده حيث قصد ، واعتماده ما اعتمد ، وأحثه على اللحاق بنا والسكون معنا ، فورد عليه الكتاب وهو فيما هو أشد من ضغطة القبر ، ويتجرع مما لا يكاد يسيغه من المتجرع المر ، فسرى عنه بوصول كتابى إليه ولمح أنوار الفرج به بين يديه ، فركب متن الطريق مواصلا ليله بنهاره فى الورود راكضاً على خيل الاعجال فى القصد بموافقة من قريش على فعله ، وموافقة على أن يكون كل منهما فى جانب يلى سكانه ويحفظ مثواه منه ومكانه ، فأى كفة من كفتى الميزان رجحت كان الذى هو منهما فى الراجح ردءاً لمن هو فى الناقص ، يحفظ الأعز منهما الأذل والأكثر منهما الأقل ، فلما ورد تلقيته حذية(ا) من الطريق ولقيته بالأهل والمرحب ، واعتمدت من قضاء حقه ما يجب ، فما هو إلا أن استقر به القرار ، حتى أحاط بما لم يحط به قبل من أمر أبى الحارث وتفصيل أحواله فى تقديمه وتشريفه ، وأن المعد له أعنى ابن مزيد من التكريمات والتشريفات هو مما لايخفى أثره فى تضايقه ، فلبس لبوس الحسد ومد على الكافة بعد تحررها غشاء التفحيح والتبرد .

وأول من لقينى به أصحابه السؤال فى تكليف ابن صالح عبور الفرات إليه ولقائه والسلام عليه ، فأشرت عليه بالاجابة إلى السؤال فلم يردنى(ب) فيها ، سوى أنه اجتمعت عليه وجوه عشيرته وضربوا أشد الاباء فى وجهه وقالوا : نحن لانمكنك من ذلك ولانرى لك أن تفعله ، فنهض إلى مستقرى معتصما بى من كلامهم ، محتجزاً باجازتى لفعله عن ملامهم ، فكانوا يدخلون إلى فوجاً فوجاً،و يخاطبوننى على أنهم يقومون فى وجهه ، ويردون اليد فى وجه عبوره ، فأخذت اضج عليهم ، وأهجن قولهم إليهم ، وأقول إن النصيح له والودود من يجتهد

(ا) فى د : جذبة . — (ب) فى د : يرددنى .

= وفاة زعيم الدولة بركة بن المقلد سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة ، وفى السنة التالية سار إلى العراق فاستولى على الصالحية والحظيرة وحلل بلال بن غريب وكانت تحت إمارته ووهبها الملك الرحيم إلى غيره فقوى قريش بذلك ولما علم بقرب وصول طغرلبك إلى بغداد أسرع بالخطبة له وفتح الأنبار ونهب ما كان فيها للبساسيرى وفتح بثوقه فغضب البساسيرى وقصد الأنبار بجموعه فاستعادها ، ولما دخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧ وثار الناس وقبض على الملك الرحيم ونهب دوابه ، امتدت الأيدى إلى مخيم قريش ومن معه من العرب وعلم طغرلبك بذلك فأرسل إليه يعتذر وخلع عليه وأمره بالعودة إلى أصحابه وحلله .

فى أن يحكم بينه وبين الناس الوداد ، لامن ينشئ الأحقاد ، ويمشى فما يتضمن الفساد ، وفكرت فى الأمر فرأيت أن عبوره لا يتم إلا بصلتى لجناحه وعبورى معه مساعدة له وممانعة لمن ينهاه عنه ، فأخذت بيده إلى المعبر فعبرنا ، وحين حصلنا فى ذلك وفكرت فى كثرة كلام الناس فى المنع عن عبوره ، وأننى أهجم به فى قل من أصحاب غيره ، وهم حساد نعم ، منفردون بأخلاق لهم وشيم ، دار بى رأسى وضاقت على أنفاسى ، ومنعت أن يقرن لفظين اثنين كلم بهما ابن مزيد بثالث دون أن يرجع فى أمان الله ، فرجع وكانت هذه الوقفة صنيعة فبفضل الله لى بما هو أهله من الكفاية .

ثم أنه أعنى ابن مزيد أتانى بقصته (ا) وخرج على فى زينته ، وكان أول ما لفظ به من لسانه ما سجل به على نفسه فى الخور وضعف المنة بقوله : إن هذا الأمر الذى نحن بصدده أمر عظيم ، تقصر قوانا وقوى أضعافنا عن النهوض له . يقول ذلك على رؤوس الأشهاد ، وقد أتى الناس من كل فج عميق يسمعون ما نناجى فيه ويبصرون . فناهبته الكلام مناهبة وقلت: «بل العدو أضعف ناصراً وأقل عدداً من أن يكون له هذا الذكر ويعترض بشأنه هذا الفكر ؛ ومعلوم أنه ما مد باعاً بشدته(ب) وقتاله وما اتخذ سلاحا غير مكره واحتياله اللذين هما رأس ماله . فدخلت أخماسه فى أسداسه كيف رددت الكلام فى فيه ، ولم أستوفه سماعاً حتى كذبته فيه ، فأردت أن أجهز إليه عذراً يأسوكلم الكلام الذى تمعر معه وجهه ، واحتد به طبعه ، فأسررت إليه وقلت : أيها الأمير إن الأمر لعلى ما قلت ولكن إفصاحك به فى هذا النادى يقع موقع الاسجال ، ويضعف المشتد من منن الرجال ، وما الضرورة الداعية اليوم إلى أن نعتاض عن لسن القوة والاقتدار لكن الضعف وسوء الاستشعار» .

ثم أنه فتح باب الطلب ، فأطال لسانه ووسع ميدانه ، وسلك بى(ج) مسلك من يحاول تعلة(د) للمفاسخة ، ويبتغى سبيلا إلى المناقضة ، ولم أصبح يوماً من الأيام إلا على قوم من كبراء(ه) أصحابه وكتابه قد بيتوا فى أنفسهم مسألة كلامية وضمروا فى قول المحال حجة معتزلية يصدموننى بها ، فكنت بمعونة الله أطمس أعلامها وأجعل جذاذاً أصنامها ، وجعلوا يمنون بأمر لم تنكشف عنه أستار الغيوب ، ولم نقف على سر الله فيه المحجوب ، انهم إذا سلكوا بغداد يقيمون الدعوة بها لنا ، ويبتغون بما هو واقع فى ميزان هذا الأمر العظيم أجراً وثمناً ، فقلت : يا قوم إن الذى يصل إليكم من إنعام الدولة أدامها الله تعالى فهو نقد ، والذى يصل إليها من

(ا) فى د : بقصته وقصيصه . — (ب) فى د : شرقه . — (ج) فى ك : به .
(د) فى د : بعلة . — (ه) فى د : براء .

جهتكم فهو وعد ، وهذا الوعد الذى أحد طرفى حبله بأيديكم والآخر بأيدى المقادير غير مقتضى (ا) هذه المنافسة منكم فى النقير والقطمير ، وإذا كنتم تبيعون السمك فى لج البحار بالغالى من السعر فخذوا خطى بأننى أعفيتكم عن إقامة الدعوة لنا ببغداد إذا ملكتموها لتكون خالصة المنة فى رقابكم ، ولتكون المسامحة بها ناسخة لآيات كتاب شرطكم (ب) وطلابكم . وكنت أقع معهم وأقوم على هذه النصبة مدة من الزمان وهم يتخطرون فى أذيال الترعن ، قولا أننى ألبس التشريف مرة ولا ألبس مرة ، وأننى أحلف كرة ولا أحلف كرة ، حتى إذا نشب فى المال الجزيل ظفره ، ولم تطوع له نفسه أن يوليه ظهره ، واستجاب للحضور والاستيثاق (ج) منه بالتحليف والاشتمال على ما خرج باسمه من التشريف ، حضر ومعه أصحابه المتكلمون عنه وسألوا فى نسخة اليمين أن تعرض عليهم ، فعفنوا فيها كل التعفين سؤالا فى كلمة منها أن تبدل (د) وأخرى أن تحذف منها وتعزل ، وكنت فى هذا العفن من صدر النهار إلى قرب من آخره ، فقلت : إنى أسامح الرجل باليمين جملتها وتفصيلها ، وأكفيكم مؤنة هذه المقالات وتطويلها ، فأبى الله تعالى إلا أن يحكم عليه معاهدها وأن يعقد فى جيده قلائدها ، فاستحلف وشرف وخرج وهو غير طيب النفس ولا مغمور الجأش بالأنس . وكتب له من العهد ما هذه نسخته :

عهد ابن مزيد :

(أما بعد) فالحمد لله ولى الحمد وأهله ، الناصر لدين الهدى والجامع لشمله ، والقائل وهو الصادق فى قوله «هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله»(١) يحمده أمير المؤمنين حمد المعتصم بحبله ، المتكل على حول الله وقوته ، دون قوته وحوله ، المنتجز لميعاد نصره ، الموعود به فى أهل بيت خاتم رسله ، ويسأله أن يصلى على جده محمد أشرف الأجداد ، وعلى أبيه «على» العالى بفخره على السبع الشداد ، وعلى الأئمة من ذريتهما آبائه الطاهرى الميلاد ، الأجواد الأمجاد ، الركع السجاد ، شفعاء شيعتهم فى يوم المعاد . ولما استقر بحضرة أمير المؤمنين عليه السلام ما حباك الله من كرم الاعراق ، وكونك

(ا) فى د : مقتص . — (ب) فى د : تشرطكم . — (ج) فى د : واستثنى .
(د) فى د : تبذل .

---

(١) سورة التوبة آية ٣٣ — الفتح آية ٢٨ — الصف آية ٩ .

بالولاء لأهل البيت عليهم السلام لمعة فى أديم العراق ، وكون فم التدين به ناطقاً بلسانك ، وجسمه ممانعاً دونه بيدى سيفك وسنانك ، وتوطئتك بلادك لخائف تنزع عنه لباس المخافة ، وتقرب بينه وبين مهاد الأمنة بعيد المسافة ، ومظلوم يفزع من خريف الظلم إلى ربيع العدل ،وممحل يقلع إلى مكان الخصب بها من محل المحل ، وشفعت هذه السيرة المرضية التى أوجبت لك الذمم المرعية باجابتك من أمير المؤمنين منادى الايمان إذ سمعته منادياً ، واستضاءتك بضوء فجره لما رأيته بادياً ، واهتداؤك بثاقب نجمه إذ رأيته شارقاً ، وتسرعك تحت لوائه لما رأيته خافقاً ، رأى أمير المؤمنين وبالله توفيقه أن يفيض عليك من خاص ملابسه ما تفيض به السعادة (ا) عليك ملابسها (ب) ،وتطيب لك منابتها ومغارسها ، ويحملك من خاص مراكبه على ماتتخذ به قمم الأفلاك مركباً ، وتجعل معه بيت مجدك إلى السماك مطنباً ، وأن يقلد من سيفه ما هو شعلة من سيف أبيه على بن أبى طالب عليه السلام المسمى ذا الفقار ، الذى صقله الله بماء تأييده ولوغاً فى دماء المنافقين والكفار ، وأن يلقبك «بالأمير سلطان ملوك العرب ، سيف الخلافة ، صفى أمير المؤمنين» رفعاً بك إلى أعلا درج الاصطفاء ، وإنافة بمكانتك على مكانات الأشباه والأكفاء ، وأن يقلدك الزعامة على عرب العراق ممن يقتضى أن تكون أنت عليه زعيما ، والوساطة لمن يبتغى أن يكون تبعاً لأولياء الدولة صميما ، وأن يجعل إليك النظر فى ذلك من حد شرقى الفرات إلى أقصى ما يفتح الله تعالى لأمير المؤمنين من البلاد ، وأن تنقلب إلى مشاورتك فيما يتعلق بالاصدار والايراد ،فاحمد الله الذى ولاك من عناية أمير المؤمنين بك قبلة ترضاها ، واشكر له على حاجة فى نفسك من حسن ملاحظته قضاها ، وتغتنم الدولة الطالبية التى لم تزل طالباً لأيامها ، ومتمنياً أن تتجلى شمسها من غمام التقية تجلى الشمس من غمامها ، وكن بسيفها ضارباً ، وبرمحها طاعناً ، واستنزل قطاع النصر بها مقيما وظاعناً ، ودم على أحسن ما أنت عليه من نشر أعلام المعدلة فى بلادك ، والنظر لمعاشك ، نظراً لا يحرم من أمر معادك ، واجعل التقوى خير زادك ، ولا تغتر بالدنيا فان وعدها مكذوب ، وخيرها مسلوب ، واكدح لدار الاقامة لا يمسك فيها نصب ، ولا يمسك فيها لغوب ، فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين ورسمه واعمل عليه وبحكمه ، وطالع حضرته بما تتوكفه من أنبائك وتتشوفه (ج) من تلقائك إن شاء الله تعالى .

ثم أن ابن مزيد شخص ببصره إلى الخابور وديار ابن وثاب على أن يعدل إليها ويشتو

(ا) فى د : العبادة . — (ب) سقطت فى د . — (ج) فى د : تتشوقه .

بها ويقطع الزمان متوقعاً ما يكون من أحداثه وتغييراته ، ولا يتمرس لمخاطرة اللقاء والحرب ، وأودع رحله وخزائنه ابن وثاب والمعتكفين عليه ، وقام من ركاب العصبية له على ابن صالح فى النزول عن(ا) الرقة وأعانه عليه قوم آخرون من بنى ورام(ب) والجماعة الذين مالوا عليه بميله ، وقالوا بقوله وحركتهم محركات الحسد لمضاغنة ابن صالح ومراغمته ، وقالوا إن الأمر الذى نحن بصدده من لقاء التركمانية لا ينكشف وجهه ولا يأتلف أمره إلا بتسليم هذه البلدة إلى ابن وثاب ليكون معنا ، ويده مضمومة(ج) إلى أيدينا ، وإلا وقف عن الاسعاد بما نريده المقدار ، وعن دورانه الفلك الدوار ، وكلفونى أن أنتزع من يد ابن صالح باليد السلطانية ، و إلا فسخوا الجمع وانتشروا فى الأرض ، ونسخوا آية إبرامهم بآية النقض، فكنت أسعى بينهم وبين ابن صالح فى دعائه إلى ما يريدون وإبائه سعى امرئ بين سباع تتهارش ، وذئاب تتجارح وتتخادش ، واعلم أن المطلب علاقة حجة بها يتعلقون ، فيأخذ كل واحد منهم طريقاً ويتفرقون ، من بعد أموال جزيلة فرق فيهم جمعها ، وقنوان دانية من النعم والخيرات أبسق(د) عنها لهم طلعها ، وكنت أصبح وأمسى فى أثواب من انقطعت به الحبال ، وضاعت على يده الأموال ، وضاقت به من الهم السهول والجبال ، غير أننى أظهر فى خلال ما أقاسيه جلداً ، ولا أشعر بحزازات قلبى أحداً ، وأصرف(ه) الأمر فيما يتعلق بالتيسير(و) ، وأنكر دواعى التوهين لأمره(ز) والتفتير .

ولما أراد الأمر فى مسير العسكر أن يستدف ، وركابهم فيه أن يخف ، وقد عبروا إلى شرقى الفرات وردت النجدة الدمشقية من أمراء بنى كلب(ح) الذين كان شاب سواد ناظرى من انتظارهم ، فلقيتهم وأحفيت بهم ، وما نزلوا حتى تنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ولم أدر بيان ما هم فيه ، حتى قام ضجيجهم بالشكوى قولا أنهم جردوا على أن يشهدوا جمع الكلابى والعقيلى والنميرى(ط) خارجاً عن الجمع التركى والكردى وباتفاق هذه الجموع كلها يشقون خيط الفرات ، وأنهم لا يفتحون الآن عيناً على جنس من هذه الأجناس ويرون بنيان الأمر فى تجريدهم موضوعاً على غير ثابت من الأساس ، و إذا كانت الصورة هذه فهم لا يبلون من ماء الفرات فى معنى العبور قدماً ، ولا يتخطون إلى دار عدوهم فيهدرون لأنفسهم دما ؛ فرأيت أمراً منكراً ، وشيئاً يدع المستبصر متحيراً ، وأنهم إن توقفوا عن العبور ، قضوا بوقوف الأمور ، وكسر الحاجات فى الصدور ،

(ا) فى د : على . — (ب) فى د : بنى آدم . — (ج) فى ك : مضمونة . — (د) فى د : انشق .
(ه) فى د : احرز . — (و) فى د : التسيير . — (ز) فى د : لأمر . — (ح) فى د : بنى كلاب .
(ط) فى د : النهوى .

وكان شماتة الأعداء من (ا) العسكر العراقى بهم ، وهم خاصة عسكرنا إذا رأوهم فى مضمار المخالفة والتخلف ، وإظهار الخوف والتخوف ، أشد من كل شئ ، فمد لى معهم من الصداع ما لو كنت بليت به وحده لكان كافياً ، وكان جديد ملبس الثياب (ب) ببعضه بالياً ، وقلت : فضحتمونا (ج) بورودكم فليت الله ما أوردكم ، ولم يزل عنان الخصومة بينى وبينهم يتجاذب والغرض المقصود منهم تارة يتباعد وتارة يتقارب ، حتى أذعنوا للعبور وركنوا إلى السير من بعد أن سألوا فى نفقة شهر حملت بصحبتهم أن يحسب بها عليهم لعشرين يوماً فأجبت إليه ، وساروا هم والعسكر أجمعون ، وهم فى أذيال الفترة والونية يتعثرون ، وكان سبيلهم سبيل من كنى الله عنهم بقوله فى شأن البقرة «فذبحوها وما كادوا يفعلون»(١).

المؤيد وقريش بن بدران(٢) :

وكان قريش بن بدران فى حيز التركمانية على ما تقدم ذكره وقد عقد معهم عقده ، وعهد فى طاعتهم عهده ، ولما استدف مسير عسكرنا نحو داره من الموصول كاتبته بكتاب أذكر فيه إنعام الدولة عليه وعلى أسلافه من قبله ، وأذكر أنه إن كان الله تعالى قضى لهذه الدولة العلوية بما وعد باظفار و إظهار فلا ترضى لنفسك أن تكون شجى فى حلقها ونغصاً فى صدرها ، والمقادير أقوى منك يداً [وأبسط من] (د) قدرتك قدرة ، فلا تكن لسهام اللوائم هدفاً ، ولا فى وجه نهار الهدى من ظلام الضلال كلفاً . فأجاب عنه جواباً ما شفى ولا كفى .

وسار العسكر إليه المسير الذى على عينه من الونية سنة ، وفى رجله من التقاعد والتقاعس عقلة ، وبعضهم يموج فى بعض فمنهم من فى القتال همه ، ومنهم من فى التزاور (ه) عنه إلى الخابور عزمه ، وكان الارجاف بورود التركمانية نجدة لقريش متصلا غير منفصل ، فلما قضى الله تعالى ما قضى به من التحام ، فقام مؤذناً [بتقطيع الأرزاق والآجال (و)] كان إرجاف المرجفين بالقلة من دون الكثرة ، والضعف من دون القوة ، كما لا يصيب القلوب نخب

(ا) فى د : والعسكر العراقى . — (ب) فى ك : الثبات . (ج) فى د : فضحتمونى .
(د) فى د : سقطت . — (ه) فى د : التزاود . — (و) فى د : بتقطع أرزاق وآجال .

---

(١) سورة البقرة آية ٧١ . — (٢) راجع هامش ٢ ص ١٢٤ .

وليصدق فى الطالبين لأعدائهم طلب ، فلم يزل المقدار يحرك إحدى الفئتين للأخرى حتى التقتا ، فسالت على التركمانية سيول الطعن والضرب حتى قذفتهم فى بحر الحين ، فكانوا كما قال الله تعالى : «قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين »(١) وأفاء الله برحمته عسكرنا مغنماً من حيث اتقوا مغرماً وطوقهم مجداً كانوا متثاقلين عنه جداً(٢) ، وكتبت إلى مجلس الوزارة فى معنى الفتح بما هذه نسخته .

كتاب المؤيد بالانتصار فى سنجار :

كتابى وعوايد الله تعالى للدولة النبوية أدامها الله تعالى فى النصر والظفر ، المرصعة تيجانها من حسن نظر الحضرة السامية الوزيرية بنفائس الدرر ، تذلل لها الرقاب ، وتسهل الصعاب ، ولما كان قريش بن بدران الخائن مع المتعارف من إنعام الدولة أدامها الله تعالى عليه وعلى سلفه من قبله الانعام الذى سارت بذكره الركبان ، وأنشد قلائد فخره الزمان

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣ .

(٢) هذه الموقعة هى التى تعرف بموقعة سنجار والتى كانت فى آخر رمضان سنة ٤٤٨ ﻫ (راجع الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٤٤ ومرآة الزمان حوادث سنة ٤٤٨) .

وفى ابن الأثير ج ٩ ص ٤٣٠ ان ذلك فى أول شوال سنة ٤٤٨ ﻫ ، ويفهم من خطاب المؤيد بالتهنئة بالعيد أن الأصح رأى ابن الأثير . والذى ورد فى ابن الأثير [ج ٨ ص ٤٣٠] عن هذه الموقعة أنه فى سلخ شوال كانت وقعة بين البساسيرى ومعه نور الدولة دبيس بن مزيد وبين قريش بن بدران صاحب الموصل، ومعه قتلمش وهو ابن عم السلطان طغرلبك ومعه أيضاً سهم الدولة أبو الفتح ابن عمرو وكانت الحرب بسنجار فاقتتلوا بأشد القتال بينهم ، فانهزم قريش وقتلمش وقتل من أصحابهما الكثير ، ولقى قتلمش من أهل سنجار العنت وبالغوا فى أذاه وأذى أصحابه وخرج قريش بن بدران وأتى إلى نور الدولة جريحاً ، فأعطاه خلعة كانت قد نفذت من مصر فلبسها وصار فى جملتهم وساروا إلى الموصل ، وخطبوا لخليفة مصر بها وهو المستنصر بالله وكانوا قد كاتبوا الخليفة المصرى بطاعتهم فأرسل إليهم الخلع من مصر للبساسيرى ولنور الدولة دبيس بن مزيد ولجابر بن ناشب و لمقبل بن بدران أخى قريش ولأبى الفتح بن ورام ونصير بن عمر وأبى الحسن بن عبد الرحيم ومحمد بن حماد وانضاف إليهم قريش بن بدران . وهذه الموقعة هى التى أشار إليها الشاعر ابن حيوس بقوله :

عجبت لمدعى الآفاق ملكا	وغايته ببغداد الركود
ومن مستخلف بالهون يرضى	يذاد عن الحياض ولا يذود
وأعجب منهما سيف بمصر	تقام به بسنجار الحدود

وجاء فى مرآة الزمان أنه أرسل إلى مصر ألفى رأس ومائتين .

ممن بدل نعمة الله كفراً وعرفه نكرا ، وولى ولى نعمته ظهرا ، وصبا إلى التركمانية أبادهم الله الذين هم شياطين الانس بالحقيقة ، ولا يكاد يصبو إليهم ولا يرضى بفعلهم إلا شر الخليقة ، لأنهم سفاك الدماء وهتاك الأستار ، وآفة البلاد وعاهة الديار ، وكانت الحضرة السامية لا تؤثر أن تكون غاشية الظلام لعين بصيرته تغشى ، ولا ترى إلا ما يرى الله سبحانه فى فرعون حين قال وقوله الحق : «فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى »[١] ، وكانت مكاتباتها تردنى بتأليفه واستعطافه ، والاحتواء بالمواعظ الحسنة عليه من جميع أطرافه ، وكنت قد قبضت يدى عن(ا) مكاتبته بالجملة فرقاً من أن يكون بكتبى عند التركمانية ينفق وبها لديهم يتسوق(ب) ، وإشفاقاً من كون أخيه رضى الدولة[٢] ومختصها وغيره من عشيرته المسرعين إلى الطاعة المتمسكين بعروة التباعة إذا شعروا بكونى أحرص على خيره وأسرع فى صلاح أمره لبسوا ملابس النفور ، واعتاضوا من صدق فى المخاطبة(ج) بزور ، فلما رأيت للحضرة الوزيرية وجها عن التلفت إليه لا يعرض ، ويداً عن المكاتبة بتأليفه(د) لا تقتبض ، كاتبته سراً من الجماعة مكاتبة الحدب البار ، أجمع عليه بين الاعذار والانذار وأنبهه لمواقع الغلط الذى يؤلف له بين العار والنار فى مضاهاة هؤلاء الكفار الأشرار وأقول له إن كان الله قضى لدولة الحق أدامها الله تعالى بالظهور وعلى أعدائها بالثبور فحاشاك أن تكون فى صدرها غصصاً ، وفى عينها قذى وفى عيشها نغصاً ، فأجاب جواب المغالط فى كلامه الخابط فى ظلامه ، فحين رأيت الأمر من جهته مبتهماً واليأس من صلاحه مستحكماً اقتضت الصورة أن نفوق إليه سهام الطلب ، وأن نسكت بلسان السيف لسان الخطب فعبرت العساكر المنصورة الفرات نحو صوب داره ، وصرفت وجهها إليه متبعة لآثاره ، فكتب إلى الغز خذلهم الله تعالى يطلب النجدة وأخذ يعد للقاء العدة ، فلم يمكث إلا قليلا حتى أتته من الغز صليبتها(ه) فى أربعة آلاف تتخطر فى أذيال البغى ،ولحقته جمهرتها تمتطى غارب الغى فما هو إلا أن أقبل بحر الجيوش المنصورة تتدفق ، ونشرت الرايات المستنصرية فهى فى الهواء تخفق ، ونادت العساكر المنصورة بالشعار المستنصرية نداء كاد به يخرق الحجاب وعوت التركمانية المخاذيل كما يعوى الكلاب ، حتى سيقوا فى حلبة الوغى سوق الغنم ، ونهلت السيوف من دمائهم كما ينهل العطشان من الماء البشم ، وقتل منهم الخلق الذى لا يحصى

(ا) سقطت فى د . — (ب) فى د : يتشوق . — (ج) فى د : المخلصة — (د) فى د : بتعالفه .
(ه) فى د : عليبتها .

---

(١) سورة طه ٢٠/٤٣ . — (٢) رضى الدولة مقبل بن ندران .

عدداً ولم يسلم إلا بقية يسيرة أصبحوا شعاعاً بددا ، ولولا هجوم الليل لأحاط بصغيرهم وكبيرهم سرادق الويل ، فالحمد لله الذى فتح لأمير المؤمنين فتحاً مبيناً ، وأيد بسيفه دين الاسلام الذى أكمله ورضيه للمسلمين ديناً إن شاء الله تعالى .

خطاب آخر بذكر الانتصار :

وورد سجل معظم بذكر العيد فكتبت جوابه بما أوردت فيه ذكر الفتح وهذه نسخته :

كتب عبد مولانا صلوات الله عليه وعناية الله سبحانه لوليه ابن نبيه لا تزال تظهر لاعتلاقه بحبل التأييد برهاناً ، وتشق له من أعطاف عظم سلطانه سلطاناً ، وتركب فى قنا عزماته من جانب حسن التوفيق سناناً ، وتبسط لعبيده فى مقامات القائلين الفاعلين يداً ولساناً ، ووصل ما شرف به العبد مقصوراً على ذكر العيد الذى جعل الله مولانا تحقيق مجازه ، وأحله من فاخر لبسه محل طرازه ، وتجلى شمس الخلافة من برجها إلى المصلى ، تجللها جلال البهاء ، وتجدد العهد بجلال مقام جدها خاتم الأنبياء ، وأبيها سيد الأوصياء ، صلى الله عليهما وعلى الأئمة من ذريتهما البررة الأتقياء ، يزف فى حلل الامامة وحلاها زفاً ، ويذكر بنزول الحفظة الكرام لحفظها قوله : «وجاء ربك والملك صفاً صفاً» ،(١) يحتاشها من عسكر الاسلام وأهل دار السلام الخلق الذى يضيق بكثرتهم لجسم الدنيا على سعتها المخافق ، وتتقشعر الأرض خوفاً إذا مشوا عليها وترتج الجبال الشواهق ، وتخفق على رأسها من الأعلام التى عليها أعلام نصر الله الخوافق ، حتى إذا قضى مولانا — والله يخلد ملكه — وطراً من إقامة مناسك عيده ، والقيام عن ربه سبحانه بابلاغ (١) وعده ووعيده ، ونثر درراً من ذكر توحيده جل جلاله وتمجيده ، رجع إلى قصره المشمول بالاقبال المأهول بالانعام والافضال ، والنفوس بسبوغ السلامة جذلة ، ووجوه السعادة بحمد الله ومنه متهللة ، ووقف العبد عليه وقوف الحامد لله تعالى على أسنى نعمه فى تأييده نصر مولانا وإعلاء كلمته ، الراغب إليه جل ثناؤه وفى تبليغه أقصى سرامى همته ، ومما قام منه الاعجاز فى وقوع إجابة مولانا خلد الله ملكه إذ هو يدعو بالنصر لأوليائه وعسكره ، وافتتاحهم قتال

(ا) فى د : بلاغ .

---

(١) سورة الفجر آية ٢٢ .

الغز فى اليوم بعينه ، وهو خلد الله ملكه بالحدس(ا) قائم على منبره ، فما كان إلا صوتاً من دعائه أجابه صوت من حسن الاجابة ، فنهبت أرواحهم بأطراف السيوف النهابة ، فما نزع النهار عنهم رداءه المصقول ، إلا وقد أجرى الله تعالى من دم أوداجهم السيول ، فاشتملت عدة القتلى على ألفين وسبعمائة نسمة ، ممن لو كانوا بهذه العدة غنما لكان الاتيان عليها فى بياض يوم واحد مستعظما ، وما أصيب من العسكر المنصور إلا دون العشرين ، على بسالة الغز الملاعين ، وكونهم ممطرين مطر المنايا من سحاب القسى سوى(ب) ان الله تعالى أوهن كيد الكافرين ببأسه الشديد القوى كايهانه من(ج) الحبال والعصا مؤلف كيد الحبال والعصا ، فالحمد لله الذى جعل أعداء الدولة حصائد حسامها ومصائد انتقامها وهو جل جلاله المسئول أن يصفى لها مشارب النعم ويجمع على طاعتها كلمة العرب والعجم وأن يصلى على محمد وآله والسلام .

دخول الموصل :

وحكى الناس أنه لما كان يوم الحرب فرق ابن مزيد هوادج ظعائنه ونسائه فى قبائل العرب من الكلبى والعقيلى والنميرى وهن منكشفات الوجوه ينادين : ياللعرب! ! ياللعرب! ! ملهبات نار العصبية ومذكيات جمرات الأنفة والحمية ، فكان هذا الفعل من وجوه الرأى التى أدارت رحى الضرب والطعن ، وقضت على أجساد التركمانية فى مطاحنها بالطحن . فلما أتاح الله سبحانه الظفر ضاحكة مباسمه ظاهرة معالمه ، طرح ابن مزيد من زمامه على حلل قريش وحريمه درقته ، وأظهر لحسن مراعاته شفقته ، ذلك ليزيل من حسن عهده عوارض الريب(د) ، وليعلمه أنه لم يخنه بظهر الغيب ، فجعل يد أبى الحارث مغلولة إلى عنقه ومسدوداً دون التعرض لشئ مما تعلق به جميع طرقه ، فدخل الموصل قاهراً وكأنه المقهور ، وغالباً وكأنه المغلوب ، لا يملأ عينه من حلل(ه) قريش وماله ، ولا يخطر التمسح بمد اليد إليها بباله ، فشجره الانقياد لابن مزيد فى هذا المجال إبقاء على صهره الذى هو ابن مزيد[1] واتقاءه مساخط الحرم اللواتى يطيعهن الأتراك طاعتهم لرب الحل

(ا) فى د : الحدش وفى ك : الجدس . — (ب) فى د : ثم . — (ج) فى ك : كليهانه حبال .
(د) فى د : الذئب . — (ه) فى د : رجال .

(١) فى سنة ٤٤٤ هـ زوج دبيس ابنه بهاء الدولة بابنة أبى البركات بن البساسيرى (راجع ابن الأثير ، حوادث سنة ٤٤٤ هـ) .

الحرم ، ولولاهن لما ذهب مع ابن مزيد فى هذا المذهب ، بل بارزه دونه بالسيف خماص البطون من الطوى خاوى عروش القوى(ا) من الجوى ، يملك بلداً بالسيف ، فيملكه غيره صابراً على الحيف ، ويكون هو فيه بمثابة غير المكرم من الضيف ، واجتمع ابن مزيد وابن ورام[١] بأبى الحارث بعد مديدة يسألونه فى مصالحة قريش ويحتجون بأن المسير من الموصل لا يمكن شد الحزام فيه إلا بمصالحته ولا يستوثق(ب) إلا بمصاحبته وموافقته ، ولو أنهم لم يقبضوا يد أبى الحارث عنه فى الأول [فى الاحتواء عليه](ج) لكان عظمه بيد الزمان كسيراً ، ولكان إلى أقل نظرة من نظراته فقيراً ، لكنهم ثبتوا مهيض جناحه ، وأوقدوا منطفئ مصباحه ، واجتمعوا وتصالحوا وجددوا(د) بينهم من الحلف ما طال ما لعبت به يد النكث والخلف ، ووصلهم من المال ما توزعوه بينهم ، وساروا منحدرين إلى القيارة (ه) وكان التركمانى أيضاً خذله اللهسار من بغداد مصعداً إليهم فى ظاهر أمره ، إن استلان منهم جانباً ، ومجنباً عنهم نحو بلاده فى باطنه إن استخشن ملمسهم ومجانباً ، فكان سيره سير المتوانى تقيداً بقيد العجز والتوانى لروعه من الوقعة «بسنجار» ، فائضاً خوفها على أنفاسه ، مفرقا بين جفنه ونعاسه .

خطاب المؤيد بفتح الكوفة :

وبينما هم فى ذلك إذ ورد كتاب محمود بن الأخرم[٢] بفتح الكوفة على ساكنها السلام فكتبت إلى مجلس الوزارة بما هذه نسخته :

✓ كتب عبد سيدنا وما تطلع شمس بيوم مجدد ، إلا ويقضى الله سبحانه فيه للدولة النبوية أدامها الله وله الحمد بفتح مجدد ، وما يسفر عن وجه سعد إلا ويكون بشيراً بين يدى ما يتلوه من السعد بعد السعد ، وكل ذلك باقبال سيدنا ويمن تدبيره ، وكتاب عبد سيدنا وقد وصله فى ساعته هذه كتاب الأمير شهاب الدولة مبشراً بفتح الكوفة على ساكن مشهدها السلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليه وبركاته وتحياته ،

(ا) فى د : القرى . — (ب) فى د : يسعف . — (ج) سقطت فى د . — (د) فى د : جدد .
(ه) فى النسختين : القيازة والتصحيح عن معجم البلدان لياقوت وهى بليدة بجوار واسط .

---

(١) هو أبو الفتح بن ورام ولم نستطع تحقيق شخصيته لعدم وضوحها فى كتب المؤرخين ، ولعله كان أحد أمراء إحدى المقاطعات العديدة التى امتاز بها العراق فى القرن الخامس للهجرة .
(٢) ولكن فى مرآة الزمان أن الذى أرسل بذلك هو بدر بن على الأسدى أخو دبيس .

ومصير فوق منبرها بالدعاء لمولانا أمير المؤمنين خلد الله ملكه متوجاً ، وصبح سعادة أيامه فى عرصاتها متبلجاً ، واستبشار الخاصة والعامة بما من الله تعالى به عليهم من محو آية ليل الظلم (ا) بآية نهار العدل ، والافضاء بهم من محل المحل ، إلى ربيع الانعام والفصل، والحمد لله الذى [جعل شمس سعادة مولانا أمير المؤمنين من سمائها بازغة](ب) وحجة الله فى إيراثه الأرض كما وعده بالغة ، وأسأله أن يصلى على محمد وآله وأن يجعل ما مده عليه فى ظل تأييده ساكنا وحرما فى عين الكمال آمناً ، وأن يبقى سيدنا لأغلاق الممالك مفتاحا ، وفى ظلم الأمور وكشفها مصباحاً ، وهو ولى الاجابة والاستجابة برحمته ، وقد طويت هذه الخدمة على ماورد من الأمير شهاب الدولة ليرى فى الوقوف عليه عالى الرأى ، وفى الأمر باجابتى عن هذه الخدمة وتصريفى على أمثلته المطاعة وقد تتابعت خدمى بالاستعانة والاستمداد ، والتماس ما ينهض من الموصل لبلوغ تمام المراد ، مادام العدو فى نار ذل أحاط بهم سرادقها ، ومدرجة صعوبة ضغطته من جميع الجوانب مضائقها ، فالله الله فان الأيام فى هذا الوقت فرص تنتهز وعدة تستنجز والله تعالى يعقب خيراً ويجعل بعد عسر يسراً برحمته .

خطاب المؤيد باقامة الدعوة فى واسط :

وبعد مديدة يسيرة ورد كتاب ابن قائد بن رحمة(١) باقامة الدعوة بواسط وضرب السكة بها ، فكتبت فيه إلى مجلس الوزارة بما هذه نسخته :

كتب عبد سيدنا ونعم الله تعالى للدولة أدامها الله تعالى منهلة السحاب ، وجنة سعادتها بحسن نظر سيدنا مفتحة الأبواب ، والحمد لله حمد الشاكرين ، وقد كان فى خبيئات المقادير ، المكنون علمها عند اللطيف الخبير ، سبحانه وتعالى عن الشبيه والنظير ، من الفتوح التى يلحق تاليها السابق ، وينظم الله تعالى فى سلكها مغارب الأرض والمشارق ، ما ركض

(ا) فى د : الليل المظلم . — (ب) سقطت فى د .

---

(١) ابن قائد بن رحمة أمير واسط وذكر فى ابن الأثير ومرآة الزمان أن ذلك كان فى ذى القعدة سنة ٤٤٨ ﻫ وأن الذى قام بالدعوة بواسطة ابن فسانجس وكان معه عدد من الديلم والترك وانه نهب قرية الخليفة وبيض حائط جامع واسط ومحا ما كان على قبلته من ألقاب بنى العباس ونصب على المنبر لواءين أبيضين وخطب لصاحب مصر وضرب النقود باسمه .

موالينا الأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين نحوه بخيل الاجتهاد ركضاً [وهجروا وراءهم بآيات ذكر فى صحيفة مجدهم غمضاً](ا) فوقف بهم دونه الزمان ، وقصر عن العروج فى معارج فضله من جميعهم الامكان ، وألقى الله تعالى وله الحمد إلى مولانا أمير المؤمنين صلوات الله تعالى وعلى آبائه الطاهرين سهلا(ب) مقاليده ، وذخر لسيدنا بثقوب الرأى فى حل عقوده أحاديثه وأسانيده ، فلا زال ملبس سعدهما ما اختلف الجديدان جديداً ، وظل إقبالها ما امتد الظل مديداً باذن الله تعالى ، ومما يجب المطالعة به ذكر متجدد نعم الله سبحانه بقيام الدعوة الميمونة على منابر واسط وأعمالها وعموم المسرة به لمن تحويه تلك الأصقاع من نسائها ورجالها أن بدلهم الله تعالى عن دولة الجور دولة العدل ، وأوى بهم إلى حرم الفضل وجعلهم فى مملكة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فألبسهم الله بهذه الأكرومة(ج) أفخر اللباس ، وألحقهم بمن توجه إليهم فحوى قوله سبحانه «كنتم خير أمة أخرجت للناس»(١) إن شاء الله تعالى .

موقف ابن مروان بعد موقعة سنجار :

وكان ابن مروان أول من استجاب دولة التركمانية فى الديار ، وشرع فى سطوع دخان هذه النار ، فشخصوا بأبصارهم إلى معاقله وحصونه ينصبون عليها فى حيلة التملك الأرصاد وسلم المكر والفساد ، وطار كرى الطمأنينة (د) لما أحس ذلك عن عينه ، وعلم أنهم يحسنون المغافصة(ه) فيما يؤدى إلى حينه ، فنفض عن الرصد أمر(و) مرابطها من الأعاجم(ز) قدميهم والأحداث ، ولم يدع بها إلا من لا تطول إليه يد الشبهة ، ولا يقع فى كفة ميزان الظنة ؛ وحين رآنا مجردين لسيوف العزائم فى لقائهم وشادين لأزر الغلمان البغدادية الذين أخرجوهم من ديارهم وأبنائهم ، انبعثت نفسه لأن يقوم معنا فى إيهان كيدهم وهد ركنهم ، قياما يكون عليه غاشية من اللبس ، ولا ينقسم جسمه إلى صفتى اللين والخشن لدى اللمس ، فلما تكاثفت(ح) الجيوش من الأعراب والأكراد والأتراك

(ا) فى ك : وهجر وزرائهم باثبات ذكرهم فى صحيفة مجدهم غمضا . وفى د : مجده .
(ب) فى د : نهلا . — (ج) فى ك : الكرامة . — (د) فى د : الطاغية . — (ه) فى د : المخاصمة .
(و) سقطت فى : د . — (ز) سقطت فى د . — (ح) فى د : تكانفت .

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠ .

بالجزيرة جرد النجدة من رجاله ، وتكلف عليهم الكلف من أمواله ، وهو مع فعله هذا لايقطع خطبة التركمانية عن منابر دياره ، وقد قطعت بالموصل التى هى أدنى جوار من جواره ، وبواسط والكوفة كمثل ذلك ، ويجعل الحجة فيه رسولا أرسله إلى مصر لأمر يبرمه ، وتقرير يقرره ، وأنه لا قبل له بأن يتعرض بغير نصبة حاله حتى يعود رسوله ، وإضماره فى ذلك أن يكون معه امهال(ا)حتى تخرج الأرض أثقالها فى أمر الفريقين ، فان كان لنا : كان وقوفه على انتظار الرسول عذره فى شأن الخطبة ، وإن كان علينا : أمتن على التركمانية بتفرده من دون الناس كلهم بحفظ النصبة ، واعتذر أن النجدة التى أنفذها لم ينفذها إلا ردءاً عن نفسه ، ومنافاة للجموع الكبيرة التى لو لم يفتح لهم باب المساعدة لأخذوا عليه باب بيته ، فكأنه أعد لكل من المقامين مقالا ، ورتب سؤالا وجواباً ، ولما كان ذلك مما لايخفى مثله على ذوى الرأى والحنكة كاتبته فى فصل من كتاب بما هذه نسخته .

خطاب المؤيد الى ابن مروان يدعو لتأييده :

وأما اعتذاره عند التوقف فى معنى الدولة الشريفة وإقامتها ، ووقوع التربص بها إلى حين عودة(ب) الشيخ أبى الحسن بن بشر[1] بالتقريرات التى تطمئن بها القلوب ، وتنشرح معها الصدور ، فعذره فى هذا الوجه يحتاج إلى عذر ، وذلك أنه قام فى غيره من الأمور التى هى أشد وطأ وأثقل محملا [وانكا نكاء القيام](ج) المشهور ، وسعى السعى المشكور ، وارجاء هذا الوجه فطواه فى مطاوى الفتور ، فان كان التربص به توقع ما يحدثه الزمان فان كان لنا فتح من الله قالوا «ألم نكن معكم» وإن كان للكافرين نصيب قالوا « ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين »[2] الذى هو نص قول الله تعالى ، ومثل الخبر فكذلك إن كان لنا فليس يفوتهم إذ ذلك إقامة الخطبة ، وإن كان علينا والعياذ بالله كانوا قد استبقوا مع العدو خذله الله فى الأمر بقية ، وجعلوا ترك الأمر على جملته لديهم مأنة(د)

(ا) فى د : مهل . — (ب) فى د : دعوة . — (ج) سقطت فى د .
(د) فى د : مائة ومأنه بمعنى اتقاه .

(١) هذا هو الرسول الذى أوفده ابن مروان إلى القاهرة ، وحاولنا أن نعرف شيئاً عن هذا الرسول ولكن بدون جدوى .
(٢) سورة النساء آية ١٤١ .

فهذا رأى ينافى الصواب ، وطريق يباين الاستقامة ، فهو يعلم يقينا أن إقامة الدعوة لنا ونداءه لشعارنا لا يعظم عن موقعهما إلا مع إشراف(ا) العدو ، واستوائه على مركب العتو ، فأما إذا تفضل الله بفك أنيابه ، وقطع أسبابه ، واستجابة الديار ، وأسعد على تذليل الصعب المقدار ، فأى طعم(ب) يبقى لخطبته إذا خطب ، وقد غار ماء رونقه ونضب ، وأما ما يخرجه حساب التوهم الذى لا يثبت مثله العقل ، ويمحوه لطف الله وجميل صنعه من أنه ربما وقف الأمر والعياذ بالله فكان عنده مرموقاً بعين من اقتصد فى الفعل ، ولم يمل معنا كل الميل ، فذلك أيضاً قصد غير صحيح لكون ذلك متعلقاً بامتداد باع العدو — خذله الله تعالى إليهم والله يعيذهم منه — أو قصرها ، فان قصرت باعه كان الفكر باقامة الدعوة شفعاً للفكر بالانجاد ، وتجريد العسكر الذى ليس بخاف أمره ، وإذا لم يخلص ضرر من ذلك لم يخلص من هذا أيضاً ، وإن طالت باعه — لا أطالها الله — فهم الذين قال الله فيهم «لايرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة»(١) كان هذان الأمران ، أم لم يكونا ، ومع هذا كله فمعلوم أنه إن تفضل الله بالدفع فى وجه هذا العدو المضل المبين ، فما هو إلا جرثومته التى قطعت وأنيابه التى قلعت ، لكون ذلك أمراً هو بنفسه حاضره ، ويخيط رقبته مباشره ، وإن — والعياذ بالله — كان على أصحابنا — نصرهم الله — فان صاحب الأمر ولى النعمة — خلد الله ملكه — على مسيرة خمسمائة فرسخ لا يحل به كثرة وهن على تكاثر عدده ووفور عدده واتساع نطاق قدرته — بحمد الله ومنه — لأن يردف جيشاً بجيش ، ومالا بمال ، فليس الحرب مما تضع أوزارها بوقفة تجرى وَكَلاً(٢) ، بل هناك لزمت ملازمها وتعين على الناس عامة والمجلس الأميرى خاصة أن يتعلقوا بأذيال الدولة العلوية أدامها الله كل التعلق ، ويتحققوا بخدمتها كل التحقق ، عالمين علم اليقين أن الناس إذا عدموا والعياذ بالله منها سنداً ، ومن ظلها(ج) ملتحدا ، صاروا ملكة لهؤلاء الأشرار وصلوا فى ظلمهم وعدوانهم أحر ما يكون من النار ، والسلام .

(ا) فى ك : انشراف . — (ب) د : طمع . — (ج) فى د : طلبها .

---

(١) سورة التوبة آية ١٠ . — (٢) الوكل : الاستسلام .

تفرق جمع المؤيد :

وتكاثفت الجموع بالمحل بالقيارة(ا) والتركمانى منهم فى سرابيل الخيفة تغشى وجهه نار الذلة ، والانفاق مبسوطة يده ينفق فى الناس فمنهم الراضى ومنهم الساخط المستزيد ، وأكثرهم للباطل طالبون ، ولمركب الاشتطاط راكبون ، وبنو عقيل تبتغى على المانعة عن دارها وحريمها أجراً ، ولم تزل أعنة طلبة المحال تتجاذب حتى أجفل قوم من بنى عقيل عن ذلك المناخ ، فتبعهم الباقون ومدوا الشوط حتى جاوزوا الموصل إلى قرب سنجار(ب) مهزومين بجند الخلاف والخذلان ، ولو وقف عسكرنا المشتملة عدتهم على ثمانية(ج) آلاف فارس — على ما كان كتب به أبو الحارث — للثبات بمكانهم لما انكسر ناموسهم ، ولا فل حدهم ولكنا انجروا بمجرهم ، وانقادوا بمقادهم ، والتركمانى لا يؤمن بكون ذلك إلا غدراً به ، واستدراجاً له ، حتى كشف له التأمل عن حقيقة الأمر فما نفضهم عن مكانهم نفضاً ، فطمع فيهم طمعاً لم يكن ينبض فيه قبل عرق فى جسمه ، وحصل من اشتداد(د) القلب على أوفر قسمه ، فقطع إليهم الزابين أولا ودجلة ثانياً بعد أن كان لموح ثنايا الحتوف من لموع الأسنة والسيوف يحرم عليه أن ينال من مائها نهلا ؛ أو تصادف قدمه من مائها(ه) بللا ، فرأيت الأرض تقشعر خوفاً ، وأهلها قد استشعروا هلاكا يواقعونه وحتفاً(و) ، وأهل الرحبة المسكينة موتى يترددون فى زى الأحياء ، قعود فى مدرجة البلاء ، يتوقعون سفك دمائهم وهتك حريمهم فى الصباح والمساء ، لكونهم بحيث يغشى عيونهم دخان النار من قرب الجوار ، وإذا كانت هذه صورتهم وهم إلى ضميمة وعلى حملى(ز) علاوة ، فكيف يكون حالى والسهام نحو أفئدة قوم من كنانتى طائرة ، وعليهم من جهتى طارئة ، غير أن قعودى كان قعود المستسلم الذى لا يحدث نفسه بالنجاة من غيابة الجب ، ولا يقع الكلام فيها موقع القبول من أعشار القلب ، المميز بين الأمرين فى إظهار خور وعجز لايحدثان نفعاً ولايدفعان ضرراً بل يكسران قلوب الرعية ، و يستعجلان لهم بالأذية ، وإظهار جلد يوسع له الجلد ، و يرهف لسيف(ح) العزم فيه الحد ، وعاجل نفعه أن يربط الله تعالى على القلوب ويثبت به الأقدام ويحفظ من الانخراق والانخلاع خاص تلك البلدة والعام ، القاصد أقصد الطريقين

(ا) فى النسختين القيازة والتصحيح عن معجم البلدان . — (ب) سقطت فى د .
(ج) سقطت فى د . — (د) فى د : استدار . — (ه) فى د : حوضها . — (و) فى د : واحتفلوا .
(ز) فى د : وهم إلى حمله وعلى حملى عداوة . — (ح) فى د : وترهف عين .

المنتهج أوضح السبيلين ، فكنت أظهر للناس ظهور من جاءه بالفتح البشير ، ومن لا بنان بفزع (ا) ولا جزع نحوه تشير ، وأنا فى باطن أمرى (ب) متكفن متحنط انتظر تخطف الأيدى لى من مكانى ، وأجمع أمرى على أنه إن دهمنى ما أحذره رميت بنفسى فى جانب البر فلا أزال أضرب (ج) فيه إلى أن يحضرنى (د) حاضر الجوع والتعب والعطش فأهلك ، وإن أدركنى طالب من جهة العدو أبيت أن أعطيه قيادى دون أن أقطع قطعة قطعة تفادياً من أن أقاد إليهم حيا ، فكنت أوصى أكثر من صحبتى أن يأخذوا لنفوسهم ، ويتفرقوا عنى من قبل أن تحل بهم قارعة بسببى ، وكاتبت الجماعة المجفلين من القيارة بما هذه نسخته فمنها نسخة كتاب إلى أبى الحارث مضمونها .

خطاب المؤيد الى أبى الحارث البساسيرى فى تهجين النكوص :

وكان كتابه المشتمل على ذكر النكوص على الأعقاب ، المقطع الأسباب ، وصل ، فأسكرنى سكرة الحيرة ، وألبسنى فى بدنى ملابس الفترة ، وأجبت عنه فى الوقت والحال جواب الحيران ، واختبطت فيه اختباط السكران ، وأنا على الجملة المذكورة متبرم بعيشى ، ومأخوذ عن رأيى وعقلى ، وأعلم مع اختباطى واختلاطى أن سيدنا ما برح من ذلك الموضع إلا وهو مزموم بزمام الضرورة ، ممنوع (ه) بقلة المساعدة والموافقة ، وأنه أحس من بعض الجهات بغدرة أوجبت أن يستظهر لنفسه ويأخذ بقضايا حزمه ، ووالله لقد أفحشوا (و) وقبحوا بانهزامهم من خرير الماء ودوى الريح بعد تجمع التركمانى منهم وإحسانه الظن بهم ، وتجميده فى طريق سبعة أيام سبعين يوماً وزيادة وهو فى تلك العدوة ، ظناً بهم جميلا وأن فيهم شيئاً ، وأسجلوا على نفوسهم أنهم نهزة الطامع وطعمة الآكل ، وهدموا ما بناه (ز) يوم سنجار فى قلوبهم من بنيان الرعب ، وعطلوا نفوسهم من الفضيلة بلا سبب ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، والآن فلو كانوا من ذوى النحائز لكانوا قادرين على تلافى الحال ، فان التركمانى بعد أن شعر بتوليتهم الأدبار مجفلين عنه ومنهزمين منه ، لا يرد وجهه عن الموصل شئ ، فلو أنهم أقاموا الأرصاد عليه وتربصوا به العبور فكانوا يميلون عليه ميلة واحدة فى خلال عبوره ، إذ فريق منهم عبروا وفريق لم يعبروا ، فيوقعون بمن عبروا ويحيطون بمن لم يعبروا ، ولكان ذلك مكيدة من مكائد الرجال ، وواقعا أحسن موقع المرضى من

(ا) فى د : لابنان يفزع . (ب) فى د : حالى . — (ج) فى د : اجرى . — (د) فى د : يحضرمن .
(ه) فى ك : ويمنو . — (و) فى د : افصحوا . — (ز) فى د : وهذه وما بناه .

الأعمال . فأما إن تمكن والعياذ بالله من الموصل ليدخلها ويجعل عاليها سافلها ففيه انكسار الناموس كله ، وبطلان فرعه وأصله ، وما عندى أن هذا الفعل يصدر عنهم ، وهذه المساعدة توجد فيهم ، فان من كان خرير الماء يهزمه فصرير العوالى وبريق السيوف لاشك تهدمه وتقصمه ، ووالله العظيم انى أردت مكاتبة المجلس الوزيرى فى هذا المعنى فلم أدر ما الذى يخطه(ا) قلمى ، وأى عذر يخرجه كلمى ، بينما كنا نكتب إليه ألف كتاب أن التركمانى ذليل مكسور مفلول حتى تبعه الآن ثانياً ، وكنا ما لحناه من شرق دجلة حتى انهزمنا من غربيها ، مخافة أن يطير إلينا . وأما اتفاق الآراء على ضد الصواب فى التحصن بالبلاد الآمدية إلى أن يستظهر أفضل الاستظهار ، فالجمع الذى معنا يتعطل ، وأمر الواسطية التى هى العين المنظور بها يضمحل ويبطل ، فهذا عاجل الاستظهار ، ولاندرى ما يكون آجله ؛ وسوى هذا فان حديث الاستظهار صحيح ولكنه ليس لنا إلا أنه للتركمانى وهن بقدر ما به ينكشف الطريق فتصل(ب) حدته ويزول ضعفه ومسكنته ، وهو أولى من ترك ذلك كله جانباً وأخذ فى الحقائق والذى يذهب إليه وهمى من وجه الصواب ، والله أعلم أن لا يجرب المجرب ولا يستعين بمن لا يعينه وقت الحاجة إليه ولا يستتبع عسكره ، ومن يرغب فى مصاحبته من غير الجنس ويعود إلى شاطئ الفرات على الرحبة ويقبض الشوى(ج) الحاصل له بها ويمضى لصوبه إلى واسط لمشاركة(د) الأتراك الذين هم أبناء الجنس ، والديلم الذين إذا طلبهم وجدهم ، ويعمل بعد ذلك بما يريد الله سبحانه ويفتح له فيه مستعيناً به ومتوكلا عليه . فأما غير هذا فلا يحيط به علمى ، ولايذهب إليه وهمى ، مع انتقاص النصبة التى كان يمليها(ه) وإن كان بحضرته شئ هو أجدى مما قلته وأدنى إلى الصلاح أشعرنى به لأسكن إليه وأتبع مثالته فيه والسلام .

كتاب المؤيد الى دبيس بن مزيد :

نسخة كتاب إلى ابى الأغر دبيس بن على بن مزيد : كتابى هذا وقد بلغنى من إجفال الناس عن المحل الذى كانوا فيه بالقيارة ما صدع فى قلبى صدعاً لا أقول ضيق لى ذرعا ، لأنى رأيت أعمالى قد أصبحت هباء منثورا ، وسعيى ضل وكنت أعده مشكورا ، فمعلوم أننى حركت ساكن هذا الأمر حتى فاض فيض ماله ، واجتمع شمل رجاله ، وقد جمعت بين شيئين

(ا) فى د : يخطب . — (ب) فى د : فتضل . — (ج) فى د : السوى .
(د) فى د : لمسابكة . — (ه) سقطت فى د .

أحدهما إضاعة مال السلطان — خلد الله ملكه — والآخر صرف وجه عداوة التركمانية إليه ، ولقد كان يشغلها القريب عن البعيد والحاضر عن الغائب ، ولئن كان(ا) يتبغم بذكرنا فى الأوقات لقد كان تطبعا لا طبعا(ب) ، وإغراء من الجهة العباسية التى ضلت سعيا وقبحت صنعا ، والآن فقد استحكم الأمر واستحصد الشر ، وإن كان فى حق كفاية الله سبحانه للمحقين ما يدفع باطل المبطلين ، وأما أصحابنا الذين ارتدوا على أدبارهم فمعلوم أن التركمانى ما عدل عن صوبهم إلا وهو يحسن بهم ظنا فى شدة البأس ، ويشتمل من أن تنالهم يده أو ينفذ فيهم كيده على لباس اليأس ، فاسجلوا على نفوسهم بفرارهم أن حسن ظنه بهم باطل ، والفكر بشدتهم وقوتهم زائل ، ويدلوه من خوفه أمنا ، وسهلوا له من طريق تتبعهم وطلبهم ما كان يظنه حزنا(ج) ، وطرقوا له فى عاجل الحال إلى الموصل وكأنى به وقد جعل عاليها سافلها ، ونال كل نيل منها ، فانا لله وإنا إليه راجعون . لقد جاءوا شيئاً إدا ، وهدوا ما كانوا بنوه بسيوفهم بسنجار مجدا ، ولست أدرى ما أقول وهو حاضر يسمع ويرى فلا يأمر(د) فيه بما يقتضيه الحجى والنهى ، ولا يضرب وجه المنكر فى هذا الفعل بسيف الانكار ولا يضرب دون فساد الأمر بعد صلاحه بالحجب والاستتار ، اللهم إلا أن يكون أمر(ه) فما أطيع ، فلا رأى لمن لا يطاع إذن . وإذ قد جرى من هذا الأمر ما دمر الأصول والفروع ، وأضر بالتابع والمتبوع ، فقد بلغنى اتفاق العزائم على التحصن ببعض الحصون الآمدية إلى أجل معلوم ليستظهروا أفضل استظهار فوجدت القصة فيه تزيد قبحا على ما سبق وهجنة ، فان التركمانى أضعف ما يكون اليوم وهو فى عقال ، قل وذل وكسر وفل ، وبينه وبين قوة شوكته ووصول نجدته هو القدر الذى أزمع أصحابنا التفسح(و) عنه ، فما هو إلا حاجة له تقضى ومنة إليه تسدى لاغير . وأما صمدهم ليستظهروا(ز) أفضل استظهار فمن أين يقع لهم من ديار بكر استظهار يقوم يوازن ما يفوتهم بالعسكر الواسطى والعسكر الخفاجى من الاستظهار وأين تقع تلك المنفعة المأمولة فى عاجل هذا الحساب ، وسيدنا يميز ما أوردته بعقله الثخين[١] ورأيه الرصين يجد عليه مسحة من الحق ونوراً من الصدق ، ويجتهد فيما يمنع الشمل من الشتات ، والحبل من البتات ، ويبعث على انتهاز الفرصة عند الامكان ، من قبل ضيق القدرة والزمان ، وهذه قصيرة عن طويلة والسلام .

(ا) سقطت فى د . — (ب) فى د : تطبقاً . — (ج) فى ك : حزفا . — (د) فى د : يأمن .
(ه) فى د : آمرا . — (و) فى د : التفسخ . — (ز) فى د : لئلا يستظهروا .

---

(١) الثخين : الحليم .

كتاب المؤيد الى ابن ورام :

نسخة كتاب(ا) إلى أبي الفتح بن ورام : كتابى هذا والله يعلم كنه اشتياقى إلى طلعته المباركة ، وقرمى إلى مباسمته ومحادثته ، والله تعالى يسعد حله ومرتحله ، ويبلغه من كل منزل ينزله وكل محل يحله أمله ، بمنه وعطفه ، وقد بلغنى من ذكر فضيحة الاجفال عن المحل بالقيارة والنكوص على الأعقاب ما ملأنى قلقاً وأسفاً على ضياع سعى سعيته ، ومال عظيم للسلطان خلد الله ملكه أتلفته ، لو كف لسانى عن الفضول فيه لم يبرح من كفه ، ولم يكن عليه سبيل فى تلفه ، ولم تقم سعه داعية تثنى وجه الحرب والخصومة إلى أنفسنا بعد أن كنا بعداء عنها وإنما كان يترنم بنا ترنماً ، ويتبغم فى وقت بعد وقت تبغما ، لا عن جد وتصميم(ب) وشد حيازيم ، فغرمنا عليه الأموال والخلع حتى رددنا الهزل فيه جداً والمجاز تحقيقاً ، والله المستعان وعليه التكلان . ثم أنى والله العظيم مالك يوم الدين أنفت لكم واستحييت من هزيمتكم ، فلقد هدمتم مجداً بنته سيوفكم يوم الوقعة بسنجار بهذه الهزيمة الفضيحة ولما لقى وجه لوجه ، ولا وقعت عين على عين ، ولا أدرى ما الذى شردكم وبينكم وبين عدوكم حاجز من بحر لجى ، اللهم إلا أن تكونوا رعبتم من خرير الماء ، فيكون ذلك عذركم ، وجملة تغنى عن التفصيل ، إنكم ملأتم أفئدة عدوكم بعد أن كانت هواء(ج) ، وأعدتم يومه صباحاً بانفساح الأمل ولقد كان مساء ، وقدمتم إلى ما عملتموه من عمل فجعلتموه هباء ، وإنا لله وإنا إليه راجعون وبلغنى استقرار العزائم المباركة الآن على قصد بعض الحصون الآمدية ، والتحصن بها ريثما يتفرق الجمع الذين هم معكم اليوم فتزدادون ضعفاً ، وتصل نجدة عدوكم فيتضاعف قوة ، فوجدت ذلك من الآراء الفاسدة(د) التى ثمرتها فى عاجل الحال تكريب الموصل أن يجعل عاليها سافلها ، وسماع العسكر الواسطى وغيرهم به ويذكر هزيمتكم(ه) فتقطع بهم الأسباب ، وتسد فى وجوههم الأبواب ، فالله الله يا سيدنا ، فانك أكثر الناس بهذه الأمور خبرة ، ولها ممارسة وبها بصيرة ، تجرد للمنع عن هذا كل التجرد ، وعيب على قائل الرأى فيه . وقد كتب إلىّ الأجل بوقوع الاحصاء على من تضمه الصحبة واشتمالها على نحو ثمانية آلاف رجل ،فعسكر تكون بهذه العدة ماالذى يضطره أن يتخذ من الجبال بيوتاً ، ولم لا يزحف(و) إن لم يكن فيه اللقاء إلى بغداد ،

(ا) فى ك : كتابى . (ب) فى ك : تصمم . — (ج) فى د : هؤلاء . — (د) فى د : السديدة .
(ه) فى د : هزيمتهم . — (و) فى د : يرجف .

فيجمع بالواسطية شملا ، ويشتد بها أزرا ، ويبرم معها فى دفع العدو أمراً ، وهذه قصيرة عن طويلة ، وإن أفضت معه فى مثل هذا القول فكأنى أقرأ سورة يوسف على يوسف ولكنه نفثة مصدور يتحسر على ضلال سعيه والسلام .

كتاب المؤيد الى قريش بن بدران :

نسخة كتاب الى ابى المعالى قريش بن بدران : قد كان نفذ كتابى ذاكراً ما بلغته فى خدمة مكاتبة على يد فلان فى خاصتى بما ينجح باذن الله مسعاه ، ويؤذن ببلوغ الغرض فى مقصده ومنحاه ، ومعاتبا على قبضته يد المكاتبة عنى على تشوق لها ، وتوقعى لتلوح السعادة فى فحواها ومضمونها ، وشاكرا على ماتواصل من شكره له وثنائه عليه ، وحامدا لله تعالى على نسخته آية الجفاء بالبر والشكوى بالشكر ، وأرجو أن يصل إليه ويقف عليه ويرد من جوابه ما يحقق الظن بمكرمته ، والمخيلة فى كرم طبعه ومروته ، وبلغنى بعد نفوذ ما نفذ من إجفال الناس عن المحل بالقيارة ونكوصهم على أعقابهم ما غشينى منه غاشية من الحيرة ، وأحاط بمنتى سرادق من الفترة ، وتعجبت من قوم يشاهدون البلاء مطلا عليهم ، والعدو(ا) نازلا بهم وسائرا إليهم ، وهو مع ذلك على تخوف(ب) منهم واستراق نفسه من التهجم عليهم ، والاحتجاز بالبحر حائلا بينه وبينهم لجسوم من عسكره بسيوفهم فى القاع صرعى ، وكلوم هى الى الآن تدمى ، كيف طوعت لهم أنفسهم أن يولوه الأدبار منهزمين فيردوا إلى صدره قلبا طائرا ، ويجردوا من دلوفه إليهم عزما فاترا ، ويجعلوا فى كفه من الاقتدار عليهم لفشلهم سيفا باترا ، إنا لله وإنا إليه راجعون . أين المفر أين المفر(ج) ، وإلى أين تذهبون ، وهل تجدون كالعسكر العراقى ردءا ، وكالدولة العلوية أدامها الله تعالى وزرا وكهفا ، تبذل جسيم الأموال فما صان ديارهم وحريمهم بذلا . ياسيدنا أنت الرأس وأنت لما يبنى(د) من خير أو شر — والعياذ بالله — الأساس . فراقب الله جل جلاله الذى إليه إيابك وعليه حسابك ، وأصلح فاسد هذا الأمر وكن آكد سبب من الأسباب للخير ، واعلم علم اليقين أن الذى فى أكمام المقادير من ثمراتها خارجة إلى الوجود ، ثم أنها تنقسم إلى أحد القسمين : من سبب مذموم أو سبب محمود ، فكن من خير الأسباب وأوجف على طلب المصلحة للدولة العلوية ومصالح المسلمين خير خيل وخير ركاب ، ولا تزرع فى مزارع البر الجفاء ولا تبغ من مكان الغدر

(ا) فى د : والعدوة . — (ب) فى ك : الخوف . — (ج) فى د : أين المفر ترا ابنى أين المقر .
(د) فى د : يبنى .

الوفاء . وما أقول هذا — علم الله — وأنا أسيء(ا) بسيدنا ظنا ، واعتقد من جهته خلفا ، بعد ما تقرر وتحرر من الاستظهار عليه بالمواثيق والايمان التى قول من يجرى مجراه ويطير فى آفاقه يمين بلا يمين ، وكيف إذا استظهر عليه بيمين ، والذى أقول له لو لقى(ب) القوم بصادق الزجر(ج) والنكير والتخويف والتجشم والقول انكم باجفالكم هذا تمكنون من بيوتكم ودياركم وتملكون العلوج نواصى نسائكم وولدانكم ، لعقلتم(د) من الأنفة عقلا وشكلتم(ه) من الحياء والحشمة شكلا ، فان الناس بزعمائها وسراتها ، والرعية مذ لم تزل برعاتها ، والآن فحقيق على كرمه أن يفعل فى هذا الباب ما يقضى بسعادة الأولى والعقبى ، ويثبته فى صحيفة المحسنين الذين لهم الحسنى وزيادة على الحسنى ، ولا أزيد على هذا من القول والسلام .

رد المؤيد على خطاب ابن ورام :

ولما أنفذت كتبى إلى القوم بما صدع بالحق ، وقمع بمقامع الصدق ، دخلت(و) أخماسهم فى أسداسهم ، وكتبوا من الأجوبة بما جرشوا ألفاظهم فيه ، وخشنوا(ز) ودسوا ابن ورام على أن يكون كتابه أغلظ ألفاظا ، وأكثر لمستصعبات الكلام جمعا ، فاتفق على من ورد بهذه الكتب من الوقوع فى الماء عند عبور الفرات(ح) ما بلّ كتبه جميعا ، وصير كتاب ابن ورام خاصة الجامع نفثة صدور جماعتهم عجينا(ط) ، حتى لم يمكن استخلاص الكلمة إلا بشق الأنفس وكتبت أجوبتها بما هذه نسخته :

جواب ابن ورام : ووصل كتابه الحاكى حامله على ما بلغنى عنه أنه وقع فى الفرات فوجدته بالحقيقة قد لعبت به يد أمواجه ، فقطعت أوراقه ، ومحت معالمه ، واجتهدت فى أن أصل أسبابه وأؤلف بين أسطره فأعيتنى الحيلة فيه إلا أن أعرب عن ذكر سلامته التى هى نهاية المحبوب وغاية المطلوب ، فحمدت الله تعالى عليه حمد أمثالى من المغرقين فى محبته ، المعلقين بحبل مشايعته(ى) ، اللاقين ضد ما هو عليه من حسن الاعتقاد بطول لسان ثبوته [ولم أفكر بعد ذلك بما محى من السطور وذلك أنه أثبت] (ك) من آية التجنى فى غير

(ا) فى د : المسيء . — (ب) فى ك : القى . — (ج) فى د : الزخر . — (د) فى ك : لعقلتهم .
(ه) فى ك : شكلتهم . — (و) فى د : وادخلت . — (ز) فى د : وجشنوا .
(ح) فى د : القوم . — (ط) فى د : عجيباً . — (ى) فى د : مسائعته. — (ك) سقطت فى د .

حقه وواجبه ما الله محاه ، ورضى من بسط اللسان وتغليظ القول ما أنكره سبحانه وأباه ، وكنت بشهادة الله وعلمه ليلة أتانى كتابه من غد أقطع الزمان بذكره وتشوق حسن أخلاقه ووصف لياقته فى نفسه وجزالته فى عقله وكمال أدواته ؛ فلما كان من غد أتانى هذا الكتاب الذى صار عجيبا(ا) بالحقيقة فما زلت أثقب فيه نظرا ، وأسلط عليه فكرا ، حتى ظهرت من مضمونه على ضيق صدر منه وغيظ(ب) أنثى عنه ، كيف عاتبت الجماعة على تراجعهم ونكوصهم على أعقابهم وتسليطهم الموصل [إلى العدو](ج) لولا أن الله تعالى غل يده أولا ، وتغييرهم فى وجه اليوم الأغر المحجل بسنجار ثانيا ، فقلت : سبحان الله هذا حظى من حيث صرفت إليه وجه الثناء ، وبسطت فيه لسان المدح والاطراء ، وقلت : يانفسى صبرا جميلا ! وكان استقر فى نفسى أننى بهذه السفارة قد زرعت فى نفوس الجماعة محبة ، وأوجبت عليهم ذمة ، وانه خاصة من حيث جمع بينى وبينه المخيم تلك اليويمات ، وكشف قناع الحشمة بيننا وكنا نتجارى(د) أيضا فى الأمور الدينية والأسباب الالهية وسمع من لفظى ما سمع ، وقد عرفنى أكثر مما عرف الغير ممن ليس بينى وبينه أنس ، وعلم أن لى يدا فى العلم بالقياس إلى غيرى طولى ، وأننى ممن أنعم الله تعالى عليه وألبسه لباس التقوى ، وعرف لى على نفسه من الحق ما لا يعرفه غيره ، والتزم من التوقير ما لا يلتزمه سواه ، فاذا هو قد حمل بجميع سلاحه علىّ وحشد حشود احتجاجه على وجه التثريب والملام إلىّ ، ونسى أننى لو أردت الاجابة عن جميع ما قاله لعملت بالجواب سيرة ، ووجدت فى أرضه مراغما كثيرا وسعة ، ولكننى أصونه عما لم يصن عنه ، وأرعى له ما لم يرعه فى رضيعه ، وأقول إن كان صوابا الرجوع عن ذلك المنهل وتسليم الموصل وغير الموصل ، ورمى الديار برجفة ووقفت الهمم من أهل هذه الرحبة التى أنا أسيرها(ه) على تحصيل الحابر والحاسل للهرب بنفوسهم وأهاليهم وهم سوتى من الخوف لا يناسون ولا يقيمون(و) ولا يستريحون(ز) ، وقد كذبت بقولى وأفكت وقبحت بعذلى وأفحشت ، وأنا أعتذر إلى سيدنا وإلى الجماعة منه ، وإن كان غير صواب فما استوجب ذلك كله ؛ وقبل وبعد ؛ فأنا أحمل ما كرهته منه على الحدق ، وأسلك فى تحسين(ح) الأمر أمثل الطرق ، وأمنع مشربى من وده أن يتكدر ، ووجه مقتى له وثقتى به أن يتغير ، باذن الله والسلام .

(ا) فى د : عجيباً . — (ب) فى د : غليظ . — (ج) سقطت فى د . — (د) فى د : نتجاوز .
(ه) فى د : أشيرها . — (و) فى د : ينيمون . — (ز) سقطت فى د . — (ح) فى د : تحصين .

رد المؤيد على دبيس بن مزيد :

جواب كتاب دبيس بن مزيد : ووصل كتاب حضرته ، أحضرها الله السعادة وملكها لأمانيها المقادة ، ناطقاً بشمول سلامتها ، دام وجهه بها ناعماً ، وعموم سعادتها لازال برهانها له قائماً ، وقرأته وأحطت(ا) علماً بمضمونه ، وحمدت الله تعالى على سوابغ نعمه فى ذلك حمداً يكون لحسن المزيد مستجلبا ، ولخيامه بحبل الدوام مطنباً ، وفهمته . وأما ما ذكره من توزع سره الكريم لما جرى به قلم الشكوى إليه من حديث الانتزاع عن المناخ الذى كانت الجماعة به مخيمين ، وما اتفق من اتفاق التأخر بعد أن ظنهم متقدمين ، فلو شهدت عين سيدنا ما كان الناس عليه من هذه البلدة التى أنا حبيس فيها كيف يموج بعضهم فى بعض ، وكيف يرتجفون من خوف على مال وعرض ، وكيف يتحيلون للهرب بعيالهم وحريمهم فى ذلك الليل ، وكيف يتناجون فما بينهم بالخزى(ب) والويل ، لرأى من ثباتى(ج) فى حملة هذه سبيلها عجبا ، ولم يوجه عتبا على ما كتبت به ولا تعتبا ، فأما حديث العشيرة العقيلية والقول إن التنازع بينها حسد من لم يأخذ لمن أخذ ، وهو الذى قلع الخيام وأفسد النظام ، فقد عرفت ذلك ، إلا أن الناس أجمعوا على أنه لو ثبتت هذه الجماعة الذين هم أصحاب القريحة مكانهم ، ولم يقوضوا بالرحيل بنيانهم ، على كونهم آمنين من بغتات العدو لحاجز الماء بينهم ، لما كانت الأرض بالحقيقة تقشعر من الخوف ، ولما حصلت المنن والقلوب فى ملكة الضعف ، فان كانوا صادقين فى قولهم فلا تثريب عليهم ، وإن كانوا كاذبين فأنا(د) استغفر الله مما كتبت ، ولا أملك إلا نفسى ؛ وأما قولى فى ضياع مال السلطان خلد الله ملكه فما عنيت(ه) به إلا المال الذى فرق فى الناس بالموصل لا ما وقع التثريب به على من وقعة سنجار المشهور مقامها ، المرفوعة بالفخر أعلامها ، وبين ما قلته وما نسبت إليه بون ، ولا ينكر موقع قصدى فيه إن لحظتنى من النصفة عين ، فأما قوله فى معنى التركمانيين خذلهم الله وأنهم كانوا يتبغمون بالشام يومئذ وهم بأصفهان ، وأنه لولا الواقعة لكانت عساكرهم إلى الآن أصعدت ، فقد عرفته ؛ وسيدنا فى قوله صادق ، وعلم هذا الخبر إلى أسماعنا من قبل ذكره سابق ، ولكن عسى أن ظن القوم — بل ظنهم بلا عسى بحول الله وقوته — كاذب ، والعقل والدين لا يوجبان أن يكون لهم إلى سماء(و) ما منتهم أنفسهم من

(ا) أحصلت . — (ب) فى د : الحزن . — (ج) فى د : يتأتى . — (د) فى د : فلما .
(ه) فى د : عتبت . — (و) فى د : اسماع .

ذلك معرج ، ولا فى سبيله مدرج ، وصاحبنا خلد الله ملكه بكونه سلالة العترة الطاهرة عليهم السلام وعمدة الحرمين وعصرة أهل العصر ، وقرارة العدل والفضل ، أقرب إلى أن يملك ما فى أيدى الناس منهم أن يملكوا ما فى يده ، والأرض ميراث عباد الله الصالحين عدة منه سبحانه لا تطول الأيدى التركمانية لاخلافها ، فهذا باب ؛ والباب الثانى أننى بالعدوة القصوى ، وجاعل الخيفة(١) على من هم بالعدوة الدنيا ، ولو كف السلطان خلد الله ملكه عن إغاثة المستغيثين وإصراخ المصطرخين لكان إلى أن ينتهى دخان هذه النار إليه بعيداً ، وهو والله يديم ملكه لن يعدم فى الحالات كلها ركنا من معونة الله شديداً ، وأما المذكور من حديث المال وتراخيه وووروده مقطعاً قاصراً عما يفيض على الكافة ويعم الجماعة ، فسيدنا يعلم أن على نفسى تعبى وصبرى واجتهادى ومكاتبتى واستدعائى وهو غاية ما تشتمل عليه قدرتى ، ولايكلف الله نفساً إلاوسعها ، على أنه ورد إلى الغاية الشئ الكثير إذا اجتمع بعضه إلى بعض ؛ ثم أنه إن جرى الأمر على ما يتم الله به فضله ورحمته على العالمين فهو المأسول من جميل صنعه ، وإن تكن الأخرى فمبلغ نفسى عذرها مثل منجح ، ونفسى واثقة بالله تعالى باشراق صبح الفرج وبانكشاف قتام هذا الرهج ، مادام القصد فيما نحن بصدده مرضاة رب العالمين سبحانه وصلاح الاسلام والمسلمين باذن الله .

رد المؤيد على قريش بن بدران :

جواب كتاب قريش بن بدران : وصل كتاب حضرته ناطقاً بذكر شمول السلامة والسعادة بها فاهتز لمعرفته عطف مسارى ، واخضر روض جذلى واستبشارى ، وقرأته وأحطت علماً بمودعه ، وحمدت الله تعالى على سلامة جلله جلالها ، ومد عليه ظلالها ، وسألته جل اسمه أن لا يخليه من متجدد سرور فى صحة مهجة ، وأن يبوأه من حسن توفيقه حدائق ذات بهجة ، إنه ولى الاجابة بمنه ورحمته ، فأما اعتذاره الكريم عن تأخر المكاتبة فمقبول بالشكر محمول على أحسن ما يكون من الأمر ، غير أن المحبوب منه أن يوعز بالمواصلة وترك الاعتاب بالمكاتبة ، وألا يخلينى من تحفة بها بعد تحفة ، ومسرة يشفعها بمسرة ، وأما تقبضه مما كنت خاطبته عليه فى معنى الانتزاع عن الموضع الذى كان للجماعة مجمعاً ، وإلى لقاء العدو مهيعا ، فاننى ملئت من هذه الحالة رعباً ، وبت لها فى بردة الهم والفكر

---

(١) فى د : الحنيفة .

متقلباً ، وسؤالى لسيدنا أن يداوى هذا الداء بلطيف طبه ، ويجلى فيه ليل الهم الذى يكاد يحول بين المرء وقلبه ، وأما(ا) تعيينه على السبب الذى أنشأ هذه الحالة التى اتفقت ، وكونه من وراء ما يأسو الكلم ، ويسد الثلم ، تأليفاً للكلم ، وحشداً لأفانين (ب) الأمم ، إلى كسر نواجز العدو ، وإنزاله عن صياصى البغى والعتو ، ودخولا تحت أثقال الكلف فيما يسر باذن الله تعالى مراماً ، ويبرم بسبب الابرام إبراما ، فقد عرفت جميع ذلك وماحدانى على مكاتبة حضرته بما كتبته إلا قيامة فى هذه البلدة التى أنا ساكنها قامت ، ونفوس فى لجج الحيرة من أهلها عامت ، وأراجيف بكل عظيمة اتصلت ، وقلوب على كل رجفة وخيفة من أهلها اشتملت ، وسيدنا أعلم الناس بموقع(ج) ضرر الرجوع بعد الاقدام ، وكونه مؤذناً بتزلزل الأقدام ، وأما تألمه لما وقع له من اتهامى إياه من حدوث ما حدث ، فكلا وحاشا ، فان الله تعالى رفع عن ذلك قدره ، وأجل عن أن يتسم بسمة أهل التهم ذكره ، وهو الموضوع فى مهد الرياسة ، والمربى فى حجر المجد والنفاسة ، والنابت من أكرم نبات العرب الطاهر من الخنا والريب ، وقد كنت أودعت كتابى إلى حضرته أننى ما أوردت الذى أوردت (د) ويتخالجنى ريب فى نيته ، أو تعرض لى شبهة فى صفاء طويته ، وأن كلامه عندى بلا يمين ، ومكان قوله ووعده من الوفاء مكين ، وإذا رجع سيدنا إلى الكتاب الذى ذكرته لم يجد على مغمزاً(ه) فيما جعلنى إليه منسوباً ، واتخذه حساباً من سوء ظنى محسوباً ، وجملة تغنى عن التفصيل ، فلم تزل الشيعة التى هو وأسلافه من أرفع بيتها وأزكى نبتها يتمنون مثل هذه الأيام التى قد أتيحت له ، وحقيق على الله تعالى أن يجمع بفخارها شمله ، وقد جاءته صفواً عفوا فأى عذر له إن لم ينهض لها نهوضاً يؤرخ به مجده إلى الأبد ، ويشد ساعد المقادير معه شد العضد ، ولا سيما وعين الخلافة العلوية إلى فعله ناظرة ، ووجوه الثقة بنصر الله سبحانه بعد ذلك ناضرة ، والله تعالى يوفقه فى ذلك لسعادة الدارين وشرف المنزلتين برحمته : وأما قوله إننى لونزلت المنزل الذى نزلوه من مصاقبة العدو وملازقته ، وحيث تهب سمائم بأسه وسطواته لعذرت من ولاه دبره لا سيما مُتحرفاً لقتاله أو متحيزاً إلى فئته ، فقد عرفته فلو كنت حاضرا الموضع معهم وأنا أعلم أننى فى دارى وهم فى الغربة ، ومعى الكثرة وهم فى القلة ، وأنا الذى أرجفت قلوبهم يوم سنجار بعظم الفتكة ، وأننى أدفع عن حريم الاسلام والمسلمين وأنهم قاسطوه بالهتكة ، وأننى من أصحاب العدل(و) وأنهم أهل البغى [لثبت أحسن الثبات](ز) متكلا على الله سبحانه رب الأرض والسموات وأريد أن يرمقنى سيدنا بهذه العين فاننى

(ا) سقطت فى د . — (ب) فى د : أذانين . — (ج) فى د : بموقوع . — (د) سقطت فى د .
(ه) فى د : غمزاً . — (و) سقطت فى د . (ز) فى د : ليست أحسن الثياب .

وإن كنت ضعيف القوى فى الجسم فقوى النفس ، وإذا انتهت هذه النوبة فعينى شاخصة إلى ما يكون من سيدنا من الفعل الفائح رباه ، والجميل محياه ، الذى يحله فى الدنيا فوق الفرقد ، ويقضى له فى الآخرة بنعم الأبد إن شاء الله تعالى .

كتاب المؤيد الى أبى الحارث :

فصل من كتاب الأجل أبى الحارث أرسلان المستنصرى : وأما وقوع ما كاتبت به الجهات الجليلة من حديث الرجوع بالكراهة فليس يخلو فعلهم من أحد القسمين : إما محموداً أو مذموماً ، فان كان محموداً ما وقع فى الناس بعودهم من الرجفة حتى أقبلت الخاصة والعامة يعدون هم المحامل والمحارب(ا) للهرب بنفوسهم وحريمهم ، فذاك أمر يجب تقريره مع الناس هل حمدوه أو ذموه ؟ وأنا واحد منهم ، واستغفر الله من جزء خطيتى من بينهم ، وإن كان مذموماً فيتجنى (ب) على بالقول ولا يتجنى عليهم بالفعل ، وقد كاتبنى كل منهم بما بسط فيه لسان المقال والملال ، ولوم الأخذ بآداب الحلم والملاطفة وكظم الغيظ لكنت فى الجواب أمد باعاً وأبسط ذراعاً وأطول نفساً ، وقد عرضوا بل صرحوا بكون قصد التركمانية إليكم و إلى دياركم وجعلوا المال ممنوناً عليه ، والمحسن محسناً إليه ، فصبرت وسكت واحتسبت لا سكوت عى بل سكوت حلم وكتبت واعتذرت وتنصلت والسلام .

الفتنة بسبب المال :

ثم أن أصحابنا تجمدوا بمكانهم وتعقدوا ، وبقيد المقام تقيدوا ، وكانت الأموال واصلة إلى مستقرى بالرحبة ، وأنا أسوقها إليهم تواليا ؛ فوصل شىء منها فى بعض النوبة فحملته على السنة الجارية فى مثله وهم يستقلون كثير ما يصل ، ويستقصرون دون ما يريش فينهض ، فأوحى إليهم بعض الشياطين المفسدين أن المحمول فى هذه النوبة لم يحمل بكماله ، واقتطع (ج) منه شىء فى الرحبة ، فأذكت هذه البلاغة من نار الخرق والطيش ما كاد يكون له حطبا ، فما راعنى إلا دخول من أذن بوصول أبى الحارث قرب الرحبة ، فأحسست فى قلبى رجيفا كاد يقضى على(د) نائرته بالهمود ، ويفضى به إلى حيز العدم بعد الوجود ،

(ا) فى د : المحابر . — (ب) فى د : فيجنى . — (ج) فى د : واقطع . — (د) فى ك : عليه .

فقلت إن الأمر الذى حثه هذا الحث وسامه هذا الورود لأمر نستعيذ بالله من شره ، فتكشفت له إلى شاطىء الفرات ، فاذا هو قد استتبع من كل فرقة رسولا ، وعبأ كلاما معسولا يعدل به عن القصد الذى قصده فى كون الارتياب لقطع شىء من جملة المحمول هو السبب الذى أورده ؛ فقال : إنه قد جرى من هذا الأمر ما يضعف القوى ويفصم العرى ، وجئتك سائلا أن تزيدنا بما يحصل لنا مخرجا من الأمر فأنا خليفة السلطان ، وسعى من كل جهة تلحظ ما يتقرر ، ولسان يؤدى خبر ما يتحرر(ا) ، فكن إما رجلا يعطينا مائتى ألف دينار لا أقل منها تسد بها فوهة هذا السبيل ، أو لا ، فنلقى حبلنا على غاربنا ليسعى كل منا فى شغله ويدير تدبير أمره . فسمعت كلام المسرف المشتط الذى يؤثر أن يدحضنى مداحض التخبيط ويسد(ب) فى وجهى مذاهب الرأى والبصيرة ويجعل لسانى فى عقلة بين عهدتى لا ونعم ، فأجبته إجابة بديهة لا روية فقلت : كلامكم هذا كلام من يبتغى حجة ، ويحاول تعلة ، وتظنون أنكم أخذتمونى فى مضيق لا مخلص منه ، وليس الأمر على ما تظنون ، فان نفسى بلطف الله قوية ، وأبواب الخلاص بين يدى مفتحة ، ومائتا ألف دينار التى تطلبونها فلم أطلع على معرفة الكيمياء فأخرج ما تلتمسونه إليكم ، فان على كل يد رد ما أخذت ، والمحمول إلى يقترن به كتاب يدل على مبلغه ، فاذا أخرجت الكتاب وعرضته عليكم لن تبقى علىّ حجة بعده ، فاما إلقاء الحبال على غاربكم «فولّ حارّها من تولى قارها» كذلك يلقى حبله على غاربه من صارت أموال السلطان خلد الله ملكه إليه ، وجرى الأمر فى صلاحها وفسادها على يديه ، فهو أحق وأولى أن يلى تدبير أمره من غيره ، وليس على المسالك والمنافذ من جهتى أقفال ولا دروب(ج) فتحاول منى أن أفسح لهم فى المذاهب وأتخلى عن المسارح والمسارب .

فلما رأوا جنة الحجة عندى حصينة ، والفكرة بما ألقوه من حبالهم وعصيهم قليلة ، رجعوا على أدراجهم ، ونكصوا على أعقابهم ، ولم يحصلوا من ربح التجارة من صدورهم وورودهم على غير وقوع الشناعة بهرب أبى الحارث من عسكره ليلا ، وازدياد التركمانى به قوة وحولا ، بعد أن كان يمارس قلا وذلا ، فجعل يضايقهم منزلا منزلا . ويدنو منهم يوما فيوما ، تجره من ناحيته أفانين من الخديعة والمكر ، ومن صوب عسكرنا أرسان الخيانة والغدر ، وكانوا بالنسبة إلى القوم الذين هم فى حيزنا الفائضة عليهم سجال أموالنا كالجزء

(ا) فى د : خير ما يتحور . — (ب) فى د : يسر .
(ج) فى ك : والمنافذ اقفال من جهتى ولا دروب .

الذى لا يتجزأ قلة ، وكانوا هم بعدد الدَّبى كثرة ، لولا أنهم بيوت من الجسوم خاوية ومن النحيزة(ا) خالية ، يأخذون على الدفاع عن حريمهم وأسوالهم أجرا ، ويعطون مكان الوفاء غدرا ، ويسكنون فى مساكن الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، فلم تزل كل فرقة من أصحابنا ومن التركمانية تضايق أختها حتى دنا أن يتواخذوا باللحى والحلاقيم .

وكانت العيون شاخصة إلى مال محمول من الباب الطاهر إلى حلب على أن يصل إليهم ويتوزعونه فما بينهم ، فيجعلونه مركبا للمناجزة ويعبون معه صفوف المنابزة والمقارعة،فلما وصل إلى ابن صالح المال سلمه إلى أخيه المسمى عطيه[1] ليوصله منى إلى حيث ينساق إليهم ، ويستطلق مغلول يد أبى الحارث بحصوله لديهم ، فغدر عطية به وزواه إلى بعض حصونه ، وقطع اللقمة فيه عن حلقومهم ، ولو وصل إليهم لكانت التركمانية فى أفواههم لقمة ، ولكان يكشف الله تعالى فى أسرهم غمة عن الخلق أجمعين وظلمة ، فحين أتانى الخبر بذلك رأيت وجه نهارى أغبر أقتم ، ولسان فكرى وبصيرتى وتدبير حالى أخرس أعجم ، بحصولى فى «ظل ذى ثلاث شعب لاظليل ولايغنى من اللهب» [2] من مجاورة التركمانى على علمى بانبساط يده إذا سمع بانقباض يد المال ، وارتتاج باب حلب فى وجهى وكانت وجهتى إذا جرى مايؤدى إلى الاجفال ، وكون السلوك فى برية دمشق مع حر الهجير وعدم الماء ومنبت الحبال إن أردت الهمان فى واديها على تصارد(ب) الأحوال وآثرت المنية فى معاطشها على موتة بأيدى التركمانية محفوفة بالانكال ، ثم أننى مددت فى الصبر وا لتماسك نفسا وقيدت نفسى تعليلا لها بلعل وعسى ، فصادفت وجوه الصبر ناضرة ، وعين التوفيق بتعلقى بعلائقه ناظرة ؛ وطال أمد مقام الفريقين من عسكرنا وعسكر التركمانية أحدهما [لا يلقى](ج) الآخر ، والمسافة بينهما [دون يوم كأنهما بحران جعل الله بينهما] (د)حاجزا من الذل ، فهذا جامد مع الكثر وذلك جامد على القل ، ولما رأيت بواعث النحائز بينهما لا تنبعث والغصة فى الحلق من الدست لا تبتلع ، كتبت إلى وزير التركمانى المعروف بالكندرى ما هذه نسخته :

(ا) فى د : الخير . — (ب) فى د : تصاريف . — (ج) فى د : يلقى . — (د) سقطت فى د .

---

(١) أبو ذوابة عطية بن صالح بن مرداس وهو الذى أوصى إليه أخوه ثمال بن صالح بحلب فى ذى القعدة سنة ٤٥٤ هـ . ولكن انتزعها منه ابن أخيه محمود بن شبل الدولة نصر بن صالح وسار عطية إلى الرقة فملكها ولم يزل بها حتى أخذها منه شرف الدولة مسلم بن قريش سنة ٤٦٣ هـ وغزا عطية الروم فمات بالقسطنطينية سنة ٤٦٥ هـ .

(٢) سورة المرسلات آية ٣٠ ، ٣١ .

كتاب المؤيد الى الكندرى :

يعلم(ا) سيدى الأجل عميد الملك أننى كنت خاطبت حضرته بكتاب وهو يومئذ مقيم بالرى خاطباً لمودته ، وطالباً لاتشاج الحال بينى وبينه لما كان يبلغنى من محاسن أوصافه ، وجميل خلاله وخصاله ، ولأن يكون التعارف بيننا سلماً إلى التعارف بين سلاطيننا خلد الله ملكهم وتأكد سبب المودة بينهم انتهاء منا إلى ما قال الله سبحانه «لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقةأو معروف أو إصلاح بين الناس»(١). واتفق من الأمر سبق ابن المسلمة إلى باطله حتى عمل سحره ونفذ كيده وحصل الركاب العالى ببغداد وانبثت الكتب يميناً وشمالا بكون قصده لقضاء حق الخليفة والسلام عليه والتبليغ بعده إلى مصر، فحين استمر جرى هذا الكلام فى مسامع سلطاننا خلد الله ملكه ووزيرنا أدام الله أيامه ضاقت صدورهما من سماع هذا القول الجافى من غير داعية إليه ، وكثر العجب من السيد على ما قرأه من السير وعرفه من أنباء الأمر أن يكون العباسى عنده خليفة الله ، فان أباه الذى أجلسه من أجلسه خليفة الله كان الذى بوأه هذا المكان ومهد له هو تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . ومتى كان العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه خليفة حتى يكون أولاده خلفاء ، وإن صلح أن يكون أحد خليفة صلح أن يكون من استخلف النبى صلى الله عليه وسلم أباه عليه السلام [وأنزله منزلة هرون من موسى](ب) بقوله «على منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لانبى بعدى» هو الخليفة ، وهذا اجماع من المسلمين كلهم يؤكده قول الله تعالى فى كتابه «وإذ قال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى وأصلح»(٢) ولم تعتقد فرقة من فرق الاسلام أن العباس خليفة أصلا ، وسوى هذا فانه على عدم الخلافة عادم لصدق القول وصدق اليمين وحسن الوفاء إذ كان فى رقابهم لمحمود بن سبكتكين من العهود والايمان ما ضيعوه فى أولاده ولم يفوا به ، ومالوا عليه وعليهم(٣) وبالأمس نقضوا العهود

(ا) فى د : اعلم يا سيدى . — (ب) سقطت فى د .

(١) سورة النساء آية ١١٤ . — (٢) سورة الأعراف آية ١٤٢ .

(٣) السلطان يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين ابن الأمير ناصر الدولة أبى منصور صاحب خراسان وغزنة ، وفاتح عدة بلاد من الهند وغيرها واتسعت مملكته وكثر ماله ، توفى سنة ٤٢٢ وتولى بعده ابنه مسعود بن محمود الذى سار نهج أبيه فى الفتوحات فى الهند وتوفى سنة ٤٣٣ . والذى يقصده المؤيد هنا أن محمود بن سبكتكين لما غزا ما وراء النهر وجد زعيم السلجوقيين ذا شوكة وعدة يتصرف فى أمره على المخادعة والمراوغة فاستجاب له بعض السلجوقيين وفر منه آخرون وما زال =

والأيمان مع بنى بويه الذين كانوا نزلاء دارهم ومتقلبين على إحسانهم (١) فالأمانة معدومة عندهم كعدم الخلافة ؛ فأما الذى يتبرج بزينة العصبية لهم فانما يكتسى كسوة العار ، وهو كما قال الله سبحانه حكاية عن قول إبراهيم عليه السلام لأبيه «يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً» (٢) ومعلوم للسيد أن ورودهم بغداد اغتراراً بقول ابن المسلمة كان إثمه أكبر من نفعه ، ومفسدته أوفر من مصلحته ، من حيث أن السلطان ملك من شط جيحون إلى العراق موضعاً فلم يوكس جاهه ولم يدخل عليه معرة إلا فى هذا الأمر ، فانه بطل ناموس ملكه من الدرهم ثلثاه : فالثلث بوقوع الفتك على خيار عسكره بسنجار والثلث فى توجه مثله بنفسه على عظم قدره طالباً الموصل واستينائه (ا) من مسافة سبعة أيام أربعة أشهر وزيادة لا يجد متقدماً ولا متأخراً ، وبقى فى الأمر الثلث وهو أن يصدم بنفسه على من هم (ب) بلقائه من خصومه ، فيكون مثله مثل الذى يتناول السم بالتجربة ، وقد قالت الحكماء التجربة خطر ، ولا يليق بمثل ذلك الملك العظيم أن يغرر بنفسه فى مثل هذا الأمر إلا أنه ليس يخلو من أحد وجهين إما أن يدفع فى صدره ومعناه مفهوم والله تعالى يكفيه ما يحاذره ويقى نفسه ويكره إليه ما هو بصدده من الاجتهاد فى غير موضعه ، وإما أن يكون له اليد وليس يكاد مع ذلك يحظى بطائل لأن سلطاننا خلد الله ملكه رجل علوى طويل اليد وطويل اللسان ولكونه ابن بنت رسول الله عليه السلام وولد على بن أبى طالب عليه السلام ولكونه حافظاً لمكة والمدينة حرسهما الله تعالى حرمى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والأب والأم العلويين والعلويات الذين يجمعهم ذلك المقام الشريف الذين يتصرف إليهم و إلى نفقاتهم فى كل سنة من خزائنه زيادة على مائتى ألف دينار والرجل الذى يمسك

(ا) فى د : واستاقه . — (ب) فى د : متهم يلقان .

= يحاربهم حتى توفى فقام ابنه مسعود فى مطاردتهم فسألوه الأمان وسألهم الطاعة ولكنهم سرعان ما عادوا إلى فسادهم فاضطر مسعود إلى تأديبهم وكان طغرلبك إذ ذاك فى بلاد ما وراء النهر وكاتب مسعودا للحاق به فاستدعاه فوفد على خراسان بجيش كبير فصار للسلجوقيين قوة استطاعت أن تملك البلاد من مسعود بعد ما أعطوه من العهود والمواثيق وما زالوا يستولون على البلاد حتى تم لهم الغلبة ولم يقم العباسيون بمساعدة مسعود بن محمود وفاء لعهده وعهد أبيه من قبل ، بل استقبل العباسيون طغرلبك وملكوه على بغداد نفسها .(راجع ابن الأثير — النجوم الزاهرة — ابن خلكان) .

(١) سبق أن ذكرنا كيف قبض على الملك الرحيم بن أبى كاليجار البويهى وكيف انتهت بذلك دولة البويهيين ، فالمؤيد هنا يذكر أن العباسيين لم يستطيعوا أيضاً أن يحموا البويهيين .

(٢) سورة مريم آية ٤٢ .

فريضة الحج الموجبة على الخلق من دثورها وبطلانها ، فلولا قيامه بماله وسيفه لكان طريق الحج منسداً(١) من جوانب البر كلها ، فهذه نصبة حاله ، وسوى هذا فانه الثامن من الملوك آبائه[١]، الوارث عنهم من الأموال والأسلحة والخزائن ما لا يحصره حد ولا يحصيه عد وليس يكاد بعد استفتاحه فى هذا الأمر وثقته من الله تعالى بالنصر يرده عن أن ينظم الطريق بالأموال والعساكر شئ إلى أن يبلغ الكتاب أجله ويقضى الله أمراً كان مفعولا ؛ ويتعين على السيد عميد الملك أن يتأمل هذه القصة بعين البصيرة ، ويعلم وضوح الحق فى مضمارها ، وأن يشير بقبض اليد عما لا يثمر شيئاً غير سخط الله وخراب البلاد وهلاك العباد وليقف الحال حيث بلغت . وإن كانت فى بغداد فائدة فهى التى حوتها أيديكم مما كانت مودعة فى دار العباسى فخفر الأمانة فيها ، وجعل إليكم سبيلها ، وما بقى غير الصداع والفساد فى الأرض ؛ وقد كاتبت حضرته بهذه الحروف لما وثقت به من دينه وفضله وحبه للصلاح والخير ليتوسط القصة على ما فيه مرضاة الله سبحانه ومصلحة عباده وكساد سوق الفتنة والامساك عن اتباع خطوات الشيطان ، وأنا أنتظر جوابها الذى يلوح منه نور الخير فيرجع باذن الله تعالى لبداءة الأمر ونسج المودة بين الأصحاب حرس الله أيامهم والأخذ فيها إلى سبيل الرشد والصواب بمنة الله وعونه إن شاء الله تعالى .

دسائس الكندرى :

وصادف وصول هذه المكاتبة أن الوزير المعروف بالكندرى كان يدس إلى القوم دسائس المكر ، وينصب لهم شرك الغرور ، بما يؤدى إلى تفريق الشمل وتعكيس الأسر ، ويضمن لواحد ولاية الموصل ، ولآخر ولاية البصرة وواسط ، فأصاب سهم مكره المقتل وضرب سيفه منهم المفصل ولعب بعقول القوم فعصفت بهم عاصفات التفريق والتمزيق . وأرعب أبو الحارث من كون العمدة عليه وأنهم هموا به ليأخذوه ، فركض برجله منصرفاً عنهم

---

(١) فى ك : مفسدا .

---

(١) نلاحظ هنا أن المؤيد ذكر أن المستنصر كان الثامن من الملوك آبائه أى أنه جعل أولهم عبيد الله المهدى الذى ظهر بالمغرب ، ولم يشأ المؤيد أن يذكر عدد المستنصر فى سلك الأئمة حتى لا يضطر إلى التحدث عن الأئمة المستورين الذين كانوا بعد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وبناء على عقيدة طائفة البهرة يكون المستنصر الثامن عشر من الأئمة والثامن من الخلفاء الفاطميين .

ومفارقاً لهم ، فلما قطع حبله من حبالهم دفع فى صدر ما كانوا عليه شورطوا وعوقدوا ، فلم يحصل إلا على غدر وسموا به جبينهم ، وإيمان نقضوها بعد توكيدها ، وقد جعلوا الله عليهم كفيلا ، فخسروا دنياهم ودينهم ، وخلع ما كانت أفيضت عليهم وعلى أولادهم وحريمهم من الحضرة العلوية على الفور تعوضوا عنها خلع ربقة الوفاء من الأعناق ، فطوقوا طوق العار فى إضاعة الحرمة عقيب ما طوقوه فى تلك الأطواق ، ورجع أبو الحارث ومن معه إلى الرحبة(١) .

ووردت على كتب القوم المسخور من عقولهم باعتذار لكنه لسانه مقطوعة بنانه منهدة أركانه ، فأجبت عنها بما هذه نسخته .

كتاب المؤيد الى ابن مزيد فى تهجين صلحه مع طغرلبك :

نسخة جواب كتاب ابن مزيد : وصل كتابه مشتملا على ما سرنى من ذكر سلامته وعافيته ، وقرأته وارتحت لمعرفة مضمونه ، وسألت الله تعالى أن يشفع سلامة جسمه بسلامة

---

(١) ورد فى ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٤٨ : أن طغرلبك سار عن بغداد عاشر ذى القعدة ، ومعه خزائن السلاح والمنجنيقات ، فلما بلغوا (أوانا) نهبها العسكر ونهبوا عكبرا وغيرهما ، ووصل إلى تكريت فحصرها وبها صاحبها نصر بن على بن عيسى فنصب على القلعة علماً أسود وبذل مالا فقبله السلطان ورحل عنه إلى البوازيج ينتظر جمع العساكر ليسير إلى الموصل ، وأقام بالبوازيج إلى أن دخلت سنة ٤٤٩ فأتاه أخوه فى العساكر فسار بهم إلى الموصل ، وأقطع مدينة بلد لهزارسب بن بنكير ، وتوجه السلطان إلى نصيبين ، فقال له هزارسب : قد تمادت الأيام وأرى أن أختار من العسكر ألفى فارس أسير بهم إلى البرية فلعلى أنال من العرب غرضاً ، فأذن له فى ذلك ، فسار إليهم فلما قاربهم كمن لهم كمينين ، وتقدم إلى الحلل فلما رأوه قاتلوه ، فصبر لهم ساعة ثم انزاح بين أيديهم كالمنهزم فتبعوه فخرج عليه الكمينان فانهزمت العرب وكثر فيهم القتل والأسر ، وكان قد انضاف إليهم جماعة من بنى نمير أصحاب حران والرقة وتلك الأعمال وحمل الأسرى إلى السلطان ، فقتلهم إلا صبياً أمرد .

ولما ظفر هزارسب بالعرب وعاد إلى السلطان طغرلبك ، أرسل إليه نور الدولة بن مزيد وقريش بن بدران يسألونه أن يتوسط حالهما عند السلطان ويصلح أمرهما معه فسعى فى ذلك واستعطف السلطان عليهما ، فقال : أما هما فقد عفوت عنهما ، وأما البساسيرى فذنبه إلى الخليفة ، ونحن متبعون أمر الخليفة فيه ، فرحل البساسيرى عند ذلك إلى الرحبة وتبعه الأتراك البغداديون ومقبل بن المقلد وجماعة من عقيل ، وطلب دبيس وقريش أن يرسل طغرلبك إليهما أبا الفتح بن ورام ، فأرسله فعاد من عندهما وأخبر بطاعتهما وأنهما يطلعان أن يمضى هزارسب إليهما ليحلفهما ، فأمره السلطان بالمضى إليهما فسار واجتمع بهما ، وأشار عليهما بالحضور عند السلطان ، فخافا وامتنعا فأنفذ قريش أبا السداد هبة الله بن جعفر وانفذ دبيس ابنه بهاء الدولة منصوراً فأنزلها السلطان وأكرمهما وكتب لهما بأعمالها .

النفس والدين ، وأن يصون كريم عرضه من ضرب ألسن اللائمين ، ومضطرب طعن الطاعنين ، وهو فاعل ذلك(ا) برحمته ، وأما اعتذاره عما ذكر أنه أحدثته الأيام والليالى اقتصاراً على التلويح واضراباً عن الصريح ، فقد عرفته ، ولم تزل الأيام والليالى سريعة اليد لعمرى فى فعل الجنايات ، خفيفة (ب) فى إتيان المعضلات ، ولا كهذه التى توجهت نحوها الاشارة ، وذلك أن رجلا هو من العرب اليوم شيخها وعينها الناظرة ويدها الباسطة وبيته منها أجل البيوت وغرسه فيها أزكى الغراس ، وله فى ولاء أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم (ج) قدم صدق وراثة ورثها أباً عن جد وكابراً عن كابر ، فصدور الجاهلين منهم لاشتهار ولائهم موغرة ، وقسى المعاندة نحوهم موترة ، وهم مع ذلك لايتوجهون غير وجهته ، ولا يصلون إلا إلى كعبته ، ويتمنون طول زمانهم راية علوية تقوم ليكونوا طلعة على رأسها ، وحرباً لها مع أعدائها تقع ليصبحوا جمرة لمراسها ، وبينما هم كذلك إذ انخرم عليهم سد (د) يأجوج ومأجوج فرأوهم من كل حدب ينسلون ، سباعاً فى صور البشر لا يحرمون ما حرم الله ولا ما حلله يحللون ، يسبون الحريم والرجال يقتلون ، يؤتمون الأولاد والأمهات ينكلون ، حتى إذا دهمهم من هذا الأمر ما لا يطيقون ، واستووا على خيل الهرب يركضون ، لا يدرون أين يقوسون ولا أين يقعون ، هتف بهم هاتف من البيت[1] الذى لم يزالوا لأهله يوالون ، فقال : امكثوا «إنى آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون»[2] فسكن رجيفهم وأمن خوفهم وواساهم من فضل الله تعالى ما أفاء الله عليه ، وقال افتح باب الاطلاق والانفاق واجمع الأيدى معكم حتى أوردكم إلى معادكم ، وما أترفتم فيه من مساكنكم وبلادكم ، فان أمكن الله تعالى من ذلك فمعاهدكم أولى ودياركم آنس بكم ، وإن قصرت يد القدرة دونه مهدت لكم من جنابى مكاناً ، وعوضتكم عن دار داراً ، وعن جيران جيراناً ، فلم تزل سحاب كفه يهمى بالنيل ، ويجود بالانفاق والبذل ، حتى أتى الناس من كل طريق ، واجتمعت الجموع حيال العدو من كل فج عميق ، وكادت الريح تهوى به من مكان سحيق ، فحين رأى الشيخ المقدم ذكره أنه قد قام بهذا الجمع العظم عموده ، وتوثقت عقوده ، وتندى بعد الجفاف عوده ، لم يرع (ه) لمن أنشره من قبر الاضاعة حرمة ، ولم يرقب فيه إلا ولا ذمة ، ونكث أمانة

(ا) فى ك : لذلك . — (ب) فى د : حقيقة . — (ج) فى د : هم قدم .
(د) فى د : فانخرم سد . — (ه) فى د : يدع .

---

(١) المؤيد هنا يقصد نفسه . — (٢) سورة النمل ٢٧/٧

عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ، وجعل المنفق عليه من عظيم المال والمجموع من جموع الرجال سلماً إلى مسالمة عدوه ، ومفاسدة المنعم عليه وليه ولى الله وابن نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقبحاً لزمان تنزع يده لباس الفضائل عن الأفاضل ، وتسم نواصيها (ا) بأقبح رذائل الأراذل ، والله لقد غمنى فى سيدنا أن تكون هذه الأفعال عن مثله تصدر ، وهذه الأخبار عنه تؤثر وتنتشر ، أيستحق من شملك بر افتقاده بالأمس القريب فى نفسك وأولادك وحرمك وحواشيك يا شيخ العرب أن تجازيه هذا الجزاء ، ولو أنه من بنى يزيد بن معاوية الذين تبرأ منهم فضلا عن بنى على عليه السلام الذين تتوالاهم ، فما عذرك عند(ب) رب العالمين ؟ وما احتجاجك عند المخلوقين ؟ لا سيما وأنا مفكر فى أمر الثروة والألوية والمنحرفات القريبة العهد يحملها إليك أيكون زينة لك أم هجنة ؛ إنها إذا كان لها قياماً عندك كانت على سكوتها أبلغ خاطب فى مذمة من يهدى له مثلها فيكون الغدر جزاؤه ، فان طويت فى مطاوى الخفاء أنفة من هذا القول واحتقرت كان معلوماً أن الاحتقار لها يصح ممن يملك يوماً مثلها وهو مالم يملكه ملوككم فضلا عنكم .

وأما رسالته بأن تقاعد العرب بهم وقلة انبعاثهم لمساعدته أخذت سيدنا إلى ما كرهه من هذا الأمر ، وأنه إذا نصبت نصبة جديدة تنافى هذه بانتداب أحد(ج) الأمراء أولاد أمير المؤمنين خلد الله ملكهم لها ، ونهوض وزيره حرس الله أيامه بفيض(د) الأموال والخزائن والرجال فيها ، كان هو أول مساعد على هذه الخدمة وقائم بأحكام الطاعة فقد عرفته ، ولقد كان الامساك عن هذه المعذرة معذرة ، والكف عن هذه المقالة فضيلة ، فليس(ه) تقاعد العرب به لو تقاعدوا مما كان يحتم عليه أن يتقنع(و) بهذا العار ، ويتعصب بهذا الشنار ، ويصده عن أن ينكفئ إلى باب سلطانه خلد الله ملكه كما انكفأ غيره . ومعلوم أن الذى يستكنف من الأمر لم يكن ابن ساعته ، وإنما كان رأياً مخمراً وشيئاً مقرراً ، وكلما برق للأجل المظفر منه بارق(ز) وكادت القصة معه تنفسر وتنقشر ، مدوا عليه من الخديعة ستراً وقدموا بين يديه بالباطل عذراً ، فلم يزل الأمر على ذلك مستمراً حتى أخذ بحق النضاج ، وانتهى إلى كشف الحجاب عن وجه الرتاج . وأما النصبة الجديدة ، التى يكون أحد أولاد أمير المؤمنين خلد الله ملكهم متوليها ووزيره أدام الله أيامه الناهض فيها ، فهى نصبة إن بسط لها واحد فى العمل بها لكانت قائمة بنفسها مغنية عن أن يكدح كادح إلى المساعدة عليها

(ا) فى د : نواصيهم . — (ب) فى د : عذر . — (ج) سقطت فى د . — (د) فى د : بقبض .
(ه) سقطت فى د . — (و) فى د : يقع . — (ز) فى ك : بارق كذاب .

فمعلوم أن الامام المعز لدين الله قدس الله روحه لما سار من القيروان إلى مصر كانت معه عدة جمال[1] — استحى من ذكرها — مثقلة بأكياس المال التى فرغت ، وإن كانت لهم حركة فيه تكون على مثل هذا السبيل أو بعضها أو لا فلا حركة . وما خفى على من أول يوم أن هذا الأسر يقف وأنه على ما قال القائل «يد شلاء وبيعة لم تتم[2]» فانى رأيت فى التمريث للأسر والتمريض ما علمت السبب فيه ، وخبرنى أيضاً المخبر به ، ودارت بينى وبينه نوب فى معناه ، وقلت إن السلطان يكون من يتدبر بغداد ويلى الأتراك والأجناد الذين هم سكان المدر دون الوبر ، ولو كان جرت عادة بملك أصحاب الوبر لأصحاب المدر لما غيرت ولا بدلت ، ومع هذا كله فليس على المنعم فى حكم من الأحكام إذا أنعم على هذا بدرهم وعلى ذلك بعشرة أن يكون صاحب الدرهم كافراً لمن أنعم على غيره بأضعاف ما أنعم به عليه ، ولو جاز هذا لكان هذا يسقط عن جمهور الناس فريضة شكر نعم رب العالمين سبحانه إذ لم يجعلهم كلهم ملوكا بل فضل بعضهم على بعض فى الرزق تفضيلا ، وما رحل القوم عن الرحبة إلا بنيات فاسدة ، ونفوس متباغضة متحاسدة ، ولبثت فيهم ما لبثت أرى كلا منهم يتخذ لنفسه سبيلا ، وأتوقع قبيح ما هم عليه بكرة وأصيلا ، وما ساروا لما ساروا إلا متعثرين فى أذيال الفتور ، ومحدثين أنفسهم(ا) بالعدول إلى جانب الخابور ، ثم اعترضت لهم التركمانية فلزمت ملازمها وساق الله إليهم من النصر فضيلة كانوا عنها(ب) مبكين ، وعن النفوذ(ج) فى صوابها مجنبين وقلدوا المنة بها جيد من ألف شملهم بماله ليعودوا إلى أوطانهم فتقلدوها(د) والمنة له عليهم واعتدوا بها حسنة والاحسان منه إليهم ؛ ثم انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه بعد طول الخبط وامتداد الشوط والله تعالى يخير للدولة العلوية ويجريها على حسن عوائده ويضاعف حظها

(ا) فى د : ومحدثاً نفسه . — (ب) فى د : عليها . — (ج) فى : النفور . — (د) فى د : فتقلدها .

---

(١) سير المعز إلى مصر مع جوهر الفا ومائتى صندوق من الأموال على الجمال ، وجندا يربو عدده على مائة ألف [ابن خلكان ج ١ ص ١١٩] . وفى اتعاظ الحنفا نقلا عن ابن زولاق أن أبا جعفر العلوى سئل عن مقدار عسكر جوهر فقال : مثل جمع عرفات كثرة وعدة ويذكر المؤرخون أن المعز خرج إلى مصر ومعه الأموال والذخائر والكتب وجثث آبائه وأهل بيته وكان ذلك محمولا على عدد كبير من الجمال والعشاريات .

(٢) فى كتاب الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ص ٥٢ (طبعة المكتبة المصرية سنة ١٣٢٥ هـ) أن علياً أقبل إلى المسجد وكان أول من صعد المنبر طلحة فبايعه بيده وكانت أصابعه شلاء فتطير منها على فقال «ما أخلقها أن تنكث ولكن مؤرخى الاسماعيلية رووا أن علياً قال : يد شلاء وبيعة لا تتم» .

من سنى نعمه وفوائده ، فوالله ما توخت(ا) إلا إجارة المستجيرين لمراحمها ، ولا طالت بالبذل يد أنعامها ومكارمها إلاقصراً(ب) ليد طالت إلى دماء المسلمين وحريمهم أن تفجعها ببراجمها ، ولو كان ملك العراق قصدها لكان ورده موروداً ببعض هذه الأموال فى زمان اختصاصى بخدمة الملك أبى كاليجار ، وكونى معه مستقيم الحال وبعد طول هذه النوبة من محاورة(ج) سيدنا فلابد من كلمة أخرى أتكلم بها وأتفهم بها ما عنده فيها ، هذا الصلح المبارك المستقر بينه وبين التركمانى ليس يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون مقامهم ببغداد فيكونون ردءاً له ، فليقر عيناً بطيب العيش فى جوار خير حمى وخير عشيرة ، وليعلم أنه انتقد الرأى فى احتمائه بهم انتقاد بصير ، وإما أن يخلو الدار منهم فعليها من أبى الحارث والعسكر البغدادى رقيب صقر على فريسته يحلق ؛ ولأنيابه ومخالبه عما قليل يعلق ، بحول الله وقوته إن شاء الله تعالى .

كتاب آخر الى ابن مزيد :

وكتبت إلى ابن مزيد بعد الفراغ من كتب الكتاب ، أوقفنى صاحبه على كتاب حضرته إليه ، وفى آخره فصل يذكرنى فيه(د) ، وأما صدر الكتاب فقد دل على أن الضرورة دعته إلى ما فعله بحصوله بين ظهرانى عشيرة عنها الرأى عازب ، وعليها الخوف غالب ، إن تخفف تثاقلوا ، وإن تقدم تأخروا ، وأن شاهده بهذا القول جابر بن ناشب ، وهو حاضر فيسأل عنه إنه لا يأبى الشهادة وأنه كان المشير بفعل ما فعل أيضاً ، فكلامه فى هذا الباب كلام يجيب عن نفسه ولا يحوج إلى معبر يعبر عنه ، فقد كان ذلك المقام كما قال الله تعالى ، «ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود»(١) ما غاب عنه البدوى والحضرى والملى والذمى فى مائة ألف أو يزيدون كلهم على كلمة سواء أن خميرة القدر هى التى قادت العدو بمقادة الاسترسال إلى العبور والاناخة بفناء عظم ذلك الجمهور ؛ وأنه لو ترك بعد ذلك حتى تعصف بهم رياحهم لأصبحوا شعاعاً بدداً ، ولما كانت تقوم لهم قائمة أبداً ، وخبر الاجماع لا يبطله خبر الآحاد ؛ فأما جابر بن ناشب فممتنع أن يكون أشار بشئ وعمل هو بضده ، وما معنى مفارقته لكم إن كان مصوباً لفعلكم ، وأما ما تقدم به إلى صاحبه أن يقول لى اسمع كلامى

(ا) فى د : توجب . — (ب) فى د : قصداً . — (ج) فى د : مجاورة . — (د) سقطت فى د .

(١) سورة هود آية ١٠٣ .

وأجب عنه جواب منصف ، وقوله بعد ذلك الله تعالى يعلم صدق ولايتى ومحبتى ومخالصتى واعتقادى باطنا وظاهراً قديما وحديثاً فقد عرفته ، وأنا أجيب عنه جواب المنصف على ما مثله فأقول : إذا كان هذا فعله مع أوليائه فما الذى ادخره لأعدائه ؛ وأما قوله إنه قصد الرحبة مع هذا الاعتقاد يرجو نيل كل طلبته فلم يحظ بطائل ، وان ابن عمه أقام بمصر المدة المعلومة فعاد بلا درهم(ا) ، وأن اليمين التى حلف بها ما كانت معلقة بشروط القيام بنصرته ومساعدة عشيرته ، فالجواب أنه بسلامته ماثنى وجهه من تكريت(ب)[1] إلى الرحبة إلا وهو لا يعقل من الفرح إذ كان صاحب التركمانى قد لزه إلى تسليم الرهينة بالتزام المال ، فلما ورد عليه كتابى وكتاب الأجل المظفر ما ظنه إلا صحيفة من السماء نزلت عليه فقام يركض على خيل الاسراب ، ولم يفارق الموضع إلا بموافقة علم الدين على أن يحفظ الأعز منهما الأذل والأقوى الأضعف ، وقام دليل ذلك بسنجار بعد الفتح ، فلما ورد الرحبة ووجد حظ غيره أرجح من حظه أخذته العزة وتداخلته الأنفة فجعل يعكسنى ويجرى على الشوك والشجر نحو أربعين يوما ، ويردد القول فى معنى تشريفه ترديد بنى اسرائيل فى شأن البقرة ، حتى انتهى إلى مثل قول الله تعالى «فذبحوها وما كادوا يفعلون»[2] وأنا أعلم العلة فيه ، وأما اليمين فقد كنت أسامحه بها تبرعاً فأبى الله إلا(ج) أن يطوقه أطواقها ، ويسمه بسمة الحنث والنكث فيها ، وأما احتجاجه بكونها متعلقة بشروط النصرة والمساعدة فهبنى سلمت القول له ، هل يكون فى المساعدة أكثر من خمسين ألف دينار قد أخذها وكان الملك أبو كاليجار حمل مع ابن مرشد وأبى البقاء لامتلاك بغداد مثل هذا المبلغ ، إلا أنه كان شاهية ، فاذا كان هو وحده أخذ خمسين ألف دينار مساعدة له ولعشيرته على الرجوع إلى بلادهم ، فما الذى يطلبون بعده ؟ وأما النصرة فهل يكون فيها أبلغ من جمع(د) الأيدى التركية والعربية والكردية والأجناس المختلفة الذين جمعهم قبض الأموال حتى يردوه إلى بلاده فجعلهم سبيلا إلى إصلاح أمره ولم تنهه نواهى الغيرة على اسمه أن يقبح ذكره ؛ وأما ابن عمه فقد وصل إليه من فضل الدولة العلوية نصرها الله وأنعامها ما جحده وكفره وقابل عنه بما اشتهر عنه ، وكل يعمل على شاكلته ، وأما قوله إن الذى فعله توخى به المنع عن بلاد الشام وإنه خدمة حاضرة فما عندى إلا أن أقول أحسن الله جزاءك والسلام .

(ا) فى د : بلادهم . — (ب) فى د وك : — تكريب . (ج) سقطت فى ك . — (د) فى د : جميع .

---

(١) تكريت بين بغداد والموصل وهى إلى بغداد أقرب .
(٢) سورة البقرة آية ٧١ .

خطاب المؤيد الى ابن ورام فى نهجين موقفه [١] :

نسخة كتاب ابن ورام : وكنت كاتبته بذكر ما بلغنى من تواصل مكاتبات أخيه إليه يدليه بغرور ، يعده ويمنيه كما يعد ويمنى الشيطان بالزور(ا) ، ويضمن الاحسان إليه من موضع لا يصح منه الاحسان ، وأن نفسه تكاد تصبو إلى قوله ، وتسكن إلى وعده وبذله ، وعوذته بالله السميع العليم أن يصير على شيخوخته وحلبة الدهر أشطره مخدوعاً ، وأن يصادف قول الباطل فى نفسه وقوعاً ونجوعاً ، فأجاب عنه الجواب الذى كاد أن يليق به لو لم تكن خديعة ، وشفعه(ب) بالايمان التى لا يعتمد الكذب فيها إلا من قطع رحم الايمان قطيعة ، فسكنت إلى قوله سكون من ينزهه عن شين التحريف ، وأن يستفز الشيطان مثله من ذوى الحصافة بكيده الضعيف ، فبينما أنا جار على عادة حسن الثقة به ، والسكون إلى جهته إذ كشف التراب عنه دفين جيف الفعل بما غشى النفوس ، وأدار نتنه الرءوس ، وما(ج) اشتد على أننى كنت بصدد تمام أمر كنت أرجو تمامه فوقف ، وحبل كنت أوثقت إبرامه فانتكث ، كما اشتد على أن أمراء سادة أجلاء لم يزالوا مرسوقين بعين الوفاء والانسانية والمروءة ، قد انقلبت منهم فى هذا الأمر الأعيان ، ونقض الخبر عنهم العيان ، فوالله العظيم مالك يوم الدين أيها الأمير لو رجعت إليك بلدك وهى تنبت ذهباً لما وفت ببعض ما ذهب من مائك وبهائك ، ولا جددت رسماً مما خلق فى ديباجة وجهك ، إن اكتساب المرء باخافة السبيل وقتل النفس المحرمة(د) لأشبه بأحكام الرحلة من اكتساب المرء بالغدر بمن وفى له والاساءة إلى من أحسن إليه ونقض الايمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا لا سيما والمغدور به هو ابن فاطمة الزهراء الذى نعش صريعكم ، وأجار مستجيركم ، وقام فى العصبية معكم فيما يحميكم ويحمى المسلمين ، وينجى الكافة من عوادى القوم الظالمين ؛ ولقد كان الأولى بكم والأزين لكم أن لا تضيعوا له المصروف إلى صلاحكم وصلاح المسلمين إضاعة ، ولا تجعلوه لتنفيق كاسد سوق بضاعتكم لولاه بضاعة ، ولا تغلوا بغدركم بعد القتال فان أسفر عن النصر كان صلاحه لكم ، وتأخذون بعده ثواباً ، وإن وقف تيممون حمى كريماً له وجنابا ، وكنتم تتمهدون بها مهاد الأكرام ، وترتضعون درّ الاحسان والانعام ؛

(ا) سقطت فى د . — (ب) فى د : شفعته . — (ج) فى د : وأما . — (د) سقطت فى د .

---

(١) راجع هامش ١ ص ١٥٣ إذ يفهم من رواية ابن الأثير أن ابن ورام كان أسبق الأمراء إلى نقض عهده مع المؤيد والاستجابة إلى طغرلبك مما فت فى عضد غيره من الأمراء .

فأما وقد فعلتم ضد ذلك مما أغضبتم به (ا) أحسن الخالقين ، واستطلقتم بذمه (ب) ألسن المخلوقين فما يؤسنكم أن الذى بعتم من أجله الانسانية والدين والمروة يحال بينه وبينكم من إحدى جهتين : إما من جهة من واصلتموه ، وإما من جهة من فاصلتموه ، فتكونون لا فى حزب الشيطان (ج) ولا فى حزب الرحمن ، ولو لم يكن الأمر (د) مترجحاً بين هاتين المنزلتين لا ثالث لهما يعرف لكان حقيقاً لمن بغى عليه أن ينصره الله [وقبل وبعد] فقد كشف الزمان لسيدنا عن محبتى ومخالصتى ومناصحتى وشفقتى وأرى له من الرأى أن يأتى بما يغسل (ه) به عنه (و) هذا العار ، ويعمل بقول الله تعالى : «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار»(١) والسلام .

كتاب المؤيد الى قريش بن بدران فى أمر الهدنة :

نسخة كتاب إلى قريش: ووصل كتابه ناطقاً بذكر سلامته (ز) أدامها الله تعالى له ، ووفر أقسامها عنده ، وقرأته وأحطت علماً بمودعه ، وسألت الله جل اسمه أن يجعله ممنوحاً من فضله بحسن الزيادة ، مشمولا فى مساعيه ومناحيه بالسعادة ، وفهمته ، فأما ما ذكره من نفوذ كتابه مع الأمير شهاب الدولة إلىّ ، وقصور جوابه دونه ، فكتاب حضرته مقبول بكلتا اليدين ، محمول على الرأس والعين ، ومعلوم أنه ما أحد (ح) منى ولا ممن صاحبنى حرس الله أيامه ثانياً إلا (ط) وهو يحبه محبة الآباء للأولاد ، ويعتقد فيه ما لا يكون وراءه غاية من حسن الاعتقاد ، وما قعدت عن الاجابة عن كتابه إلا وأنا مترجح بين أن أكتب بصدق مر فى مذاق سمع السامعين ، أو كذب لا يليق لى أن أهيم فى واديه ، وأدهن مع المدهنين ، وإلا فقدره الأرفع الأجل ، وإلى بيته الكريم ينتهى الفخر والفضل ، وأما اعتذاره عن الضرورة التى خرقت ستر اجتهاده ، وصدت عن بلوغ مراده ، وأدت إلى الحالة التى أخرجتها المقادير عن أكمامها ، وقضت بنقض الرأى الأول فى إبرامها ، وإشارته إلى قصد مصلحته هى وراء الحجاب تنهج الأيام سبلها ، وتضع ذات حمل بكشف مطاويها حملها ، فقد عرفته ، وأقول ما قال الله عز وجل : «بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى

(ا) سقطت فى د . — (ب) فى ك : به . — (ج) فى د : لا فى حزب الرحمن ولا فى حزب الشيطان .
(د) فى د : إلا . — (ه) فى د : يتغسل . — (و) فى ك : به عنه دون هذا .
(ز) فى د : سلامه . — (ح) فى د : أخذ . — (ط) فى د : سقطت .

---

(١) سورة هود آية ١١٣ .

معاذيره»(١) وكل ما يعلم سيدنا قيام عذره فيه عند ربه سبحانه الذى هو أحسن الخالقين ، فلا حاجة به إلى المعذرة عنه إلى المخلوقين ، لاسيما إذا كان بشيراً بين يدى خير يتفتق نواره(ا) وتلمع عن كثب(ب) أنواره ، وهذه جملة الجواب [لوارد الكتاب(ج)] ، وأما شروعه فى تقدير أمر الهدنة بين الدولتين ، نصر الله الحق منهما ، مجتمعاً فيه مع سلطان ملوك العرب لكون ذلك منوطاً(د) إليهما ، ومعولا فيه عليهما ، وكون استقرارها مؤذناً برحيل السلطان من بغداد إلى دياره ، ووقوفها مؤدياً(ه) إلى ثبوته بمكانه واستقراره ، فقد عرفته ، ومن أولى منهما أن يشد(و) به مثل هذه الأمور العظام ويحزم ، ويبدأ بجميل سعيه الذكر الجميل ويختم ، وأنا أنتهى إلى محدوده فى انهاء ذلك إلى الباب الطاهر خلد الله ملكه وأعلامه ، ما يرد من جوابه على أننى وجدت لفظة الهدنة التى أشار إليها خرساء عمياء لا تؤدى معنى من المعانى ، وكان وجب أن أشعر بذكر هذه الهدنة المباركة كيف يكون وقوعها ، وعلى أى نصبة موضوعها ، وأين الخلف فى ألف ألف دينار فاضت فى هذه المحجة ، وغاصت فى هذه اللجة ، وأين موقع العسكر البغدادى الذين استجاروا بالدولة العلوية فأجيروا من الجملة ، وأين موقع أقدامهم من هذه الحلبة(ز) ، ومكان ثبوتهم من أسطر هذه الصحيفة ، وإذا تفضل وفصل(ح) لى الكلام فى هذا المعنى كان الانهاء طالعاً من آفاق البيان ، وواقعاً مع سمع السامع بموقع ومكان ، فان رأى أراه الله المحاب والأنعام بالمبادرة بالجواب الذى يزيدنى علماً ، ويلقح لى بفضل التعريف والتبيين فهماً ، وتصريفى على أمثلته المطاعة فعل ، إن شاء الله تعالى .

ولما أنفذت هذه الكتب لقيتهم فى بعض الطريق وهم راجعون ، وعلى خيل الهزيمة من التركمانية شادون ، والمحصول منهم على وجوه بالغدر مسودة ، وظنون فيما أملوه من التركمانية منعكسة وحاجات فى النفوس منكسرة(٢) ، ووقفوا على الكتب فأثابهم غماً بغم ، وجرعتهم

(ا) فى د : أنواره . — (ب) فى د : كتب — (ج) سقطت فى د . — (د) فى د : منعضاً .
(ه) فى د : مؤذنا . — (و) فى د : يسد . — (ز) فى د : الحيلة . — (ح) فى د : وفضل .

---

(١) سورة القيامة آية ١٤ و ١٥ .
(٢) جاء فى ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٤٨ أن هزارسب الذى أقطعه السلطان مدينة بلد أرسل إلى نور الدولة بن مزيد وإلى قريش بن بدران يعرفهما وصول ابراهيم نيال ويحذرهما منه ، فسارا من جبل سنجار إلى الرحبة فلم يلتفت البساسيرى إليهما فانحدر نور الدولة إلى بلده بالعراق ، وأقام قريش عند البساسيرى بالرحبة ومعه ابنه مسلم بن قريش .

قانعاً من سم ، وكتب إلينا بعض المنصحين يذكر أن قضية الحال تقتضى (ا) أن يسحبوا على ما فعلوا ذيلا ، ويحسنوا لهم قولا ، ويكاتبوهم بما يداوى ما وقع فيهم من جراح العذل ، ويوجه نحوهم من حسن القول ، فكتبته بما هذه نسخته .

كتاب المؤيد الى قريش بن بدران :

وكانت رسالته وردت على لسان فلان بما جعلنى بالحيرة مغموراً ، وأخرجنى فى صورة من كنى الله فى كتابه «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً»(١) لأننى كنت من تسع عشرة سنة أقيم عليه بالحضرة العلوية خلد الله ملكها سوق الثناء ، وأصفه صفة الأولياء الأوفياء ، حتى سقت الحال إلى أن فتحت إليه وإلى الجماعة هذه الخلجان ، وأخرجت من بحر كرم ذلك الجناب الطاهر اللؤلؤ والمرجان ، وبحسبه أنه لما ورد الخبر بما ورد على مشهد موسى بن جعفر عليهما السلام(٢) حملتنى حرقة القلب على نظم الأبيات ، على

(ا) فى د : سقطت .

---

(١) سورة الفرقان آية ٢٣ .

(٢) ورد فى ابن الأثير [حوادث سنة ٤٤٣] فى هذه السنة فى صفر تجددت الفتنة ببغداد بين السنة والشيعة ، وكان سبب هذه الفتنة أن أهل الكرخ شرعوا فى عمل باب السماكين ، وأهل القلائين فى عمل ما بقى من باب مسعود ، ففرغ أهل الكرخ وعملوا أبراجاً كتبوا عليها بالذهب «محمد وعلى خير البشر» وأنكر السنة ذلك وادعوا أن المكتوب «محمد وعلى خير البشر ، فمن رضى فقد شكر ومن أبى فقد كفر» وأنكر أهل الكرخ الزيادة وقالوا ما تجاوزنا ما جرت به عادتنا فيما نكتبه على مساجدنا ، فأرسل الخليفة القائم بأمر الله أبا تمام نقيب العباسيين وعدنان بن الرضى نقيب العلويين لكشف الحال وانهائه ، فكتبا بتصديق قول الكرخيين ، فأمر حينئذ الخليفة ونواب الرحيم بكف القتال ، فلم يقبلوا ، وانتدب ابن المذهب القاضى والزهيرى وغيرهما من الحنابلة أصحاب عبد الصمد بحمل العامة على الاغراق فى الفتنة ، فأمسك نواب الملك الرحيم عن كفهم غيظاً من رئيس الرؤساء — ابن المسلمة — لميله إلى الحنابلة ، ومنع أهل السنة من حمل الماء من دجلة إلى الكرخ ، وتشدد رئيس الرؤساء على الشيعة ، فمحوا «خير البشر» وكتبوا «عليهما السلام» فقالت السنة لا نرضى إلا أن يقلع الآجر الذى عليه محمد وعلى وأن لا يؤذن «حى على خير العمل» وامتنع الشيعة من ذلك ، ودام القتال إلى ثالث ربيع الأول وقتل فيه رجل هاشمى من السنة فحمله أهله على نعش وطافوا به فى الحربية وباب البصرة وسائر محال السنة واستنفروا الناس للأخذ بثأره ثم دفنوه عند أحمد بن حنبل وقد اجتمع معهم خلق كثير ، فلما رجعوا من دفنه قصدوا مشهد باب التبن فأغلق بابه فنقبوا فى سورها وهددوا البواب فخافهم وفتح الباب ، فدخلوا ونهبوا ما فى المشهد من قناديل ومحاريب ذهب وفضة وستور =

أنى لست بشاعر ولا متشاعر ، وفى جملتها ذكر الافتخار لعشيرته(ا)[١] فكانت هذه الكلمة تنشد فى قصور الخلافة ، وما قصدى بهذا القول إلا الابانة عن محبتى له من حيث الولاء والتشيع ، لا عن جميل كان(ب) له عندى فى الأول ، ولا ظننت(ج) أن سيجمع(د) الزمان بينى وبينه فى الآخر ، ولما وردت مع شهاب الدولة الرسالة المقدم ذكرها ألهبت النار فى أثوابى ، وكتبت إليه كتاباً نفثت فيه نفثة مصدور ، وأوردت ما أن جفى قوله منى كان أجفى(ه) فعله منه ، وكنت على إصدارى من فورى ، ثم حضرنى صاحبه وخرج لى من الأمر تأويلا أوقفنى على انتظاره ، وعلق قلبى بوقع إسفار نهاره ، وتوقفت عن إصدار الكتاب إلى هذه الغاية ، فلما طالت بعد ذلك المدة وبعدت دون وضوح ما انتظرته الشقة ، قلت كما قال المتنبى : «فليسعد النطق إن لم تسعد الحال[٢]» وأصدرت الكتاب معذرة إلى نفسى وشفاء لصدرى ولم يكن من الحسبان أن كتابى يلقاه فى الطريق ، وهو ثان وجهه عن الوجهة التى كان موليها ، ولو علمت لكنت أعتاض عنه بالأهل والمرحب ، وألقاه بوجه

(ا) فى د : بعشيرته . — (ب) سقطت فى ك . — (ج) فى د : بأميل .
(د) فى ك : سيجمع به الزمان . — (ه) فى د : ما أن أخفى قوله منى كان أخفى .

= وغير ذلك ، وأدركهم الليل فعادوا ، فلما كان الغد كثر الجمع فقصدوا المشهد وأحرقوا جميع الترب واحترق ضريح موسى الكاظم وضريح ابن ابنه محمد بن على الجواد والقبتان الساج اللتان عليهما ، واحترق ما يقابلهما و يجاورهما من قبور ملوك بنى بويه ، فلما كان الغد خامس الشهر عادوا وحفروا قبر موسى بن جعفر ومحمد بن على لينقلوهما إلى مقبرة أحمد بن حنبل فحال الهدم بينهم وبين معرفة القبر فجاء الحفر إلى جانبه ، ولما انتهى خبر إحراق المشهد إلى نور الدولة دبيس بن مزيد عظم عليه واشتد وبلغ منه كل مبلغ لأنه وأهل بيته وسائر أعماله كلهم شيعه ، فقطعت فى أعماله خطبة القائم بأمر الله فكوتب فى ذلك وعوتب ، فاعتذر بأن أهل ولايته شيعة واتفقوا على ذلك فلم يمكنه أن يشق عليهم كما أن الخليفة لم يمكنه كف السفهاء الذين فعلوا بالمشهد ما فعلوا وأعاد الخطبة إلى حالها .

(١) راجع القصيدة الثالثة والعشرين من «ديوان المؤيد داعى الدعاة» التى قيلت سنة ٤٤٣ بمناسبة نبش قبر موسى الكاظم ، والتى جاء فيها :

أآل المسيب ما زلتم عشير الولاء فنعم العشير
ويا آل عوف غيوث المحول ليوثا إذا كع ليث هصور

(٢) من قول المتنبى فى الأمير أبى شجاع فاتك الرومى المعروف بالمجنون وهو أحد موالى الأخشيد وأحد قواده ، وبعد استيلاء كافور على أمر البلاد انحاز فاتك إلى الفيوم ولما ورد المتنبى مصر استأذن المتنبى كافوراً فى أن يمدح أبا شجاع فأذن له فقال فيه لاميته المشهورة :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

المتحبب المتقرب ، ولكنت أقول كما قال(ا) الله تعالى فى(ب) نص الكتاب حكاية عمن نسبتى إليه نسبة التراب إلى السحاب : «لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»(١). وما سؤلى فى الدنيا إلا ما بدل الله تعالى به السيئات الحسنات ، وما طبقت الأرض بذكره من القبيح خيرات وصالحات ، فلقد كنت والله أغار على ذكره أن تركبه هجنة ، وعلى قول طالما قلته فى الثناء عليه أن تتخونه(ج) شبهة ؛ ولقد أتانى التبكيت من مجلس الوزارة فقيل ألست الذى كنت تشهد له دائماً(د) بكونه أوفى العرب ؛ وقد كاتبت(ه) حضرته مزيلا(و) عن قلبه الكريم ما اعترضه من الثقل بالكتاب الذى أحوجنى (ز) إليه حرج الصدر(ح) وضيق نطاق الصبر والفكر فى سعى سنتين انقطع منه الوتين لا أقول شج(ط) منه الجبين ، صادفته تعصف به العاصفات عصفاً ، وبيوت أموال وجدتها تنسف فى اليم نسفاً ، وحقيق بمن يكون هذا دأبه أن يتخرق وفى جلده يتمزق والسلام .

كتاب آخر إلى قريش :

ووصل جوابه فأجبته بما هذه نسخته : ووصل كتابه جواباً عن كتابى مشترطاً فيه الاضراب عن التقصى فى الجواب الذى عسى أن يورث نفوراً ، ومشفوعاً بما فسخ الشرط رجوعاً إلى ذكر أوائل المعرفة من حين نزولى بالرحبة(ى) و إلى هذا اليوم وتتبعاً للفصول أكثرها وإجابة عنها ، وقرأته وأحطت به علماً ؛ ومعلوم أننى لو أطلقت عنان القول لوجدت فى أرضه مراغم كثيراً وسعة ، ولكننى متصون عما يشغل سره ويضيق صدره ، ولولا أن الأمر فاض على قلبى فى الأول ، لما لذعته فى الكلام الذى كان حقاً فهو يعلمه ، و إن كان باطلا فهو يعلمه ، ومن عجائب صنع الله تعالى فى الانسان أن له باطناً وظاهراً وأنه لا يمكنه أن يكذب نفسه مادام الكلام فى سر نفسه ، فاذا انتهى إلى العبارة عنه بلسانه كان عنانا الصدق والكذب بيده ، إن شاء كذب و إن شاء صدق ، كقول الرجل أكلت وربما لم يأكل ، وعلى هذه النصبة فكل منا يعرف أنه محسن أو مسىء كما قال الله تعالى :

(ا) فى د : قول الله . — (ب) فى د : فى ظهر نص الكتاب . — (ج) فى ك : يتخوفه .
(د) سقطت فى د . — (ه) فى ك : كانت . — (و) فى د : متزيلا . — (ز) فى ك : أحوجنى .
(ح) فى ك : الصدور . — (ط) فى د : رشح . — (ى) فى د : بالجملة . وفى ك : بالحلة .

---

(١) سورة يوسف آية ٩٢ .

«بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره»(١) . فأما حالنا فى هذه النوبة فهى أجل وأوضح من أن تحتاج إلى برهان عليها ، فأموالنا هى التالفة ، ومساعينا هى الضائعة ، والأمر فى ذلك لا يعدو إحدى حالتين : إما أن يكون الذنب للمتبوعين أو التابعين ، فاذا كان المتبوعون يبرءون أنفسهم عن هذه الحالة(ا) ويعتذرون وأنا أحد(ب) من يقبل عذرهم ويصدق قولهم ، ثم أعدل باللائمة إلى التابعين ، وأقول إن تلك الأمة التى اختنقت بها البرارى ، وضاقت عنها الصحارى ، ورأت(ج) أن شرذمة قليلة يقلون عن عدد عيالهم وعبدان(د) حالهم لاطاقة لهم بهم على قلتهم ، وكثرة أولئك فهم مطلون فى نسائهم وحريمهم ليأخذوهن ، لخاروا وضعفوا ووهنوا ، حتى اضطر أمراؤهم إلى إلقاء السلام إليهم ، والاذعان لهم ، لأمة لاتساوى(ه) الماء الذى تشرب ، والطعام الذى تأكل ، وما هاهنا قسم ثالث ، فأنا على ما عهده سيدنا من محبته و إيثار الخير له والحرص على جميل ذكره وعلو قدره ؛ وحقيق على كرمه أن يتصور ذلك منى ولا يرتاب به ، ويعلم أن خشن الكلام منى لو صدر والعياذ بالله لكان أسلم من لينه [وخشنه من غيرى](و) ، فانى ما أرى للناس(ز) قاطبة إلا الخير والجميل فضلا عن مثله ممن قام فى دياره عماد التشيع والولاء(ح) ، وأصبح غصة فى حلوق المخالفين والأعداء ، والسلام .

رحيل المؤيد من الرحبة :

وفى خلال نفوذ الكتب فى عود الأجوبة . حصل القوم المكاتبون بفناء الرحبة وقلوبهم متشوقة إلى ما يرد عليهم من جهتنا فى معنى الحفاوة بهم ، و إظهار الرغبة فى مجاورتهم وقربهم ، فلم نر إلا أن نزور عنهم بطالعة الميل إليهم ، والحرص عليهم ذات اليمين ، كما قرضونا بغروبهم عن حسن الوفاء وحفظ الذمام ذات الشمال ، فلما يئسوا من إشارة بناننا إليهم بالتحية ، و إقبال وجوهنا عليهم بالبشر والأريحية ، مضوا على خيط الفرات منحدرين خائفين ، من كبسة إليهم حذرين ؛ وكان التركمانى بعد أن فل الجمع بجد مكره

(ا) فى د : الرذيلة . — (ب) فى د : أجد . — (ج) فى ك : رأيت . — (د) فى ك : عدان .
(ه) فى د : تتساوى . — (و) فى ك : من لينه من تحيرى .
(ز) فى د : فانى أرى الناس قاطبة إلى الخير . — (ح) فى د : الولى .

---

(١) سورة القيامة آية ١٤ .

لا يجد سيفه أصعد إلى ديار بكر ليعصر ابن مروان عصرة يستخلص بها دهنه ، فاتصلت كتبه ورسله يقول «أدركونى من قبل التمزيق وخلصونى من هذا المضيق» فأصعدت إلى تلقاء الرقة ، فاستدعيت ابن وثاب ووافقتـه على الاحتفال والاحتشاد ، وجمع العشيرة ليرحل أبو الحارث فى أتراكه وأعرابه وأكراده ويعبروا الفرات وتجمع الجموع لميقات يوم معلوم ، فى مكان معلوم ؛ وينفروا إلى التركمانى خفافاً وثقالا مستظهرين عليه بحول الله وقوته ومتكلين عليه اتكالا ، ولما تحرر هذا الأمر كاتبت ابن مروان بمشروح هذا التقرير ، وأبا الحارث فى معنى الحث على تقديم المسير ، فورد الكتاب على ابن مروان وقد علقت النار ذيله ، ونال منه الدعك(ا) نيله ، ولم يكن له جنان يصابره على الخسف ، والتوقع لأن يغسل عنه العار بالسيف ، فجعل يمسك رسلنا على تواليهم عنده ، ويعقد للسلم مع التركمانى عقده ، بأن يخرج كرائم ما يملكه أتاوة ، ولا يباشر من كريهة الحرب ما يجعل على بصره غشاوة ، وذلك دأب طلاب السلام وأصحاب الزاوية والعافية .

ثم أنى صعدت إلى حلب ولقيت دونها بثلاث رحلات عطية الذى ذكرت(ب) فعلته فى تخطف المال ، وتحيف ريش الرجال ، فى ساعة العسرة من يوم النزال،مترامياً علىّ ، ومتنصلا من ذنبه إلىّ ، فأجنيته(ج) من كلامى شهداً ، وجعلت له موعدى باستصلاح شأنه مع السلطان أعز الله نصره مهداً ، ولما كان ثانى يوم التقائى به صادفت أخاه ثمال بن صالح وقد حشد من حشود عشيرته الكلابية من كان استنهضهم(د) إلى حلة عطية ليحملها حملا ، ويلهب النار فيها فتكاً وقتلا ، فتناولته بلسان وعظ صادق موقعاً من قلبه منطقه ، ونهيته عما هم به نهياً كثر من الصلاح موقعه ، ودفعت عن حمى الفريقين دفعاً احتمت به حلب وأعمالها من الهلكات ، وأمنت من بغتات الأذى بمشيئة الله .

ولحق أبو الحارث على أثرى فنزل ببالس على رحلتين [من حلب إذ كان قد اتصل من الرحبة] (ه) على نصبة إجارة ابن مروان لما استجاره ، فلما قصر باع صبره دون انتظار المجير ، ونزل تحت حكم الجائر(و) لم يكن من أبى الحارث إلاأن ينكص على عقبيه من الرحبة ، فأصعد إلى بالس ومعه قريش بن بدران ونخبة وجوه بنى عقيل . فلما كان بعد أيام أتانى رسوله(ز) يظهر الرغبة فى لقائى ومشاهدتى ويذكر أنه لا قبل له أن يطأ موطأ هو لبعض البوادى من أبناء جنسه ، ويلتمس التكشف إليه ليجتمع بى ويفرشنى سر

(ا) الدعك : الخصم . — (ب) سقطت فى د . — (ج) فى د : فأجبته . — (د) فى د : استهضم .
(ه) فى ك : سقطت . — (و) فى د : الجابر . — (ز) فى ك : رسول .

نفسه ، فتوجهت لموضع يقال له دير حافر[١] فاجتمعنا فيه على خلوة ، وطال بيننا النجوى فما أضحك طوراً وطوراً أبكى ، ما بين تحشم (ا) له على فعله تارة ، وتمهيد لعذره مع الانابة تارة ، ورحلت عنه رحيل من بسط سعه فى التأنيس ذرعاً ، وزرع المحبة فى قلبه زرعاً ، وأعلقه علاقة من صفاء عقده ووفاء عهده وثيقة ، ورد مجاز التطوع منه طاعة حقيقة .

المؤيد فى حلب وعودتها الى أملاك الفاطميين :

وعدت إلى حلب وصادفت فيه ثمال بن صالح خمر خميرة أمر دونه برزخ من الخطار ، وأمام شريعة الصفو من شربه شرب الأقذار والأكدار ، وهو أن هذا الرجل لم يزل يتقلب فى بردة الخوف من السلطان — خلد الله ملكه — لبادرة أبيه من قبل ، وفعله فى الممانعة عن داره لما هجم عليها من بعد ، ولم يزل السلطان أيد الله نصره أيضاً يلتمسه على سبيل الادهان ، ويعد طاعته طاعة صادرة عن صدر العصيان ، ولما ندبت للوجه الذى كان محجته ومدرجته كان أول الحذر منه أن يفترس المال الذى يصحبنى بمخالبه وأنيابه ، وأول الوصية لى أن لا أنزل إلا فى كنف قوى (ب) من العسكر بجنابه ، فركبت الأبلق فى مخالفة الوصية ، والعمل بضدها من القضية ، وقد تقدم الشرح فيه ، فلما جمعنى و إياه الزمان وقد سبقت السوابق له من فعلى بالسكون إليه والتعويل عليه ، وعلم أن إيثارى أن أوضح للسلطان خلد الله ملكه من محض طاعته ملبساً ، وأن أضرب له فيما يؤمنه من سطوته طريقاً فى البحر يبسا ، وتجرد فى الخدمة سعى التجريد الذى رض أفواه من عنى عنه بسوء ، وكفى (ج) ورد ألسن المتوشقين عليه لكناً ، ولم تزل الأيام فى مجاورتى له وتوفره على خدمة السلطان — خلد الله ملكه — فى جهتى تبدله من خوفه أمنا ومن استيحاشه أنسا ، حتى انقلبت عينه واستأنس إلى مكان وحشته ، وأمن من خوفه وخشيته ، ولما اتفق عليه ماااتفق من خروج أخيه عليه وخيانته له فى المال الذى سلمه إليه ، وتقاعد عشيرته عنه لما أرادهم فى ساعة العسرة ، وتبرمه بالعسكر العراقى الذين جاوروه لما لقيه منهم من سوء العشرة ، دعته هذه

(ا) فى د : تجشم . — (ب) فى ك : قومى . — (ج) فى د : كنى .

---

(١) قرية بين حلب وبالس ذكرها أبو عبد الله محمد بن نصر فى شعره :

ألا كم ترامت بالس بمسافر   وكم حافر أدميت يا دير حافر

الدواعى كلها إلى أن يورث سلطانه خلد الله ملكه أرضه ودياره ، ويتفيأ ظلاله ويسكن جواره ، فكاتبه يستدعى شحنة يشحن بها قطر حلب ، ويقضى بها من تسليمها وتسليم قلعتها كل أرب ، ثم أنه لم يتشكل له كيف يبنى الأمر فى تسليمها(ا) وفى نفس المدينة قوم يسمون (الأحداث) هم لها أملك من مالكها وأكثر استيلاء عليها من واليها ، وبينهم وبين المغاربة من قديم الوقت إحن وطوائل لا تنام عينها ، ولا ينقضى دينها ، فجعل موضوع الأمر فى التسليم أن يعبر العسكر الوارد باسم النجدة للعسكر العراقى لئلا يظن أن له عقلة بحلب ، ثم أنهم إذا قربوا نهض إليهم بحجة الاشتمال على خلعة السلطان — خلد الله ملكه — المحمولة فى صحبتهم وأن يؤذن الأحداث بشد أسلحتهم عليهم والنفوذ فى خدمته إلى ظاهر البلد ، فاذا هم فعلوا ذلك جعل(ب) مرتباً على الأبواب من يغلقها فى وجوههم ، ويحول بينهم وبين الدخول إليها ، ولم يلبث إلا قليلا حتى بطل هذا الوصول ، وانخرق ستره وانكشف سره ، وصارت العامة أعرف بما يراد فعله من الخاصة ، وكلما أراد القوم الواردون تقرباً زادت الفتنة تلهباً ، فحين رأى الأمير الذى هو ابن صالح أن الماء طغى اعتصم بقلعته ، وتمنع بمنعته ، وتركنى وحيداً لا متلفت(ج) لوجهى إلى وزر آوى إلى حصنه ، ولا يمسكنى إلا من يمسك(د) السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه ، ودمى طافح فى الدماء ما يحجز عنه إلا ما يحجز عن قطرة ماء والقوم يوعدوننى بسفكه صباحاً ومساء ، وكل من الأمير وغيره يشير على بالهرب والنجاة من شرك العطب ، وأنا راسخ كالصخر ، متمسك بالصبر ، مكفل نفسى من هو بحياتها وموتها كفيل ، قائل إذا اشتد الخوف حسبنا الله ونعم الوكيل ، وانتهى الحال إلى أن بثثت فيهم رسلى يميناً وشمالا حتى أحضرتهم عندى ، وقلت : يا قوم إن كنتم تعرفوننى فقد عرفتمونى ، وإلا فاسألوا عنى ، إننى رجل منقطع العلائق من الدنيا وأحوالها إلا ما لابد منه فما يمسك الأجسام كما قال الله تعالى : «وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام»(١) . وما انتدبت فى هذه الوجهة التى كنت متوليها إلا سعياً فما ينفع المسلمين ويشد الاسلام ، واننى محقوق بشكركم خاصة ، وشكر المسلمين عامة ، ضد ما أنتم تفيضون فيه ، وتتهارجون وتمارجون من أجله ، فان كنتم خائفين من بادرة بدرت فانى أقول عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، وهذا أمان الله وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم وأمان الدولة العلوية مبذول لكم على أنفسكم(ه) وأموالكم وشعوركم وأبشاركم ونساءكم

(ا) فى د : سليمها . — (ب) سقطت فى د . — (ج) فى ك : ملتفت . — (د) فى ك : امسك .
(ه) فى د : نفوسكم .

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨ .

وولدانكم ، وإن كان بدوى وطأ لكم كنفاً من عدله وإحسانه ، فان الدولة العلوية أولى بهما وهى ولية العدل والاحسان ، والفضل والامتنان ، فتدبروا أموركم واعقلوا(ا) لنفوسكم ، واسلكوا سراشد قصدكم .

وجرى فى هذا الباب ما طالت نوبته وكثرت شعبه وفروعه وانشقت عن طمأنينة القلوب أرضه ، وهطلت بسكون سماؤه ، ودخل العسكر(١) المنصور والأبواب لهم مفتحة ، والصدور منهم منشرحة ، ووجوه البشر والبر لهم ملاقية ، وألسن التحية والسلام لها مناجية ؛ ولما كان ليلة دخولهم المدينة ، واختلاط الفريقين بعضهما(ب) ببعض ، والنفوس بفزع أحدهما من الآخر موتى ، وهم كما قال الله فى محكم كتابه «تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى»(٢) اتفق من الاتفاق وقوع نار فى المرقد الذى كان ابن صالح فيه ، فما تنبه الناس إلا وقد غلب سلطانها وعلا لسانها ، وسطع فى عنان السماء دخانها ، فلم تبق له ذخراً من قديم الوقت وحديثه مذخوراً إلا وأتت عليه ، فجعلته هباء منثوراً ، فما عهد من نزع من ملكه ومُملكه فى ليلة واحدة غيره ، وخفيت على الناس الذين غصت(ج) بهم المدينة القصة ووقعت فيهم الصيحة ، فكاد يقع السيف بالفتنة الصماء فى خلال تلك الليلة الليلاء ، فيكون كما قيل :

الليل داج والكباش تنتطح فمن نجا برأسه فقد ربح

فكان من لطف الله تعالى أن عقل أرجل الأحداث الحلبية بعقال العقل ، وشكل بشكلهم عن موارد الجهل ، وانثالوا علىّ فى نصف الليل يسألونى(د) عما يفعلون ، ليمضوا حيث يؤسرون ، فجزيتهم خيراً ، وأوصيتهم بضبط البلد وحفظ العسكرية ، فآووهم إلى نفوسهم وسكنوا روعة قلوبهم ، وقالوا نحن نقيكم بأموالنا وحريمنا ، وأصبح الصبح عن جناب بالأمن مشمول ، وبالخير مأهول(ه) ورعية مطمئنة قلوبهم مستقرة على مضاجع الهدوء والدعة جنوبهم .

(ا) فى د : واعلقوا . — (ب) فى د : بعضها . — (ج) فى ك : عفت .
(د) فى ك : يسألون . — (ه) فى د : مأمول .

---

(١) فى مرآة الزمان مجلد ٩٦ ص ٤٤ أن الجيوش المصرية بقيادة أبى علم بن ملهم الخويلدى دخلت حلب واستولت عليها من ثمال بن صالح سنة ٤٤٩ ه .
(٢) سورة الحشر آية ١٤ .

هذا أدام الله لى المسرة بطول بقائك وحراسة حوبائك [مشروح حالى لك] (ا)إلى هذا اليوم ملقم لأشداق المعضلات ، مشكل بشكل المشكلات ، مسخر بسخور منى إن أصبت لم أشكر وإن أخطأت لم أعذر ، وإن بلغت غرضاً لم أستفد من أجره جوهراً ولا عرضاً ، وإن نشبت بى فى أثناء هذه المزاهز أنياب المنية ، كان فيه للعاريات الكاسيات بلوغ الأمنية ، لاحجة لها فى ذلك إلا حسد الجهل للعلم والنقص للفضل ، وكل أمرئ لما قدمه من خير أو شر يلقى ، ولا رغبة إلا فيما عند الله خير وأبقى ، والسلام والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد المصطفى وعلى آله وعترته الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

دعاء عن النبى صلى الله عليه وآله علمه أمير المؤمنين عليه السلام وهو :

«يا عماد من لا عماد له ، ويا سند من لا سند له ، ويا حرز من لا حرز له ، ويا ذخر من لا ذخر له ، ويا غياث من لاغياث له»(١).

عصيان ابراهيم بن ينال على أخيه طغرلبك :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله مخرج العجائب فى مضمار الأقدار ، ومظهر مختلفات الأحوال من بين اختلاف الليل والنهار ، وجاعلها(ب) عبرة لأولى الأبصار ، وصلى الله على نبيه المصطفى المختار محمد المبعوث(ج) بالأعذار والانذار ، وعلى وصيه على الكرار ، قسيم الجنة والنار وعلى الأئمة من ذريته الأبرار الأطهار .

[أما بعد] فقد كنت علقت نبذاً من مجارى حالى ، منذ حططت بالباب الطاهر رحالى ، وإلى أن قفلت إلى ناحية العراق ، لمساطعة الشياطين التركمانية الفساق ، وسقت جملا مما قاسيت من مصاعب تلك الأمور وأوعارها ، وتوليته من حارها وقارها ، وما جرى فى ضمها من المكاتبات والمشافهات ، والمخاشنات والملاطفات ، حتى أتاح الله النصر على الظالمين ، وشفى صدور قوم مؤمنين ، فاننى بعد تمام سنة فما فوقها بالرحبة ، رجعت إلى حلب فوقعت فى خطة ، كادت النفس فيها تتلف ، وأننى ما زلت أتضرب فى

(ا) فى د : مشروح لى حالك . — (ب) فى د : جاعلهما . — (ج) فى د : المنعوت .

---

(١) ورد هذا الدعاء فى النسختين ، وأخشى أن يكون النساخ أضافوه هنا لأننا لا نجد فى كتب المؤيد التى بين أيدينا شيئاً من هذه الأدعية فى فصول كتبه ، كما أننا نجد على هامش مخطوطات البهرة أمثال هذه الأدعية مما يدل على أنها ليست فى متون الكتب بل من عمل النساخ .

مداواة دائها ، وملاقاة النائرة بحيلة اطفائها ، حتى سهل الله تعالى من ذلك عسيراً ، وكفى خطباً عظيما ، وأننى ملكت حلب مشفوعاً بامتلاك قلوب أهلها وانتظامهم فى سلك الولاء السليم من غش النفوس وغلها ، وفتحت أبواب حلب لابن ملهم رحمه الله وعسكره حتى دخلوها بالسلام آمنين ، وحصل الرجل على ذروة القلعة مالكا فى المالكين ، وكان ثمال بن صالح - رحمه الله - يومئذ ساكن القلعة شاداً لرحاله للنزول والتوجه إلى الباب الطاهر ، فلما كان بعد قطعة من الليل قيل إنه كان بين يديه شمعة فاشتعلت فى قطن منزوع عن بعض الرحال ، فانتشرت النار واشتعلت وقويت وأحاطت بالرحال المشدودة المحزومة فأكلتها كلها ، ولم يبق عليها للاطفاء سبيلا ، فجعلت تأكل ما حولها نحو ثلاثة أيام بلياليها ، حتى استوعبت رحالات ابن صالح كلها وكانت سلامته بنفسه الغنيمة الكبرى ، فنزل عن القلعة فقيراً بعد أن كان يملك ملكاً كبيراً بكثرة ماله وحسن حاله ، وسار عن حلب .

ولما كان بعد مسيره بمدة أرسل ابراهيم بن ينال التركمانى وهو أخو طغرلبك لأمه رسولا من الموصل إلى مستقر أبى الحارث البساسيرى وقريش بن بدران - رحمهما الله - وهما يومئذ فى موضع يسمى بالس - على مرحلتين من حلب - يبذل لهما الجميل عن أخيه وعنه ، ويرغبهما فى الدخول فى الطاعة ليوليهما الولاية الجليلة ، ويحسن إليهما الاحسان الكثير ، فكان هذا ظاهر رسالته ، وباطنها أن يخاطبانى على التوثق له بأن أسوق إليه ما يلتمسه من الحضرة النبوية من الأموال الجزيلة والخلع والألقاب والألوية حتى يبطش بطغرلبك البطش الشديد الذى يهد قوته ويطفئ نائرته ، فتصير جميع ممالكه فى قبضته وحوزته ويكون هو ملكها ، وعلى أن تكون الخطبة لنا بالخلافة والامامة مقدمة على خطبته .

فلما جاء هذا الرسول إلى مستقر البساسيرى وقريش بن بدران وقص عليهما(١) القصة ظاهراً وباطناً ، سيراه إلى مستقرى بحلب لأبرم فى بابه ما يجب إبرامه ، فدخل إلىّ بزى المتصوفة مشدود الرحل على عادتهم ، وهو رجل على طبع العامة ، فى كلامه خساسة وعامية كثيرة ، وسلم علىّ تسليمة الأكفاء ، وكان وقت الظهر ، وقال مالى نشطة للخطاب معك إلا بعد أن أجدد الطهارة وأقضى الصلاة المفروضة فقلت : ذلك خير وأبرك . ثم انه بلغ جميع رسالته وأفرغ ما فى كنانته ، فوجد منى حسن بشر وتلطف وتقبل ، ودخلت معه فى

---

(١) فى د : عليهم .

أسلوب الصوفية وأخرجت إليه من كلام المحققين منهم فصولا فرح بها وطابت نفسه ، ثم عاقدته عن الحضرة الطاهرة بالاجابة إلى سؤاله فى معنى المال والخلع والألقاب ، وأعطيته صفقتى بذلك ففرح بنجاح سعيه ، وكثر إلفه بى وسكونه إلىّ ، ولما همّ بالرجوع بعد مقامه عندى يويمات عرضت عليه نفقة غير زرية(ا) فأبى قبولها ، وكذلك فعل بالبساسيرى وقريش عند رجوعه إليهما ، وصدر عنهما إلى مستقر ابراهيم صاحبه وهو بالموصل ، وكان هذا الحديث بذر الزرع ، نسوق ذكره عند انتهائنا إليه باذن الله تعالى .

المؤيد فى طريقه الى مصر :

ثم أننى أقمت بحلب ما امتد لى شوط المقام وذلك لأننى كلما هممت بالمسير هم البساسيرى بأن يتبعنى بحشوده من العسكر البغدادى ، فقلت كيف أسوق هذا الشر كله إلى الباب الطاهر ، وأسوق حمل أثقالهم واحتمال سوء أخلاقهم وأفعالهم ، فجعلت أرابطهم وأقف سداً فى وجوههم ، حتى أتى الخبر بانفصال ابراهيم بن ينال عن الموصل ، وتركه بها شرذمة قليلة من الغز يحفظونها فانتهزت الفرصة وقلت للبساسيرى : قد آن لك أن ترجع إلى الرحبة وتتدبرها ، وتستعين على وقتك بارتفاعها ، ونحن بعد ذلك نسوق إليك كل سنة مالا كثيراً يكون إضافة إلى ما تستجلبه(ب) إلى الرحبة فتتسع(ج) يدك ولا تتناقص حالك ، وأنت يا قريش فقد حان لك أن ترجع إلى بلدك الموصل فانه كلحم على وضم ، والشرذمة التى بها فلا قبل لهم بالثبات فى وجهك ، لا سيما إذا شد منك البساسيرى . فلم أزل أروضهما بهذا الكلام حتى أقلعا وتوجها ، وتيسر لى أيضاً السبيل إلى العود نحو الباب الطاهر ، فسرت وسار معى رجل محتشم من الأتراك رسولا عن البساسيرى ، فلما حصلنا(د) بصور وجدنا كتيبة من الأتراك البغداديين سبقونا إليها مقاطعين للبساسيرى ومصممين على قصد مصر فى عدة تشتمل على مائة وثلاثين غلاماً[1] فرأيت من الرأى أن أدخل كل مدخل فى ردهم إلى حلب ليرتبطوا هناك ولا يصيروا كلا على الحضرة ، فلم أزل أداريهم وأتلطف لهم حتى رددتهم . وسرت من صور ، فلما حصلت فى موضع يسمى البواقير

(ا) فى د : رزية . — (ب) فى د : تخلى . — (ج) فى د : فتشفع . — (د) فى د : حصنا .

---

(١) ولكن الذى فى مرآة الزمان جـ ١٦ ص ٤٥ أن المؤيد قابلهم فى دمشق وأظن أن المؤيد أصدق فى روايته عن نفسه .

لقيني صاحب الترتيب هناك (ا) بسجل عليه ثلاثة ختوم ، فلما ناولنيه قبلته ووضعته على عيني ونزلت عن دابتي لأستقر في الأرض وأتأمل مضمونه تأملا شافياً ، إذ كانت الختوم الكثيرة أرعبتني ، وصورت في نفسي (ب) أن في مضمون السجل سراً غامضاً ، فلما فضضت الختوم وجدته يشتمل على ذكر عزل البابلي وتولية ابن المغربي (ج)(١) والتأكيد عليّ في النكوص على عقبي إلى حلب ، فملكني التحير والدهش من هذا الأمر ووجدت الرجوع إلى حلب ممتنعاً

(ا) في د : بعكا . — (ب) في د : سقطت .
(ج) في نسخة د و ك : ابن المعري والتصحيح عن كتب التاريخ .

---

(١) هو أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلي ولي الوزارة بعد اليازوري سنة ٤٥٠ وصرف عنها في ربيع الأول وقرر مكانه أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن الحسين المغربي (ابن ميسر ص ١٠ — ابن منجب ص ٤٦) .
وبنو المغربي أصلهم من البصرة وصاروا إلى بغداد وكان أبو الحسين علي بن محمد تخلف على ديوان المغرب ببغداد فنسب به إلى المغرب وولد ابنه الحسين بن علي ببغداد وتقلد أعمالا كثيرة وسار إلى الشام وهناك لقي الأخشيد ، ولما تم أمر مصر للأخشيد أرسل إلى بغداد يستدعي أبا الحسن علي بن الحسين المغربي فوفد ومن يليه على مصر ثم خرج وأهله منها الى حلب حيث خدموا سيف الدولة وسعد الدولة الحمدانيين ، ثم بدا له ما جعله يترك حلب إلى الرقة ، ثم كاتب العزيز بالله الفاطمي يستأذنه المسير إلى مصر فأذن له فقدم في جمادى الأولى سنة ٣٨١ ه ومات بمصر ، ولما ولي الحاكم بأمر الله اصطفى أبا القاسم حسين بن علي المغربي وجعله من جلسائه ولكن ابن المغربي خشي على نفسه نزوات الحاكم ففر إلى الشام وألب العرب على الحاكم ولكن تدبيره فشل فاضطر إلى الهروب إلى بغداد وهناك اتهم بافساد الدولة العباسية فسار إلى الموصل فخشي منه وزيرها فأخرجه إلى ديار بكر فأقام عند أميرها أبي نصر أحمد بن مروان الكردي ووزر له ثم عاد إلى بغداد وتقلد الوزارة بها سنة ٤١٥ فأقام شهوراً يغري رجال الدولة بعضهم ببعض فأدى ذلك إلى خروجه إلى الموصل فديار بكر ثم كوتب بالعودة إلى بغداد فوصل إليها ولكنه سم في الطريق سنة ٤١٨ وكان بمصر من بني المغربي أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المغربي وكان الحاكم قتل جده محمداً وأباه علي بن الحسين فلما نشأ أبو جعفر سار إلى العراق وخدم هناك ثم عاد إلى مصر واصطنعه الوزير اليازوري فولاه ديوان الجيش وكانت أم المستنصر تعنى به فلما مات اليازوري وولي أبو الفرج البابلي قبض عليه في جملة أصحاب اليازوري واعتقله وتقررت له الوزارة وهو في الاعتقال في الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٤٥٠ ه ولقب بالوزير الأجل الكامل الأوحد صفي أمير المؤمنين وخاصته فأقام سنتين وشهوراً في الوزارة وصرف في تاسع شهر رمضان سنة ٤٥٢ وكان الوزراء إذا صرفوا لم يتصرفوا فاقترح أبو الفرج ابن المغربي لما صرف أن يتولى بعض الدواوين فولي ديوان الانشاء وتوفي سنة ٤٧٨ ه .
(راجع خطط المقريزي ج ٣ ص ٢٥٥ وما بعدها) .
ولعل السبب الذي من أجله رفض ابن المغربي مؤازرة البساسيري هو أنه كان يريد الانتقام لأبيه وجده من الفاطميين ويريد الانتقام من البساسيري لأن ابن المغربي كان هرب منه إلى مصر .

جملة واحدة ، والوفادة على الباب بعد تحريمها خطة شديدة ، ورجحت بين الأمرين فرأيت أن الاتمام خير من الرجوع ، وأن الذى اقتضى إنشاء ذلك السجل هو تلفيق من بعض المفسدين ، أو ظن ظان أننى إذا دخلت تعرضت بوزارة أو زاحمت أحداً فى رتبته ، واستخرت الله تعالى وتوجهت على صوبى ، فلقينى بسجل مثله بثلاثة ختوم فى المعنى الأول ، وصرت على صوبى حتى انتهيت إلى الفرقان فاقينى ثلاثة من النجابين بسجل فى المعنى بعينه ، فقلت: يا سبحان الله بم يستحق من هدف لسيوف التركمانية وسهامها نفسه ، وأقام بازائهم سنة جرداء يعاين فيها كل ساعة حتفه ، حتى نصره الله النصر العزيز ، وفتح على يده الفتح المبين ثم من بعد رجوعه عبر بحلب فملكها تملكى ، وبلغ من تسخير أهلها مبلغى ، أن يكون جزاءه المنع عن العود إلى باب ولى نعمته ولكنه لا حيلة فى المقادير .

ولما كان الأمر على هذا فى تسلسل الكتب والرسل فى معنى الرجوع على أدراجى(ا) [رأيت أن أنكب] (ب) فتنكبت عن الطريق الجادة إلى البرية والمجاهل ، فما شعروا بى حتى أطلعت رأسى بالجب[1] على باب القاهرة ، فدخلتها دخول المهزوم لا الهازم ، والمكسور لا الكاسر ، والمغلوب لا الغالب ؛ ولقيت ما كنت آمله من التقديم والاعلاء والرفع إلى [مناط الجوزاء] (ج) عكساً وضداً (د) والله المستعان .

دخول البساسيرى بغداد :

ثم أن قريشاً لما أيقن أن ابراهيم بن ينال نزع (هـ) عن الموصل[2] ، وترك بها شرذمة قليلة

(ا) فى د : دار أخى . — (ب) سقطت فى د . — (ج) فى د : منار الحوز . — (د) فى د : صدا . (هـ) فى د : لا نزاع .

---

(١) الجب الذى قرب القاهرة هو جب عميره وكان يبرز إليه الحاج والعساكر (معجم البلدان ج ٧ ص ٤٦ ، طبعة القاهرة) .

(٢) جاء فى ابن الأثير : فى هذه السنة (أى سنة ٤٥٠ هـ) فارق ابراهيم ينال الموصل نحو بلاد الجبل فنسب السلطان طغرلبك رحيله إلى العصيان ، فأرسل إليه رسولا يستدعيه وصحبته الفرجية التى خلعها عليه الخليفة ، وكتب الخليفة إليه أيضا كتاباً فى المعنى ، فرجع ابراهيم إلى السلطان وهو ببغداد ، فخرج الوزير الكندرى لاستقباله وأرسل الخليفة إليه الخلع ، ولما فارق ابراهيم الموصل قصدها البساسيرى وقريش بن بدران وحاصرها فملكها البلد ليومه ؛ وبقيت القلعة وبها الخازن واردم وجماعة من العسكر ، فحاصراها أربعة أشهر حتى أكل من فيها دوابهم ، فخاطب ابن موسك صاحب =

من أصحابه بحصن فى البلد ، حركته النحيزة للرجوع إلى بلده وسأل البساسيرى صلة جناحه والشد منه بعسكره العراقى ، فأجابه إلى ذلك وسار معه إلى الموصل واستولى عليها ، وأحاط بالقوم المتحصنين بحصنها ، فقتل فريقاً ومنّ على فريق باطلاقهم ، وكان فى جملتهم رجل من مقدم الغز وكبرائهم اسمه تارختكين (١) فهمّ البساسيرى بضرب رقبته وسأل الرجل أن يجود عليه بروحه حتى يستنقذ عيال البساسيرى الذين كان الغز سبوهم من بغداد وقت دخولهم إليها وبذل له سوى(ا) ذلك مالا جزيلا فأبى ذلك وقال : أما مالك فلا حاجة بى إليه وأما عيالى فانى أحسب أن دارهم ارتدمت عليهم فهلكوا ، وكان الصواب لو فعل لأن هذا الرجل كان سبب هلاك البساسيرى لما هلك ، وبلغ كتاب عمره أجله ، غير أن أولاده أخذتهم(ب) الحنة على السبايا من إخوانهم فحالوا بينه وبين القتل .

ولما تمهد أمر قريش بالموصل رجع البساسيرى إلى مركزه بالرحبة وأقام بها ، والتركمانى الذى هو طغرلبك مقيم ببغداد وفى صدره الغيظ والحزازات باستئصال شأفة عسكره بسنجار وما تعقبه من أخذ الموصل ما تغلى مراجله ، ولا تهدأ بلابله ، وقد نفذت كتبه إلى خراسان وبلاد الترك يستنفر الناس خفافاً وثقالا ، حتى حشد من الحشود الجم الغفير والعدد الكثير وألقى بين عينيه عزمه ، وجعل قصده الشام ، ومصر همه ، عالماً بأن تلك الجموع التى اجتمعت على قمعه ودفعه بعيد أن تجتمع ، وأن البساسيرى طار جهده فوقع ، ونهد بحشوده وجنوده إلى الموصل نهود من ليس فى طريقه شوك يشوكه ولا شئ يشفق منه ويخافه ، ولقد كان الأمر على ما قدره فى نفسه ، وقرر فى فكره فان قريشاً أجفل منه هزيما ، والبساسيرى كان يشد على خيل الهزيمة وقطع البرية متوجهاً إلى دمشق،فعند ذلك أخرجت الأرض أثقالها وكشف القناع عما كان استقر بينى وبين ابراهيم بن ينال كما أتانى رسوله الصوفى وأنا بحلب ، فلم يشعر طغرلبك بشئ حتى ضرب ابراهيم بن ينال على خزائنه وأمواله فحازها كلها ، وأخذ بها صوب الجبال

(ا) سقطت فى د . — (ب) فى د : أخذ بهم .

= اربل قريشاً حتى آمنهم ، فخرجوا فهدم البساسيرى القلعة وعفا أثرها ، وكان السلطان قد فرق عسكره فى النوروز ، وبقى جريدة فى ألفى فارس حين بلغه الخبر ، فسار إلى الموصل ، فلم يجد بها أحداً وكان قريش والبساسيرى قد فارقاها ، فسار السلطان إلى نصيبين ليتبع آثارهم ويخرجهم من البلاد ففارقه أخوه ابراهيم ينال وسار نحو همذان فوصلها فى السادس والعشرين من رمضان سنة خمسين ، وكان قد قيل ان المصريين كاتبوه والبساسيرى قد استماله وأطمعه فى السلطنة والبلاد ، فلما عاد إلى همذان سار السلطان فى أثره .

(١) فى ابن الأثير ج ٩ ص ٤٤٧ يسمى خمارتكين الطغرائى .

فاختبط طغرلبك وعسكره فتفرقوا [أيدى سبا] (ا) وهام طغرلبك على وجهه مقتفياً لأثره حتى غاب حسه (ب) ولم يدر أى طريق سلك ، وفى أى واد هلك ، فلما رأى البساسيرى أن الله سبحانه قد قطع به الأسباب ، وفل منه الأنياب ، علم أن بغداد فريسة لمن طلب ، وقبضة لمن رغب ، فزحف إليها بالرايات المستنصرية ، وصادف منها أرضاً تعج إلى الله تعالى من ظلم التركمانية ، وقلوباً ملئت غيظاً من العباسى وابن المسلمة الذى كان سبب استدعائهم وتسلطهم على حرم الناس وأموالهم ودمائهم ، فكان قدوم البساسيرى عليهم كنزول الرحمة من سمائهم ، فشدوا حيازيمهم معه لاقامة الدعوة المستنصرية على المنابر ، وقصد دار العباسى برقبته ونقله عن عزة المجالس إلى ذل المحابس ، فأما ابن المسلمة لعنه الله الذى كان سبب هلاك المسلمين فقد جعل بعد صب العذاب الأليم عليه فى جلد بقرة وركب على جنبيه قرنان وصلب على صار طويل وصلب إلى جانبه ابن مأمون الذى كان رسوله إلى التركمانى (١) واشتعلت نار

(ا) فى ك : بين يدى ب . — (ب) فى د : جثته .

---

(١) فى ابن الأثير حوادث سنة ٤٥٠ : لما عاد ابراهيم ينال إلى همذان سار طغرلبك خلفه ، وورد وزيره الكندرى وزوجته إلى بغداد وكان سيره من نصيبين فى منتصف شهر رمضان ، ووصل إلى همذان وتحصن بالبلد ، وقاتل أهلها بين يديه ، وسار من كان ببغداد من الأتراك إلى السلطان بهمذان ، وسار عميد الملك الكندرى إلى دبيس بن مزيد فاحترمه وعظمه ثم سار من عنده إلى هزارسب ، وأرسل الخليفة إلى نور الدولة دبيس يأمره بالوصول إلى بغداد فورد إليها فى مائة فارس ، وقوى الأرجاف بوصول البساسيرى فلما تحقق الخليفة وصوله إلى هيت أمر الناس بالعبور من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى فأرسل دبيس إلى الخليفة وإلى رئيس الرؤساء يقول : «الرأى عندى خروجكما من البلد معى ، فاننى أجتمع أنا وهزارسب فانه بواسط على دفع عدوكما» فأجيب ابن مزيد بأن يقيم حتى يقع الفكر فى ذلك ، فقال : العرب لا تطيعنى على المقام وأنا أتقدم إلى ديالى فاذا انحدرتم سرت فى خدمتكم . وسار وأقام بديالى ينتظرهما ، فلم ير لذلك أثراً فسار إلى بلاده .

ثم أن البساسيرى وصل إلى بغداد يوم الأحد ثامن ذى القعدة ومعه أربعمائة غلام على غاية الضر والفقر وكان معه أبو الحسن بن عبد الرحيم الوزير ، فنزل البساسيرى بمشرعة الروايا ، ونزل قريش بن بدران وهو فى مائتى فارس عند مشرعة باب البصرة ، وركب عميد العراق ومعه العسكر والعوام وأقاموا بازاء عسكر البساسيرى ، وعادوا . وخطب البساسيرى بجامع المنصور للمستنصر بالله العلوى صاحب مصر وأمر فأذن بحى على خير العمل ، وعقد الجسر ، وعبر عسكره إلى الزاهر وخيموا فيه ، وخطب فى الجمعة من وصوله بجامع الرصافة للمصرى ، وجرى بين الطائفتين حروب فى أثناء الأسبوع ، وكان عميد العراق يشير على رئيس الرؤساء بالتوقف عن المناجزة ، ويرى المحاجزة ومطاولة الأيام انتظاراً لما يكون من السلطان ، وبسبب ميل العامة إلى البساسيرى أما الشيعة فللمذهب وأما السنة فلما فعل بهم الأتراك ، وكان رئيس الرؤساء لقلة معرفته بالحرب ولما عنده من البساسيرى يرى المبادرة إلى الحرب ، فاتفق أن فى بعض الأيام حضر القاضى الهمذانى عند رئيس الرؤساء ، =

النهب(١) والغارة فى دار العباسى ، فلم يسلم له سبد ولا لبد ، وسلم العباسى إلى أحد أمراء

(١) فى د : اللهب والغارة .

= واستأذنه فى الحرب وضمن له قتل البساسيرى فأذن له . فخرج ومعه الخدم والهاشميون والعجم والعوام إلى الحلبة وأبعدوا والبساسيرى يستجرهم ، فلما أبعدوا حمل عليهم فعادوا منهزمين ، وقتل منهم جماعة ومات فى الزحمة جماعة من الأعيان ، ونهب باب الأزج ، وكان رئيس الرؤساء واقفاً دون الباب ، فدخل الدار وهرب كل من فى الحريم ، ورجع البساسيرى إلى معسكره واستدعى الخليفة عميد العراق وامره بالقتال على سور الحريم فلم يرعهم إلا الزعقات ، وقد نهب الحريم وقد دخلوا بباب النوبى فركب الخليفة لابساً للسواد وعلى كتفه البردة وبيده سيف وعلى رأسه اللواء وحوله زمرة من العباسيين والخدم بالسيوف المسلولة ، فرأى النهب ، وقد وصل إلى باب الفردوس من داره فرجع إلى ورائه ومضى نحو عميد العراق فوجده قد استأمن إلى قريش وصعد المنظرة ، وصاح رئيس الرؤساء : يا علم الدين — يعنى قريشاً — أمير المؤمنين يستدنيك ، فدنا منه فقال له رئيس الرؤساء : قد أنالك الله منزلة لم ينلها أمثالك وأمير المؤمنين يستذم منك على نفسه وأهله وأصحابه بذمام الله تعالى وذمام رسوله صلى الله عليه وذمام العربية . فقال : قد أذم الله تعالى له . قال : ولى ولمن معه . قال : نعم . وخلع قلنسوته فأعطاها للخليفة وأعطى مخصرته رئيس الرؤساء ذماماً . فنزل إليه الخليفة ورئيس الرؤساء من الباب المقابل لباب الحلبة وصارا معه . فأرسل إليه البساسيرى : أتخالف ما استقر بيننا ، وتنقض ما تعاهدنا عليه . فقال قريش : لا . وكانا قد تعاهدا على المشاركة فى الذى يحصل لهما وأن لا يستبد أحدهما دون الآخر بشئ . فاتفقا على أن يسلم قريش رئيس الرؤساء إلى البساسيرى ، فلما رآه قال : مرحباً بمهلك الدول ومخرب البلاد . فقال : العفو عند المقدرة فقال البساسيرى : فقد قدرت فما عفوت وأنت صاحب طيلسان وركبت الأفعال الشنيعة مع حرمى وأطفالى ، فكيف أعفو أنا وأنا صاحب سيف . وأما الخليفة فانه حمله قريش راكباً إلى معسكره وعليه السواد والبردة وبيده السيف وعلى رأسه اللواء وأنزله فى خيمة ونهبت دار الخلافة وحريمها أياماً ، وسلم قريش الخليفة إلى ابن عمه مهارش ابن المجلى وهو رجل فيه دين وله مروءة ، فحمله فى هودج ، وسار به إلى حديثة عانة فتركه بها وسار من كان مع الخليفة من خدمه وأصحابه إلى السلطان طغرلبك مستنفرين فلما وصل الخليفة إلى الأنبار شكا البرد فأنفذ إلى مقدمها يطلب منه ما يلبسه فأرسل له جبة فيها قطن ولحافا ، وأما البساسيرى فانه ركب يوم عيد النحر وعبر إلى المصلى بالجانب الشرقى وعلى رأسه الألوية المصرية فأحسن إلى الناس وأجرى الجرايات على المتفقهة ، ولم يتعصب لمذهب ، وأخرج محمود ابن الأخرم إلى الكوفة وسقى الفرات أميراً . وأما رئيس الرؤساء فأخرجه البساسيرى آخر ذى الحجة من محبسه بالحريم مقيداً وعليه جبة صوف وطرطور من لبد أحمر وفى رقبته مخنقة جلود بعير وهو يقرأ : «قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ... الآية» ، وبصق أهل الكرخ فى وجهه عند اجتيازه بهم لأنه كان يتعصب عليهم وشهر إلى حد النجمى وأعيد إلى معسكر البساسيرى وقد نصبت له خشبة وأنزل عن الجمل وألبس جلد ثور وجعلت قرونه على رأسه وجعل فى فكيه كلابان من حديد وصلب فبقى يضطرب إلى آخر النهار ومات .

وانظر القصيدة الثامنة والثلاثين (فى ديوان المؤيد داعى الدعاة) التى أشاد فيها المؤيد بذلك وتحدث فيها عن صلب ابن المسلمة رئيس الرؤساء .

البادية يسمى مهارش[١] فأخذه إلى موضع يقال له الحديثة بقرب الرحبة ، وكان هذا من فعل البساسيرى غيظاً وحنقاً على الحضرة ، كيف قطعت عنه مواد أموالها إذ عائدته(ا) جرت بذلك من الناظر(ب) فى ذلك الزمان ، ولما زال ذلك الناظر وجاء آخر قطع(ج) المعائدة بكليتها ، فكاد البساسيرى يتميز من الغيظ ، وجعل مكان ما يجب عليه من إخراج العباسى إلى الحضرة تسليمه إلى البدوى المقدم ذكره يستجر به المال ، واحتج بأنه لم يملك ناصية العباسى إلا بمساعدة قريش له ، وأنه لو كان الأمر بيدى لسقته إليكم وجهاً واحداً لكن شريكى الذى هو قريش سلمه(د) فى يد بدوى وهو صاحبه فان وفيتم له بالمراد أخذتم الرجل إليكم وإلا فما بقى لى عليكم حكم .

وأرسلوا فى هذا المعنى رسلا كثيرين ، منهم رسول البساسيرى ومعه فيل أخذوه من الغز ، ورسول قريش ورسول مهارش ورسل آخرين من وجوه بنى عقيل كلهم على كلمة سواء فى الطلب والالتماس ، فأول ما فعل معهم أنه لم يضرب فى مثل هذه البشارة التى ما رأت عين الدنيا مثلها طبل ولا بوق ، ولا نقر فيها نقرة[٢] حتى كاد الرسل يكفرون ويتزندقون ، وكثل ذلك عقلاء الناس ، وكانوا يقولون إنه لو ملكت قرية من أدون القرى ، وأخذ متغلب من أدون المتغلبين لكان من حق ذلك أن ينقر فى الناقور ، فكيف تؤخذ بغداد والخليفة الذى هو السادس والعشرون من خلفاء بنى العباس الذين كانت لهم مملكة الشرق والغرب فلا ينقر نقرة فى طبل البشارة ، وجعلوا يكاتبون

(ا) فى ك : عادته . — (ب) فى د : النظر . — (ج) فى د : وجاء آخر المادة .
(د) فى ك : سلم .

---

(١) هو الأمير محيى الدين أبو الحارث مهارش بن المجلى العقيلى صاحب الحديثة وعانة .

(٢) هكذا يقول المؤيد فى الدين ، ولكن الذى يفهم من كتب التاريخ أن مصر احتفلت بالاستيلاء على بغداد ، والخطبة على منابرها باسم المستنصر الفاطمى ، ويقال إن القينة نسب الطبالة غنت المستنصر بقولها :

يا بنى العباس صدوا ملك الأمر معد
ملككم كان معارا والعوارى تسترد

فطرب المستنصر لذلك ، ووهبها أرضاً بمصر جائزة لانشادها هذا الشعر ، وتلك الأرض عرفت بأرض الطبالة [راجع النجوم ج ٥ ص ١٢ ، وخطط القريزى ج ٢ ص ١٢٥ ، وتاريخ الاسلام للذهبى] فاذا صح ما رواه المؤرخون عن هذه المغنية ، فنرجح أن مصر احتفلت بهذا الانتصار ، أما المؤيد فلعله أراد أن ابتهاج المصريين بهذا النصر لم يكن كما وجب أن يكون .

أصحابهم بذكره ، والاهوان بهم والاستصغار لأمرهم ، فكانوا يلتهبون بنار الغيظ كل التهاب لاسما البساسيرى إذا اغتلظ لم يفكر لو رمى نفسه من البحر فى العباب . وأقام الرسل شهوراً عدة لا يقضى لهم حاجة ، ولا تنجح لهم طلبة ، ولا يشترى الخليفة العباسى من البدوى الذى كان عنده بفلسين فيكونوا متحكمين عليه بين أن ينزل فى دار وفرش ممهدة ويجرون عليه جرية على قدر استحقاقه من التربة فتصفو الدنيا من الأضداد ويورث الله الأرض من اصطفاه من العباد أو يمنون عليه بالاطلاق ، ويردونه مكرماً إلى العراق ليكون صنيعة من صنائعهم وطليقا من طلقائهم ، ولما كانت الصورة هذه ولبث الرجل فى الحبس سنة فما فوقها ويئس البدوى من خير ما عندنا ، تقرب به إلى طغرلبك فأطلقه من أسره ورده إلى مقره ، والتاث علينا كل ما تعبنا فيه التياثا ، وكنا كما قال الله تعالى : «ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا»(١) فأما حال البساسيرى فان الغز المسمى تارختكين المقدم ذكره لما رجع إلى صاحبه ووجده قد ظفر بابراهيم بن ينال عفى الله عنه الذى كان سبب خلاله (ا) وزلزاله حقر فى نفسه أمر البساسيرى ، وذكر أنه لا رجال معه إلا قليل الذين لا يعبأ بهم ، وسأله فى تجريد خمسة آلاف فارس من الغز معه فى المقدمة ، وأن يسير طغرلبك فى الساقة ليتسرعوا إليه ويخطفونه خطفاً ، فركضوا إلى بغداد ، ومدوا إلى ديار ابن مزيد فأصابوه هناك ، وانتشب القتال فيما بينهم ، واستمر القتل فيهم فأصيب البساسيرى بسهم طائح ، فلحق به من عرفه ، واجتهد أن يأخذه حيا ، ويحمله إلى طغرلبك فلم يستطع ذلك إذ كان السهم أصاب منه المقتل ، فحينئذ جز رأسه — رحمه الله — وحمله إلى بغداد(٢) . فهذه قصته فيما جرى عليه ولئن جرى ما جرى من الفقدان بعد الوجدان

(ا) فى د : حاله .

---

(١) سورة النحل آية ٩٢ .

(٢) فى ابن الأثير ج ٩ ص ٤٤٧ : انفذ السلطان طغرلبك بعد استقرار الخليفة فى داره جيشاً عليهم خمارتكين الطغرائى فى ألفى فارس نحو الكوفة فأضاف إليهم سرايا بن منيع الخفاجى ، وكان قد قال للسلطان أرسل معى هذه العدة حتى أمضى إلى الكوفة وأمنع البساسيرى من الاصعاد إلى الشام ، وسار السلطان طغرلبك فى أثرهم فلم يشعر دبيس بن مزيد والبساسيرى إلا والسرية قد وصلت إليهم ثامن ذى الحجة من طريق الكوفة بعد أن نهبوها ، وأخذ نور الدولة دبيس رحله جميعه وأحدره إلى البطيحة ، وجعل أصحاب نور الدولة دبيس يرحلون بأهلهم فيتبعهم الأتراك ، فتقدم نور الدولة ليرد العرب إلى القتال فلم يرجعوا ، فمضى ، ووقف البساسيرى فى جماعته ، وحمل عليه الجيش ، فأسر من أصحابه أبو الفتح بن ورام ، وأسر منصور وبدران وحماد بنو نور الدولة دبيس ، وضرب فرس =

وانقلاب الأعيان فقد ارتسمت بالدعوة المستنصرية بأرض العراقين فروق المنابر(ا) وبالنداء بحي على خير العمل فى ذروة المآذن والمنائر(ب) والله متم نوره ولو كره الكافرون ، ومنجز وعده إذ يقول سبحانه : «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون»[١] إن شاء الله تعالى والسلام .

والحمد لله وصلواته على رسوله سيدنا(ج) ومولانا محمد وعلى آله أجمعين وتبارك وسلم .

(ا) فى د : المنائر . — (ب) فى د : المنابر . — (ج) سقطت فى ك .

= البساسيرى بنشابة ، وأراد قطع تجفافه لتسهل عليه النجاة ، فلم ينقطع ، وسقط عن الفرس ووقع فى وجهه ضربة ودل عليه بعض الجرحى ، فأخذه كمشتكين دواتى عميد الملك الكندرى وقتله وحمل رأسه إلى السلطان ودخل الجند فى الظعن فساقوه جميعه وأخذت أموال أهل بغداد وأموال البساسيرى مع نسائه وأولاده وهلك من الناس الخلق العظيم ، وأمر السلطان بحمل رأس البساسيرى إلى دار الخلافة ، فحمل إليها فوصل منتصف ذى الحجة سنة إحدى وخمسين فنظف وغسل وجعل على قناة وطيف به وصلب قبالة باب النوبى .

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٥

الفهارس

معجم الأعلام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ف)

(ق)

(ك)

معجم أسماء الكتب

معجم الأمكنة والبقاع

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

دليل الآيات القرآنية الشريفة

صفحة	نص الآية	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية
٣٩	ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ..	١٧	الاسراء	٧٠
١٧	قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ..	١٧	الاسراء	٨٨
٢٩	كهيعص	١٩	مريم	١
١٥٥	إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً	١٩	مريم	٤٢
١٣٢	فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى	٢٠	طه	٤٤
١٧٢	وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام	٢١	الأنبياء	٨
١١٥ ، ١٨٤	ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون	٢١	الأنبياء	١٠٥
١١٩	وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت.	٢٢	الحج	٥
١٦ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩	ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب	٢٢	الحج	١٨
١٠٨	فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور	٢٢	الحج	٣٠
٢٨	يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون	٢٤	النور	٢٤
٣٣ ، ٩٢	والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا	٢٤	النور	٣٩
١١٥ ، ١٦٦	وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا	٢٥	الفرقان	٢٣
١٢٣	وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين	٢٦	الشعراء	٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩
١٥٨	إنى آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون	٢٧	النمل	٧
٨٢	إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم.	٢٧	النمل	٢٣
٧٥	إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك	٢٨	القصص	٢٠
١٠٦	امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون	٢٨	القصص	٢٩

صفحة	نص الآية	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية
٣٤ ٤٠ ٤١	الم . أحسب الناس أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين	٢٩	العنكبوت	١ ٢ ٣
٢٩	وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا .	٣٣	الأحزاب	٧
٣٤	إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق	٣٨	ص	١٨
٢٣	سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق..	٤١	فصلت	٥٣
٢٩	حم . عسق	٤٢	الشورى	١و٢
١٢٢	قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى	٤٢	الشورى	٢٣
١٨ ٢٥	وحمله وفصاله ثلاثون شهرا	٤٦	الأحقاف	١٥
٣	فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل	٤٦	الأحقاف	٣٥
٢٠ ٢٧	فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ..	٤٧	محمد (ص)	١٥
١٠٩	ما تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم	٥١	الذاريات	٤٢
٣٠	ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى	٥٣	النجم	٢و٣و٤
٣٥	والنجم والشجر يسجدان	٥٥	الرحمن	٦
١٩	فاعتبروا يا أولى الأبصار	٥٩	الحشر	٢
٣٠	وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا	٥٩	الحشر	٧
١٧٣	تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى	٥٩	الحشر	١٤
٦١	يوم يكشف عن ساق	٦٨	القلم	٤٢
١٦٤ ١٦٩	بل الانسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره	٧٥	القيامة	١٤و١٥
١٥٣	إلى ظل ذى ثلاث شعب. لاظليل ولا يغنى من اللهب..	٧٧	المرسلات	٣٠و٣١
١٢٣	إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا...	٧٨	النبأ	٣١و٣٢ و٣٣
٣١	وفاكهة وأبا	٨٠	عبس	٣١
١١٤	لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه	٨٠	عبس	٣٧
١٢٤	وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون	٨٢	الانفطار	١٠و١١ و١٢
٣٤ ٤١	ألم تر كيف فعل ربك بعاد	٨٩	الفجر	٦
١٣٣	وجاء ربك والملك صفاً صفا	٨٩	الفجر	٢٢

دليل الأحاديث المنسوبة للنبي ﷺ

صفحة نص الحديث

(م)

٣٨ ما صيد من مصيدة ولا قطعت من وشيجة إلا بما يضيع من تسبيح الله فخلى سبيله .
٥٩ من سئل عن علم عنده فكتمه ألجمه الله تعالى بلجام من نار .
٣١ من فسر القرآن بالرأى فأصاب لم يؤجر ، وإن أخطأ دخل النار .
٣١ من فسر القرآن برأيه فأصاب كتبت عليه خطيئة لو قسمت بين العباد لوسعتهم ، فان أخطأ فليتبوأ مقعده من النار .
٣١ من فسر القرآن برأيه فأصاب لم يؤجر ، وإن أخطأ محا الله النور عن قلبه .
٢٠ من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار .
٣٠و٣١ من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار .
٣١ من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ . (وزاد رزين) ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر .

(ن)

٦٠ نحن قوم أميون لانعرف الحساب ؛ الصوم مرة هكذا (حتى استوفى العدة ثلاثين فى ست مرات وأنه جمع الأصابع ثانية فلما انتهى إلى الآخر نقّص واحداً من الأصابع ثم قال) ومرة هكذا.
٣٩ نزل القرآن على سبعة أحرف .

(و)

٢١ وجدتها بحراً (قالها لما ركب فرساً) .

(لا)

٣٨ لا تتخذوا ظهور الدواب كراسى لأحاديثكم ، فرب راكب مركوبه هو خير منه وأطوع وأكثر ذكرا .
٣٧ لا يصاد من الحيتان إلا بما يضيع من التسبيح .
٢٨ لا ينقص مال من صدقة بل يزيد .

(ى)

١٧٤ يا عماد من لا عماد له ، ويا سند من لا سند له ، ويا حرز من لا حرز له ، ويا ذخر من لا ذخر له ، ويا غياث من لا غياث له .

المراجع

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسين على الشيبانى)

الكامل فى التاريخ طبع لندن سنة ١٨٦٣م .

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد)

بدائع الزهور طبع بولاق سنة ١٣١١ .

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبع دار الكتب المصرية) .

ابن الجوزى (أبو المظفر بن قيزوغلى سبط بن الجوزى)

مرآة الزمان نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٥٠٦ .

ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين على)

رفع الاصر عن قضاة مصر نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٠٥ تاريخ .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)

كتاب العبر ، وديوان المبتدء أو الخبر (طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) .

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباسى أحمد بن محمد)

وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان (طبع القاهرة) .

ابن طاهر الأزدى (جمال الدين أبو الحسن على)

أخبار الدول المنقطعة نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية برقم ٨٩٠ تاريخ .

ابن طباطبا (محمد بن على المعروف بابن الطقطقى)

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية (طبع بمطبعة الرحمانية بالقاهرة) .

ابن القلانسى (أبو يعلى حمزه)

ذيل تاريخ دمشق (طبع بيروت سنة ١٩٠٨) .

ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر)
البداية والنهاية (طبع القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ).
ابن منجب الصيرفى (أبو القاسم على)
الاشارة إلى من نال الوزارة (طبع القاهرة سنة ١٩٢٤ م).
ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم)
لسان العرب (طبع بولاق).
ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف بن حلب)
تاريخ مصر (طبع القاهرة سنة ١٩١٩).
البغدادى (الخطيب)
تاريخ بغداد (طبع القاهرة)
البندارى
تاريخ دولة آل سلجوق (القاهرة ١٩٠٠).
ثقة الامام علم الاسلام الداعى
المجالس المستنصرية تحقيق محمد كامل حسين (طبع القاهرة).
الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد)
تاريخ الاسلام (نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٢٩٦ تاريخ).
السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)
تاريخ الخلفاء طبع القاهرة سنة ١٣٥١ هـ
حسن المحاضرة طبع القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ.
الفيروزبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب)
القاموس المحيط.
القلقشندى (أبو العباس أحمد)
صبح الأعشى.
الكرمانى (أحمد حميد الدين بن عبد الله)
رسائل الكرمانى (نسخة خطية بمكتبتى الخاصة).
ناصرى خسرو
سفرنامه (ترجمة الدكتور يحيى الخشاب).

النعمان القاضى (أبو حنيفة النعمان بن محمد حيون المغربى)
دعائم الاسلام نسخة خطية بمكتبتى .
كتاب الهمة فى آداب أتباع الأئمة -- تحقيق محمد كامل حسين (طبع القاهرة) .
محمد كامل حسين
أدب مصر الفاطمية (طبع دار الفكر العربى) .
المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)
اتعاظ الحنفا طبع القدس سنة ١٩٠٩
المواعظ والاعتبار طبع مطبعة النيل .
المؤيد فى الدين داعى الدعاة (هبة الله بن موسى بن داود) .
ديوان المؤيد فى الدين داعى الداعى تحقيق محمد كامل حسين (طبع القاهرة) .
المجالس المؤيدية نسخة خطية بمكتبتى .
ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى)
معجم الأدباء (طبعة فريد رفاعى)
معجم البلدان (طبعة ليبزج سنة ٩٨٧٠ ﻫ) .

HAMADANY (H.F.).
The History of the Isma'ili Da'wat and its literature during the Phase of the Fatimid Empire, J.R.A.S., Part I, 1932.

HITH (Ph. K.).
The History of the Arabs.

IVANOW (W.).
A Guide to Ismaili Literature.

LANE-POOLE.
History of the Egypt in the Middle Ages.

O'LEARY.
A Short History of the Fatimide Khalifate 1923.

استدراكات

وقعت أثناء الطبع عدة أخطاء نعتذر عنها أشد الاعتذار ، وها هى :

صفحة	سطر	الخطأ	التصويب
٣	١١	لدعوة	الدعوة
٥	١٤	اعمالهم	أعمالكم
٧	١٥	ترسمت	توسمت
٨	٢٦	اقيم	أقم
١٠	٥	الجمع	الجمعة
١٤	٦	القال	الفال
٢٦	٢٥	وودت	ووددت
٢٨	١٤	ولكان	لكان
	١٩	تتصرف	تنصرف
	٢١	باسوء	باسوأ
٢٩	١٩	حمعسق	حم . عسق
٣١	١٨	بو أنعيم	أبو نعيم
٣٥	٨	ألا	إلاّ
٤١	٢١	أينما	أين ما
٤٩	٣	الدعوه	الدعوى
	٧	عَلما	عُلمَا
	١٤	ما أن	ما إن
٥١	١	عقك	عقل
	١٥	من الله	من إله
٥٨	٢	به	بعد
	١٠	الأسر	الأسرى

صفحة	سطر	الخطأ	التصويب
٥٢	١٩	يعلو	تعلو
٥٣	١	القَرْآن	القُرْآن
	١٥	ما أن	ما إن
٦٠	٥	نَقَّص	نَقَص
٦١	١٧	وازكى	واذكى
٦٣	١٠	وأمتن	وامْتَنَّ
	١٩	الصدر	الصور
	٢٠	ويحسن	يحسّ
٦٧	٥	ومواضعه	ومواضَعة
	١٨	انسان ضررا	انسانا ضرر
٦٩	٢	واستبعت	واستتبعت
٧١	٢١	مقاسات	مقاساة
٧٣	٢٦	مختصر الدولة	مختصر الدول
٧٤	١٦	وتقذ	وتفد
٧٨	٢	يقربك	بقربك
	٦	أحكام	إحكام
٧٨	١٢	وتريفه	وتريغه
	١٩	وحاسر	وحاصر
٨٠	١١	مقاسات	مقاساة
	١٤	حدانى فى حاديها	حدانى حاديها
٨٦	١٠	فقررت	فقرّت

Tarle No. 71
743/22

صفحة	سطر	الخطأ	التصويب
٩٣	٤	تقتضى	تنقضى
٩٨	١٠	فبها	فبما
١٠١	٢٤	مصطفى	صفى
١٠٢	٢٤	فخمد	فحمدت
١٠٦	١٠	عن الخوف	من الخوف
	١٠	وعن القلق	ومن القلق
	٢٤	أو آتيكم بشهاب قبس	أو جذوة من النار
١٠٨	٩	واجتنبوا	فاجتنبوا
١١٢	١٢	فهل لا	فهلا
١١٣	١٠	أبنائها	أنبائها
١١٩	١٥	ذكرنا أنه كان	ذكرنا أن ابنه منيعا كان
١٢٤	١٦	صاحبة	صاحب
١٣٨	١١	يدعو	يدعوه
١٤٣	٢٠	يقوم	بقوم
١٤٩	١٩	يبوأه	يبوئه
١٥٤	١٧	و إذ قال	وقال
١٥٧	١٩	كمينيين	كمينين
١٦٠	١٥	مبكين	منكبين
١٦٧	١٩	شيعه	شيعة
١٧٠	٢٥	موطأ	موطئا

صويب

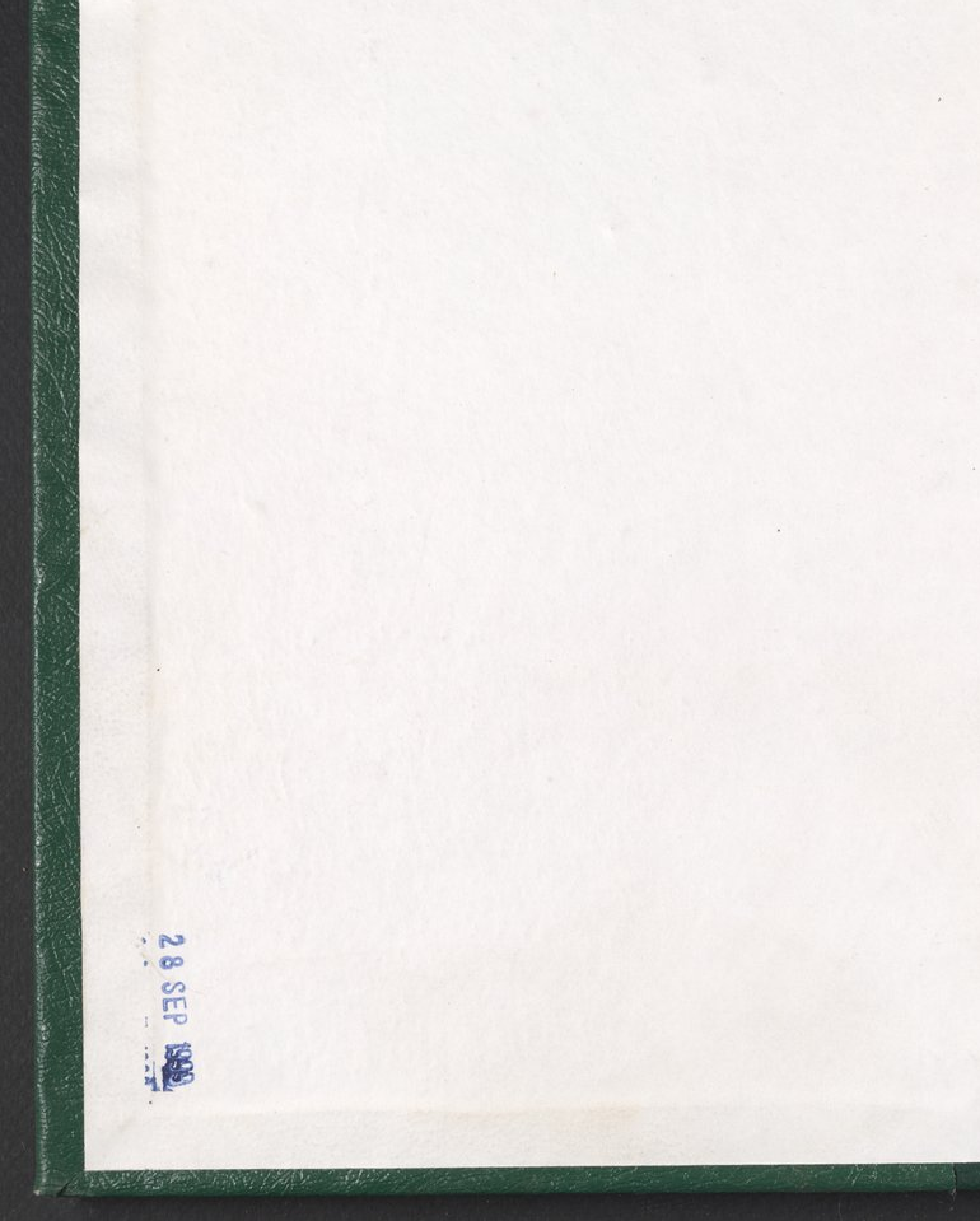
كرنا أن ابنه
يعا كان

حب

عوه

م
ئه
ل
نين
كيين
عة
طنا

B 12322477
i 13646722



28 SEP [illegible]

BP
195
.I82
S5x
1949